موزاييك للدراسات والنشر
MOSAIC FOR STUDIES AND PUBLICATION

رواية

عيسى الشَّيخ حسن

خربة الشيخ أحمد

لما كان ظرفنا مليان





ISBN: 978-625-7240-12-0

عنوان الكتاب: خربة الشَّيخ أحمد | روا ية

اسم المؤلف: عيسى الشّيخ حسن

تدقيق لغوي: علي صالح الجاسم

الطبعة الأولى: ٢٠٢١



دار موزاييك للدراسات والنشر

الفاتح -اسطنبول -تركيا.

E-mail: rameta12009@hotmail.com

رواية

خربة الشَّيخ أحمد

لمّا كانْ ظرْفْنا مَليَان

عيسى الشَّيخ حسن



الإهداء:

إلى جميع أصدقائي في "الفيس بوك" الّذين قرؤوا النصّ بحبّ، وأضافوا إليه بتعليقاتهم، وكان لتشجيعهم أثرٌ كبير في اكتمال العمل.

(١)

- حجّي ي ي ... موجّييدْ؟

تكون حرارة "الصوبة" قد استأثرت بالغرفة، فيقول العجوز:

- ولْ يمّاا اگصرم المازوط

ويلتفت إلى ضيفِهِ، الذي يذكّره بحكايةٍ بعيدة، بينه وبينها سنون مديدة، ولكنّ العجوز مُتجهِّم لأمرٍ ما، لعلّه موسم القحط، ولعلّه وجع المفاصل، ولعلّه تفكّرٌ في مصروف "تالي الشتويّة".

- توجّد لِمَّن ربّعنا ذيج السنة؟ سنتن امْحلت، واستشملنا؟

يتحرّر العجوز من فروته، ويطلق يديه في الفراغ الدافئ، وينادي:

- وين چايكُم؟

ويذهب الضيف في سرد قصص، يهزّ لها الشيخ رأسه، ثمّ ينهض من تُكأته، وكأنّ موجة الوهَن التي تنتابه منذ يومين قد انحسرت، فيتحرّر من فروته نهائيًّا، ويجلس جانب الضيف، معلّقًا بعبارة أو عبارتين، ولكنّهما وصلا أخيرًا إلى الإيقاع الذي وحّد بين شطري شاشة انتصبت بينهما، يشاهدها طفل وحيد، كان قد أحضر الشاي، وصبّ لهما، ثمّ وضع الصينيّة جانبًا، وجلس يتفرّج.

- وتوجّد الگصاص؟ عبّينا الصوف، بثلث شلول، وانكتّينا على حلب. بتنا بـ "خان الشعّار" أوّل يوم. جثا العجوز على ركبتيه، متذكّرًا حادثة نافرة مثل بثرةٍ عنيدة، وهزّ لحية ضيفه، هزّها بعنف:

- گُول الصّحيح.. على مين چان الحگّ يومها.

- عليكم اثنينكم.. الزلمة صار جوّا التراب.

- الله يعفي عنّا وعنّو.

تكون الشمس قد توسّطت السماء الباهتة، وقد ظهرت بين ندب الغيم البيضاء، وقد جلبوا للعجوزين ماء دافئًا كي يتوضّأا، ويصلّيا، ويكملا البحث عن صور قديمة، يستظهرانها بعناد ومحبّة.

- شهر "هلالي" ما جانا مطر. يا ربّ ارحمنا.

- آمين.

في حين يحضر العدس قبل وصوله، برائحة أخّاذة، تفتّت العجوز لهما الخبز، ثم تسكب لهما في الصحن الكبير، وتمدّهما بملاعق النحاس الثقيلة. وحين يعود الشاي مرّة أخرى، يكون العجوزان قد طويا الشاشة التي بينهما، وأخذت منهما غفوة العدس والدفء مأخذها.

- حجّي لا تنام.. أُگعد اشرب چاي

وينظر العجوز إلى ضيفه نظرة رضا، وقد ذاب خيط التجهّم تمامًا، فيأخذ من يده، وينظر إليه مرّة أخرى:

- يا ربّ .. لا ترمينا عن حيلنا.

فيما سأل الطفل الذي جلب الشاي، وأكل معهما من العدس ذاته، والحكايات ذاتها: ما سبب كلّ هذا الدفء.. الصوبة؟ أم الذكريات؟

(٢)

- إيدي ما عاد تناط ظْهَري.

- لااا يا حجّي، كلّنا لكْ. وعصاك الـ ما تْعَصاك.

يعرف الأولاد أنّ الشيخ يُسْمِعُهم عبارته، ليسمع مثل هذا الردّ، ولكنه يستمرئ تجهّمه، ليختبر حرصهم على مرضاته، فينهض متثاقلًا، فيخفّون إليه بالعصا، والحذاء الخفيف الواسع، وهو ينظر إلى اللا شيء، مطمئنًّا، وقد ملأ يده من "صلاحياته" غير المعلنة، في قيادة هذا الحشد. يحدث هذا أوّل الـ"صَّفِري" وآخر الربيع. أمّا في الصيف، فينشغل بالزائرين، ويحدث أن يسافر هو الآخر، إذا جاءه خبر موت صديق حميم.

ومنذ سنتين، لم يعد يحتمل "اللبّاد"، فمدّوا "الأوضة" بفرش الإسفنج، وجاءه ابنه الأصغر بمقطّعة من الفرو الأصلي، وضعوها جانب الصوبة، فيتمدّد الشيخ عليها متّكئًا على وسادتين، يمسّد الشيخ وجه المقطّعة فيلمَس وبرًا أعاده إلى فروةٍ قديمة، لبسها قبل ثلاثين.. ربّما خمسة وثلاثين، فصّلها، بجلودٍ اشتراها من سوق الجلود، ١٧ جلدًا اختارها بعناية، دفع "الزايد والناگص" ١٤ جلدًا أبيض، وثلاثة جلود سود، ويومها ظلّ يمسّد الفروة مادًّا يده الخارجة من يد الفروة إلى بطانتها، يتلمّس الوبر المفتّل الناعم، مطمئنًا إلى بحيرة الدفء التي غمس فيها يديه. ملتفتًا إلى "القَبّة" السوداء الكتيمة، المدرّبة بدربين برتقاليّين في الأعلى، واصلين بين يدين مجوفتين، صاعدتين حتى الكتف.

***

- لا والله.. إذا طْلعت لحية ابنك.. زيّن لحيتك.

لم يتمكّن الفتى الأصغر من سماع وصلة الزجر، فعلا صوته:

- يا حجّي توكّل بالله، والله ما أخطينا بشيّ.

يشفع للصغير أنّه كان يومًا "الگُعدة". يظلّ الحجّي مطرقًا في الأرض، مادًا عكّازه إلى الأمام، ينظر إلى الصغير بطرف عينه، فيتذكّر نزقه وهو صغير، وخروجه على النظام الذي أرساه في العائلة، ولكنّه ليس الخروج المستوجب للغضب. كان عبد الله في الثانية من عمره، حين مرض مرضًا شديدًا، وكاد أن يفارق الحياة لولا أن تداركته خلفة المصيطف وعالجته في مكان بعيد عن عيادات الأطباء، ومن يومها صار للگعدة مبرّرٌ آخر ليفعل ما يشاء. ولكن عبد الله الآن دكتور تملأ سمعته المنطقة. صحيح أنّه تخرج من معهد صحّي ولكنّه خبير في أمراض الأطفال والكبار مثل أيّ طبيب، يحقن الإبر، ويقيس الضغط، ولديه دائمًا في البيت أدوية إسعافية، وطالما سمع عبارة: "وين الدكتور عبد الله" من أمٍّ والهة، أو أبٍ مستغيث، أو عجوز رفقة حفيدٍ مريض. وافترّت شفتا العجوز عن ابتسامة سرعان ما "لمّها" ومضى يمشي يحفّه اثنان من أبنائه وبضعة أحفاد، ونظر العجوز إلى السماء المبطّنة بالغيم، وإلى زرع شباط الداكن القصير، وغمغم:

- يا ربّي مطّرها.

ظلّ الحجّ عبد اللطيف قابضًا على شؤون البيت والأرض قبل أن "يرتمي عن حيله" كان ذلك قبل اثني عشر عامًا، حين فاجأته جلطة خفيفة، حين فاجأه تراجع محصول الحنطة، رغم أنّه سقى الزرع أربع مرّات، إضافةً إلى مطر نيسان الغزير. كان للجلطات وقتها وقع مخيف على الأسماع، ولكنّ الحاجّ "نفذ منها"، سرعان ما لحقه الدكتور عبد الله، وأجرى له الإسعافات الأوّلية، قبل أن ينقله إلى المدينة.

شهر كامل، والناس حوله، عُوّادٌ من قرى العرب والأكراد، جيرانه في الأرض، شاويش عمّال القطن، رفاقه في رحلة الحجّ، الملّا سعيد، المعلّم أرتين، أبو آزاد صاحب محلّ الجملة، زملاء أبنائه الموظّفين، أهل القرية. تحضّر زوجته غداءً لأربعين، عشرين منهم هم أهل البيت. كلّ يوم تختار نوع الغداء: الدجاج، وطبيخ الخضار، والعدس، والمجدّرة، وشجيج الباميا. في اليوم الرابع ذبحوا نعجة حائلًا وجديًا، حين زارهم شيخ العشيرة من قرية بعيدة. استأنس الحاجّ بزائريه، وتعافى وسرّ بهم وهم يتحدثون إليه بمحبة وبعض المزاح حين يعرضون عليه الزواج دليلًا على أنّه ليس مريضًا. وكان يراقب ضيوفه وهم يأكلون، في حين يأتونه بالطعام الذي "حمّاه عليه الطبيب"، ولم يكن يهتمّ بأطايب الثريد والرزّ الـ "ميدّم" بالسَّمنة، ولكنه حين رأى الصينيّة في اليوم الثامن، اشتهى أن يمدّ يده معهم، ويأكل من تلك "الحكاكة" السوداء المالحة، ستقول الكنّة الصغرى: "يا خجلتي".. سيعيبون طبخها، وربّما تعرّضت لتأنيب الزوج الذي اختارها وهو يعرف أنّها في بيت أهلها، لم تخبز رغيفًا، ولم تضع ماعونًا فوق نار.. وهي لم تدرك أن نسيانها صينيّة البطاطا باللحم فوق "الببّور" أيقظ في نفس العجوز، رغبة جامحة للشفاء. حين فاتح الحجّي زوجته العجوز برغبته المفاجئة، ضحكت.. وقالت:

- الحجّي طاب.

(٣)

- هذي الفلاحة أمّ الندامة يا بني.

هو يعرف ذلك، ولكنّ الخسارة كبيرة، كبيرة فوق التصوّر. العمّال، والصيدلية الزراعية، والديون المستحقّة السابقة. لم يكن يريد زراعة هكتار كامل من البندورة.. ولكنّها إرادة الله، في العام الفائت زرع ثلاث دونمات، وحملت البندورة "من عيونها"، وكانت الأسعار مجنونة، نضجت حبّاتها الحمراء أوّل حزيران، بيعت البندورة من فوق ظهر الـ"بيكام"، وقبل أن تنزل إلى الأرض، ثمارٌ عجيبة في استدارة التفّاح وحمرته، ومذاقٍ يجمع بين حموضة الليمون وحلاوة الجزر، يسمّيها عناد "الليلان" أو البندورة الفرنسية. أصحاب الدكاكين ينتظرون مجيء سيارته منذ الفجر، يركضون إلى السيارة، ويشاركون في فكّ الأربطة عن الصناديق الكبيرة، ويتنازعون فيما بينهم وقد حجز كلٌّ منهم صندوقًا أو صندوقين، في الدكاكين الممتدّة من قناة السويس حتى الهلاليّة، وهو بينهم ينهرهم بقسوة، ويمدّ يده مدافعًا عن البضاعة المغدورة، الذاهبة إلى الوزن مشفوعة بصرخات الولد الواقف على القبّان.

مائتا ألف ليرة.. بل مائتان وتسعة آلاف وسبعمائة ليرة، كما جاء في حساب الدلّال، رقم كبير بلا شكّ، أراد أن يخفي الرقم خشية "عين ما صلّت ع النّبي"، ولكنّ كاتب الدلّال سرّبه بين الفلّاحين، فتقرّبوا منه فيما بعد ليظفروا بالبذرة السحريّة التي خطفت الزبائن من صناديقهم المهجورة.. أهو البذار ذاته؟ أم زهرة الكبريت، أم الأرض.. حتّى المزبلة التي جاء منها بالتراب المخصّب لم تنجُ من احتمالاتهم. كلّ شيء عن دحّام المحمد العبد الله، المزارع الشابّ كانَ مهمًّا. يراقبونه حتى في سيره اليومي، وهو يعود من سوق الهال إلى حقله، فيمشي بين شجيرات مملكته، متلمّسًا وريقات الشجر القصير، باحثًا عن شبهة مرض ما، يمسك

"الكاروك" فيوسّع لمجرى الماء في الخطوط التي دهسها العمّال بالأمس، وحين يتأكّد أنّ الشرايين الفارغة جاهزة لاستقبال الماء، يتركها إلى العصر، ثمّ يشغّل "موتور الميّ" ويتابع أولاده وقد حملوا "كواريك السقي" بينما يفكّر في شيء لا يعرفه أحد.

***

- الضم لي الابرة، ما ني شايفة، ما عرف عيني شبيها اليوم.

"تضاضى" دحّام ليظهر له الضوء من خرم الإبرة، وبلّل ريقه ليجّمع فُتيلات الخيط الدقيقة. أخذ الأمرُ وقتًا أكثر من المعتاد، لم يكن بسبب نظره، ولكنّ يده ارتجفت قليلًا. مدّ رأس الخيط، واطمأنّ أن السلك وقع في الأسر، فقدّم الإبرة إلى أمّه، وكأنّه حقّق إنجازًا قديمًا كانت "حبّابته" تكافئه عليه، حين يقرفص فوق اللحاف، منتظرًا أن تغمد آخر طعنةِ في جسد اللحاف، وتعقد آخر الخيط، ثمّ تقطعه بأسنانها، فـ "يلضمه" من جديد، بخيط متين، وينتظر مكافأته آخر الأمر: كأسًا من حليب، أو ليرة سوريّة، أو حتى نصف ليرة بقيت في جيب صندوقها العتيق.

- اجلب الگاع وطشها ذْرَة، بلچي تلحگ الصِّفِري.

- لا والله.. لو انّي أشحذ ما أجلبها، باچر شـ يگولون؟

- حرام يا بني، البندورة جافت عند الدلّال، وما حدا اشترى، والبارح كبّوها بالنهر.

- خلص.. باچرِ أجيب مّاعين، ونسوّيها دبس.

وسكتت العجوز، وقد وجدت في صناعة الدبس مخرجًا لتصريف البندورة التي ملأت ساحة الدلال الصغيرة، وبقيت أيّامًا.

وهي تدرك أن ترك البندورة في الشجر عارٌ كبير، أمام أهل القرية، فماذا سيقولون عنهم غدًا، ستأتي ابنتها "حردانة" في الشتاء، حين تعيّرها عمّتها أو "حمواتها" بأنهم "فاگطين" تركوا موسمهم على الشجر، ولكنّها تدرك أنّ ابنها يخسر المستقبل والماضي، بهذه "الفلحة الخسرانة". في الماضي كان العار أن يتركوا الصوف فوق ظهور الأغنام من دون جزّ، أو أن تترك لأولادها أكل "أدرام" الزبدة، من دون أن تجمّع سمنة يبيعها أبو دحّام في سوق العزرات، أمام نظر جيرانه وإخوته، ويقبض مئات من الليرات، ويجلب معه المشبّك والخسّ. ولو أنّ الولد الذي "يْهَذب مثل الفلو" أحيانًا، سمع كلامها، ولم يتوسّع في زراعة البندورة لخفّت الخسارة، قالت له:

- يا إبني الطمع بالجنّة، سوّي نصّ الگاع بندورة، ونصّها بطيخ ودبشي، ولكن "الولد ولد ولو عمّر بلد"، وابنها الذي اشترى "بيكام" المازدا الطحيني، لم يعد يرى أمامه و"انغرّ بحالو". قالت له: "كلّ شي يعدّي من جوّاه الهوا ما هو مربح.. اشتري گاع، جيرانّا المسيحية يريد يبيعون گاعتهم".

وتنهّدت العجوز مرّة أخرى وغمغمت: "الولد ولد"، وصرخت في وجه بضع دجاجات دخلن البيت، فـ"كشّت" الدجاجات، وصرخت بالأولاد الذين يلعبون في الحوش، وهدّدتهم أن "تكشّم الطابة" إذا ظلّوا حولها، فانصرفوا ، ثمّ عادوا.

***

كان دحّام قد صفّ سيارته البيك آب أمام الحوش، وأنزل مواعين الدبس، من قدور و"صياني"، ومضى إلى بيت نايف العثمان "يفزّع" عمّته وبناتها لمساعدتهم في الدبس. هو يعرف أنّ عمّته أمهر نساء الحيّ في صناعة "دبس البندورة" وأنّ المزيج القرمزي العجيب الذي تصنعه فضّة العبد الله لا يضاهيه دبس. وهو يعرف أنّ العلاقة بين أم دحّام وفضّة ليست على ما يرام، وأنّ عائلتها من دون "فلاحة" هذا العام. وهو يعرف أنّها عزيزة النفس، ولن ترضى مقابلًا ماديًا.

في الطريق إلى بيت النايف، توقّفت سيارة عابرة ونزل منها صديقا الأمس: جاسم، وخالد، يحملان أكياسًا صغيرة، ولوّحا له من بعيد، ومضيا منشغلين في حديث لم يفهم منه شيئًا، وتمنّى للحظة أن تعود به الأيّام ويكمل دراسته، ويصبح معلّمًا مثل الأستاذين اللذين جاءا من المدينة، لا يهمّهما إن نزلت أسعار البندورة أم صعدت، يعودان إلى البيت بثياب نظيفة، ويزاملان "الآنسات" في المدرسة، ويمشيان في القرية فيختفي الأطفال من الشارع.. لو.. لو. ولكن سرعان ما تذكّر ضنك العيش الذي يعانيه صديقاه اللذان اقترضا منه غير مرة إلى آخر الشهر، فيُوفيّان حينًا ويسوّفان أحيانًا.

***

امتدت ساحة كبيرة، ملأت الحوش، وطلبت العجوز الأولاد أن يغادروا الحوش مع كرتهم إلى أرض البيادر، وطردت الدجاج خارجًا، وشاركت في كنس الحوش مع اثنتين من كنّاتها، وحفيدتها الكبرى، ثمّ مددن ساحات صنعتها العجوز من فوارغ أكياس السماد، مددن خمس ساحات كبيرة، واستقبلن جبل البندورة الصغير، وأنزلنه عند الظلّ، ثمّ قدّمن القدور، وجلست عجائز ونساء يتبادلن الحديث، متفائلات بأنّ الدبس "كنز مذخور"، وشمّرن عن سواعد سمراء بوشوم غابرة، وجاء دحّام "بمصافي" صغيرة، وبخبزٍ "ثخين" وعنب، وصنعت ابنته شايًا، وجاءت بالخاثر والبيض المقليّ بالسمن، وصاحت أمّ دحّام:

- يا حبايب.. تعالن ناكل أوّل شي، لاحگين ع الشغل.

(٤)

- شـ لُكم بالبْگَرَة؟ عَلْوَا گطِيعة الْبگَر.

ولكنّ العجوز ظلّت مشغولةً في تجميع الدبس المنشور، وتضعه في جرار النايلون الكبيرة، وتهزّ رأسها موافقة، وصرخت بالفتاة التي تمسك أخاها الرضيع، وتهدهده كي ينام:

- ولي.. وين امّج. خليها تجي ترفع جرار الدبس الجديدة.

ولم تكن شمس العاشر من تمّوز قد ارتفعت كثيرًا، وعبرت طريزيلات جانب البيت، قالت أمّ عناد إنّ جيرانهم قد اشتروا خرافًا لربطها، وجاؤوا بها من "البيزار" في أربع طريزيلات. وظلّت العجوز تنظر إلى صواني الدبس وقد كوتها شمس البارحة، ثم نظرت إلى جرار النايلون المصطفّة في الظلّ.

- والله يا خيتي، ما هو بيدي، شـ معرّفنا بمجنى البگر، البگر لوّ اهلو، بس ما ظلّ حدا يسمع ألّا شور مرتو.

- ايبييه.. وهزّت أمّ دحّام رأسها.

كانت أمّ دحّام خصّت جارتها بمائتي كيلو من البندورة، نضّدتها بيدها في سحّارات خشب كبيرة، خمس سحارات، قالت لها:

- يا خيتي، والله صفّيتهن بيدي، الحبة واختها أربع سحارات مثل ما تسوى البندورة، وسحارة طُعمة.

- عطيتن واصلة يا خيتي. يومين ثلاث وحَگْهن يصلكم ان شالله.

ولكنّ العجوز لم تأت لتستوفي ثمن الصفقة التي أبرمتها بذكاء، لتنقذ شيئًا من موسم ابنها، استطاعت أن تروّج لابنها في خربة الشيخ أحمد، أربعة أيام والسيارة تنقل الخضرة إلى بيوت مختلفة، ارتاحت فيها العجوز من أن تنهرَ أحفادها وكنائنها وأبناءها، وأراحت عينيها من منظر الموسم المكوّم. ولكنّ العجوز جاءت تبحث عند محمد المحسن عن عنزة حلوب فقد نشفت ضروع الأغنام منذ شهر.

في قرية الصفرة تلتقي الشوارع في الساحة العامّة، شيء يشبه قرية قديمة على تلّة، ولكنّها انبنت على سهل فسيح. سكن عبد اللطيف الخلف أوّلًا، وجاء إخوته بعد أشهر، بعد سنوات لحقه ثلاثة من أبناء عمّه، طووا خيامهم، وصنعوا طابوقًا من الطين، وشهدت الساحة الفارغة حجارة اللَّبِن الرطبة منشورةً، حفروا شهرين متتابعين، وبنوا على عجل خيامًا جديدة من الطين، أروقتها لا ترفرف أمام الريح، وسقوفها لا تحرّكها الأعمدة. فيما سكن الأبناء الذين تزوّجوا جانب الآباء، ثم امتدّ الأحفاد إلى رؤوس الأراضي، وانضافت إليها بيوت مهاجرين هاربين من ثأر، وموظّفين ربطهم خيط القدر بنتوء كافٍ ليحطّوا عصا الترحال في الصفرة، الملّا سعيد، وأبو نظمي موظّف الصحة، وقطب الدين مصلّح الموتورات، ومحسن العلّاص تاجر المواشي.

لم تكن الصفرة قد تغيّرت تمامًا، ما زال "العبد اللطيف" هم أهل القرية، وسادتها، وملاذ المستجير، وعمدة الرأي. حطّ عبد اللطيف في أرضٍ حَمَاد "لا طير يطير، ولا وَحَش يسير"، وتوقّفت القبائل عن الرحيل، وخفّت رِجْل عساكر الأتراك. حين جاء الفرنسيون كانت الصّفرة ثلاثة بيوت، عبد اللطيف وأخواه. تزوج عبد اللطيف من ابنة عمّه، أنجبت له خمسة أولاد ثم ماتت في حمّى نفاس الولد السادس. بعد شهرين تزوّج أختها، وأنجبت له ستة. مات أخوه الأصغر عبد الله باكرًا عن ابنتين ليس لهما أخ، فانضافتا إلى العائلة رفقة الأمّ. بعد سنتين لم يكن أمام عبد اللطيف إلّا الزواج من امرأة أخيه الشابّة. الأخ الثالث مصلح، كان

الأصغر. كان الشابّ النزق، والرجل الباحث عن المتعة والأنس، في حلب والموصل، وماردين. تزوّج متأخرًا، وحين تأخّرت المرأة في الإنجاب تزوّج بأخرى، وتأخّرت هي الأخرى، بعد ٤ سنوات، أنجبت الاثنتان، ولدين، ولكنّ مصلح العبد اللطيف رحل فجأة إلى بيروت ومات هناك. امرأة عجوز قالت إن الشرطة سألوا عنه، وبعض العارفين قالوا إن للأمر صلة بخصومة قديمة، وثمة من قال: إنّ عليه شكوى من امرأة تركية بداعي إثبات نسب.

***

وفي بيتٍ لا يخبو ضوء فانوسه، قعد أولاد ونساء ورجال وضيوف، أكلوا وشربوا، وعانوا الجوع والخوف، واستمتعوا بزائرٍ قصّ لهم حكاية عن الزير، أو أبو زيد الهلالي سلامة، أو رجل عابر بربابةٍ فقيرة، جرّ فوقها قوسًا موتّرًا بخيطٍ مقطوع من ذيل حصان، أو تجمّدوا من البرد، أو التمّوا خوفًا من ذئاب تعوي من مكانٍ قريب، وفي هذا البيت أكلوا خرافًا صغيرة في الربيع، وأكلوا "السيابيل" في أصابيح باردة منتظرين أن تفرغ الأمّهات من مخض اللبن، وفي هذا البيت أُفرغت حمول كاملة من العنب حين جاء به الباعة على ظهور الحمير، وفي تموز تأتي سيارات شحن صغيرة تفرغ حمولة دبشي في الغرفة الشرقية، لتكون فطور العائلة شهرًا كاملًا، وفي الليل يضعون بضع كرات خضراء ثقيلة في سطل ماء لتكون باردة في الصباح. وحين كانت الحدود مع العراق مفتوحة نزلت هنا في هذا البيت عشرون خصفة تمر، ظلّت فاكهة ذاك الربيع الذي جاء فيه رمضان. امتدّ بيت عبد اللطيف حتّى صار "حارة العبد اللطيف"، وسط قريةٍ وصلت إلى الشِّعْبِ الذي تجري فيه المياه شتاءً، هذا ما دعت له به أمّه العجوز، حين حجّا معًا في قافلةٍ شاميّة، خرجت من حلب أيّام الوالي جمال باشا، وصلوا دمشق، ثمّ ركبوا آلة حديدية ممتدّة اسمها القطار، يقولون إنّ العجوز دعت له حين تعلّقت بأستار الكعبة، ودعت له "يوم عرفة".

- گطيعة البگر.

قال محمد المحسن العلّاص، وهو يتفحّص البقرة العجفاء التي اشتراها اليوم من "العلوة" ولم يكن في نيته أن يبيعها فورًا، في سوق الماشية وجدها فرصة ليربح من ورائها، قال في سرّه سأعلفها شهرًا أو شهرين ثم أبيعها بضعف ثمنها. ولكنّ الشاري لم يكن أذكى من البائع. خمّن محسن ذلك وهو يتأمل البقرة التي اهتزّت ركبتاها الأماميّتان بشدّة، ثم قعدت على الأرض، ولم يكن الوقت المتأخر يتيح إسعافها إلى المدينة، أو شراء "كازوزة" قد تفيدها فيما إذا كانت "حمرانة"، ولكنّه قرّر في النهاية أن يتصرّف، فذهب إلى صديقه مصيطف الهزّاع يستنجده، واستقلّا سيارة مصيطف جهة المدينة، باحثين عن بيت طبيب البيطرة "دكتور سليمان". وفكّر محسن أنّ ثمن البقرة كان سيشتري ستّ نعجات من الحِيْل السِّمَان، أو اثني عشر رأسًا من الصغار "الگراجير". إن ماتت الآن فسيخسر اثنتي عشرة گرگورة دفعة واحدة. تخيّل أنّه حتى لو جاءه ضيف وذبح له واحدة منها، فإنه سيظلّ في حظيرته إحدى عشرة، سيكلفه الأمر كيسين من الشعير، وشلّين من التبن، وبضعة أشهر، وسيربح الضعف، وغمغم: "گطيعة البگر"، ولفت انتباه مصيطف الذي يغالب صداعًا، وقد اقترب من المدينة: "شبيك تهذرب.. وصّلنا".

طرق الباب على خجل، بعد دقائق خرج الرجل الكهل، مستغربًا، ووقف أمام الباب، وعاجله محسن قبل أن يسأل، أو يتلفّظ بعبارة امتعاض.

- لا تواخذنا دكتور، غصبًا عنّا. وأشار إلى البقرة المحمولة في البيك آب، ثبّت الرجل الكهل نظارته جيّدًا، وتقدّم من البقرة، تحت ضوء الشارع الغامر، وجسّها.

- من البارح ما أكلت شي، وترجف.

هزّ الدكتور رأسه، ودخل البيت، ولم يبطئ، وعاد بحقيبة دبلوماسية سوداء، وفتحها، وأخرج منها أنابيب زجاجية، كسرها باحتراف، وغمس فيها إبرة كبيرة، ثمّ زرقها في رجل البقرة، ثم أعطاه ظروف نايلون مختومة.

- أربع وعشرين ساعة إذا ما تحسّنت.. اذبحها.

- الله يستر.. شگد حگّ الدوا دكتور.

- هات بسّ خمسميّة.

- أخرج محسن من جيب إبطه رزمة نقدية، واستلّ منها "خمسميّة زْخَمة"، ووضعها في يد الرجل الكهل، الذي ردّ له مائة.

- أربعميّة يكفّي.

- خلف الله عليك يا دكتور.

في الطريق غمغم محسن ثانيةً: "يا ربّ لطفك"، وترك البيك آب طريق الزفت، ودخل طريقًا ترابيًّا، وصرخ محسن: "صطيف على مهلك.. تدگدگنا".

"تركتورين بزرد* كدّن ع الفلاحة"

(٥)

- ياسين، مين شاف لْنا ياسين؟

- عدّا من هين الصبح يا حجّي، ارتاح انتَ يا حجّي.

- من الصبح طلع وما ردّ.

- ياسين ما هو زغيّر، وبعدين الغايب حجتو معاه.

جلس الحاج عبد اللطيف على الكرسي الذي جاء به علاوي المحسن من قلب دكّانه، وقدّمه للشيخ العجوز ذي التسعين، ومدّ يده ليريحه، ويجلسه على الكرسي، وذهب إلى الدكان، وعاد بكأس ماء.

- أجيب لك كازوزة حجّي ي ي.

- لا.. ودّيني ع البيت، تعبت.

***

بُعيد الاستقلال بقليل، طالب الحاج عبد اللطيف بمعلم للصفرة، وظلّ يلحّ سنوات، تبرّع بالبناء، وقال لهم:

-يجيني المعلّم معزّز مكرّم، واعدّوا واحد من ويلادي.

كانت أقرب مدرسةٍ مدرسةُ خربة الشيخ أحمد تبعد عنهم مسيرة نحو ساعة، وكان ذلك متعبًا، وخاصّةً في الشتاء، حين يمتلئ وادي الصفرة بالماء، فيعبرونه من

مخاضة محسن، حيث يضيق الشّعب، ثم يعودون إلى الطريق، على ظهور الحمير وعلى أرجلهم، ثمّ إنّ أولاد الخربة يضايقون أولادهم، ولم تعد مدارس شيوخ الكتاتيب ترضي أبناء الدولة الجديدة، فتَنْظِم خاتمي القرآن الكريم في سلك موظّفيها.

في أمسية هدأ فيها العجاج، تهادت سيارة قديمة، ترجّل منها الحاجّ وشابّ تعدّى العشرين، حليق اللحية، بشارب أشقر، وعينين متعبتين حمراوين، غادرت السيارة يتبعها دخانٌ أزرق، وتقدّم الشابّ من حقيبته، فطلب الحاجّ من الصبية الواقفين، أن يتقدّموا لحمل الحقيبة.

في التعليلة قدّم الحاج ضيفه:

- الاستاز عبد العليم ياسين، استاز المدرسة.

رحّب به أهل القرية، وبدت علائم البِشر على الجميع، فقد أعلن وصول المعلم الانفكاك بين الصفرة، وخربة الشيخ، وأحس الطلاب بنشوة وفرح، وتأمّله الطلّاب، ولم تكن ملامح الغريب فيه، توحي بقسوة المعلّمين.

سبع سنين أقام عبد العليم ياسين في الصّفرة، الشابّ ابن العشرين بشاربيه النحيفين كبُر وصار رجلًا. في السنة الأولى ترجّاه الحاجّ:

- يا ابني .. ظلّ عدنا، احنا اهلك، ظلّ عدنا واعطيك خمس چوايل گاع، وعشر نعجات، واجوِّزك.

في السنة الثانية صار طعم اللبن سائغًا في فم عبد العليم، ولم يعد يردّ السمنة ويكتفي بالخبز مثلما كان يفعل. في السنة الثالثة أحسّ باغتراب شديد ليلة

العشرين من أيّار وهو يودّع القرية، ولكنّه لن يترك الصفرة إلّا في العطلة، وفي ربيع السنة الرابعة قال للحاجّ: أنا ابنك، ولن أترك القرية.

في السنوات التي خلت، كبرت المدرسة، وانضاف إلى عبد العليم معلّمان، وصار بيت المعلّمين مزار الشباب الكبار الباحثين عن سهرات لعب الورق، ولم تعد تحلو الجلسات إلّا بخسارات يفرضها عبد العليم، تأتي من دكان محسن.

كبرت صالحة؛ صالحة بنت موفق البيطار، أبو نظمي موظّف الصحة، تعدّت الثلاثين، ولم تكن البنت تشكو من دمامة، أو مرض، أو آفة عقلية، ولكنّ سفينة النصيب تأخّرت، إخوتها تركوا القرية الواحد تلو الآخر، توظّفوا في مدن بعيدة، واضطرتهم الوظائف وبنات المدينة إلى السكن في بيوت "ضوْها في الخيط، وميّتها في الحيط" وبقيت صالحة. وكان النصيب قد اقترب أكثر من مرّة، ولكنّ تقديرات الأب غير الخبير، والأمّ المسكينة، وبُعْد الإخوة، وسوء تدبير صالحة، كلّ هذا حال دون أن يصيد الفخّ رجلًا عليه القيمة. بعض شباب القرية من أولاد عمّ الحاجّ عرضوا أنفسهم للأمّ، أو كلّموا الأب، وكانت صالحة دون العشرين، وكان أبو نظمي ما زال موظّفًا، يروح ويأتي ويقبض راتبًا، يجلب به قراطيس ملفوفة يشمّ الجيران رائحتها عند الغروب. كان موفق البيطار قابضًا على جمرة غروره أمام هؤلاء الأعراب، فتقول له زوجته:

- ليش رضيت تسكن هون معاهم؟

فلا يردّ ويتذكّر تلك الأيّام التي ظلّ فيها في الصفرة، يأخذ عيّنات يتقصّى فيها الأمراض السارية والمعدية من قرى عدّة، ثم يعود إلى المدينة آخر النهار، ويأوي إلى بيت بالأجرة؛ فاختار أن يسكن الصفرة لكرم الحاجّ عبد اللطيف معه، ولأنها تتوسّط تلك القرى التي كلّف بمتابعتها، ثم جاء بزوجته الشابّة، وبنى غرفةً قريبًا من بيت الحاجّ، ولد فيها جميع الأبناء الذين نزّوا منها مثل ماء قربة مهترئة.

برقت الفكرة في ذهن الحاجّ عبد اللطيف: لماذا لا يزوّج عبد العليم من صالحة؛ فلن "يحيّر" عليها أحد، غريبان في حجره، ولن يرفع أبو نظمي "خشمه" على الأستاذ عبد العليم. فإن تزوّجا فسيضمن ذلك ألّا يتركه أبو نظمي ولا عبد العليم. في الليل أرسل زوجته الثانية، تستفهم من صالحة وأمّها. فرحت الأمّ، وأشرق وجه البنت، وفي الصباح أخبر الحاجّ ابنه الجديد بما عزم عليه، لم يرفض عبد العليم ولم يوافق، غمغم دون أن يفهم أحد كلامه، ولا هو أيضًا فهم ما يقصد، فقد كان مشوّشًا وحطّ تردّده في يد العجوز مثل كرةٍ فقدت هواءها، فابتسم الحاجّ:

- على بركة الله، جهّز حالك بالليل، وخلّي كل شي عليّ، ما ني ابوك؟

لم تكن تفاصيل ذات قيمة. أقيم العرس في بضعة أيّام، بمهرٍ وذبائح تكفّل بها الأب الجديد. لم يجرؤ التلاميذ على العبث في عرس" أستاذهم"، ولم يجرؤ عبد العليم أن يخرج عن ثوب المعلّم الرصين، وفي الحقيقة فإنّه كان عرسًا رصينًا، فَقَدَ صرخات المراهقات الخائفة، أو إطلاق النار الكثيف، وحتى الهلاهل.. غير هلهولة أم نظمي الخافتة. جاؤوا بالملّا سعيد، الذي عقد القران، بعد الوليمة.

أقام العروسان في بيت أبو نظمي. وجدت صالحة في عبد العليم حبًّا قديمًا فقدته وهي في السادسة عشرة، ووجد فيها عبد العليم المرأة التي تسرّ البال، حضرية شاويّة، تجيد صنع القهوة، وطبخ المحشي، وثريد البامية، والكليجة، وتطرّز ستائر البيت، ووجوه الوسائد، وتخصّص للجلي ثلاث اسفنجات: واحدة للصحون، والأخرى للكاسات، والثالثة لزجاجة اللمبة نمرة ٤ ولزجاجة الفانوس، وتقرأ لعبد العليم من كتابٍ صغير اسمه "تودّد الجارية" وترتّب أوراق المفكّرة واحدةً بعد الأخرى، تتسلّى بقراءتها في النهار، فتحفظ حكمها، وأبيات شعرها، ومواقيت الصلاة.

بعد سنتين وانتظار وزيارات المشايخ والأطباء و"السيّاد" أنجبا "ياسين"، كان ياسين فرحة العمر، لصالحة الوحيدة منذ سنوات، ولعبد العليم الغريب، وبخاصّة لأبي نظمي الذي وجد فيه أبناءه جميعًا ووجد فيه صورة أبيه ناظم البيطار، مفتّش الصحة الأوّل. كان عبد العليم يريد أن يسمّيه عبد اللطيف، عرفانًا للحاجّ الذي زوّجه كما يزّوج الآباء أبناءهم، ولمّحت صالحة أنّها تريد أن تسمّيه على أخيها الأكبر "عادل"، وفي هروب ناجح، اقترح عبد العليم أن يسمّياه ياسين، نسبة إلى رأس عائلته الذي حطّ في ريف إدلب قبل نحو نصف قرن، أنقذ اسم "ياسين" الموقف، وقال أبو نظمي:

- ياسين.. ياسين. أي والله.

بعد سنة ذهب عبد العليم في يوم عطلة رفقة زوجته، لإجراء فحوصات طبيّة، في طريق العودة، لم ير صاحب السيارة التي تقلّ الزوجين الجرار الذي تجاوزه، فاصطدم به في حادث مريع، مات في إثره الزوجان. ماتت أمّ صالحة من هول النبأ، وأرادت له مشيئة الله أن يبقى الجدّ الذي احتضنه سنة، ثم توفّي. قبل الوفاة بيوم واحد، أمسكت زوجة الحاجّ الثانية بيد ياسين، وأخذته إلى بيتها، وقالت:

- ياسين أخو بنيّاتي.

ومن يومها، صار اسمه ياسين العبد اللطيف.

(٦)

بين الصفرة وخربة الشيخ أحمد مسافة ساعة للماشي، ويمكن أن يقطعها الخيّال في ربع ساعة، بين القريتين وادٍ وتلّة صغيرة، لا تخبّئ القريتين عن بعضهما تمامًا. حين استقرّت القبائل، جاء أحمد الرجب واختار الشمال، وبنى بيته، جاء بعمّال بناء من حلب، ظلّوا شهرين يأكلون الخبز والسمن في الصباح، والبرغل الـ"ميدّم" على الغداء، وكلّما ذهب إلى المدينة جاءهم بالعنب والتين. ذبح لهم مرّتين، وعندما فرغوا من بناء الأوضة والبيت ومنتفعاته، أعطاهم عشر "ليرات ذهب". حين تتابعت البيوت، مرّ رجل درويش، فآنس القوم في تعليلة، نصحهم ووعظهم من دون أن يجد أذنًا صاغية، وفي نوبة إحباطٍ شتمهم لأنّهم لم يعيروه جلّ اهتمامهم. في صباح اليوم التالي غادر الدرويش. قال لهم وهو واقفٌ:

- يا أهل الخربة، لا تحسّبون انكم ملكتوها، الـ گبلكم، هذولَ همّ .. شايفين؟ (وأشار بيده إلى تلّة صغيرة.. طلل قديم يكاد يتساوى بالأرض).

وحين ابتعد، التفت وصاح بصوت عالٍ:

- يا شيخ أحمد، هذي خربة، الـ عمّروها .. راح(م)، وانتم راح تعمرونها، وراح تروحون.

عندما غاب الدرويش وراء التلّة، كان اسم القرية الجديد (خربة الشيخ أحمد) قد وُلد، كي يدوّن في سجلّات الحكومة، وينسب إليه مواليدها وجنودها، ويرسل البريد إليها، ويقصدها رجال الدرك.

ولم يكن أهل الصفرة غريبين عن خربة الشيخ، فهم أقارب من أرومةٍ واحدة، انحشرت مصائرهم في قريتين متجاورتين، كما كانت أيّام الترحال البعيدة. أيام غابرة لم تحصها وثائق مكتوبة، ولكنّها ظلّت مدوّنة في قصائد و"سوالف" أشبه بالأساطير. قبائل ضربت في الشرق والغرب، تجمّعت بعد "خراب البصرة" وطاعون المغول، عمّرت الجزيرة والشاميّة والموصل وحمص وحماة، وصلوا الرها، بين جرحين أبديين وسمتهما الجغرافيا، ظلّا يدرّان ماءً عذبًا "دِجلةُ والفُراه". وحين تغوّل المحل بسنواته العجاف ربّعوا في سهول الروج وعند بحيرة العمق، وتتابعت قوافلهم من نجد. منهم من ينتسب إلى قحطان وإلى عمرو بن معدي كرب، ومنهم من ينتسب إلى عدنان، وإلى السلالة النبوية الشريفة. يسمّيهم أهل المدن "الشوايا" لأنهم بقايا تلك القبائل الناجية من مذابح تيمور لنك، ومنهم من يسميهم العربان، ولم تبق من كلّ هذا غير سُمرةٍ حلوة، ولغةٍ أضمرت في كلماتها مفردات "الأولين"، وإن تصرّفت في معانيها أحيانًا. ظلّت الصفرة بعيدة عن خربة الشيخ في أيّام أحمد الرجب وعبد اللطيف الخلف. كان خلافًا قديمًا، حول فرسٍ رغب الشابّان كلاهما في شرائها من تاجر خيل. كان ذلك آخر أيّام العثمانيين. تمكّن أحمد الرجب من إقناع التاجر العابر نحو العراق، اشترى (العبيّة) وزاد على عرض عبد اللطيف عشرين مجيديًّا. بعد شهرين سافر عبد اللطيف إلى الموصل، بقي هناك شهرًا، وجاء على ظهر (الشهبا)، كانت الشهبا فرسًا أصيلة بحقّ، عيون كحيلة، وأعراف من حرير، وعنق يسيل في الهواء حين تركض وهي تهذب (الهيذبى). ومن يومها ازدادت المنافسة بين شابّين وَرِثا حروب الآباء وغزوات القبائل، إلى حرب باردة، صغيرة، لكنها تضيء حقدًا موفور الحطب، قليل النار، ما يكاد يشبّ حتى يجد ألف سبب لإطفائه. ففي هذه الدور ولد عقلٌ قبليّ جديد، ونساءٌ ما زالت تهلهل خلف الفرسان.

***

خريف ١٩٥٢، جاء عبد اللطيف إلى المدينة ليسجّل ابنه عبد الله في مدرسة، وصادف أحمد الرجب يقود ابنه هو الآخر. قال الشيخ أحمد لابنه:

- ابني.. ابني.. هذول احنا وايّاهم ما نتحاچى، دير بالك تحچي معاه بالمدرسة.

هزّ الصغير رأسه موافقًا، ووقف أمام المصوّر في الشارع. قضى المصوّر وقتًا طويلًا يطلب من الصبيّ أن يركّز في الصورة، بينما الشابّ يفكّر كيف سيتجاهل عبد الله العبد اللطيف، وحين عاد الأبوان من المدينة دون ولديهما، كادا يتشاركان حزن الماعز الذاهب إلى المرعى دون الجِداء، ولكنّ الثغاء استحال صهيلًا مكتومًا، ومضى كلّ منهما إلى دابّته يمتطيها نحو البريّة.

بعد شهرين، قال الحاجّ لابنه:

- انت أشطر، ولّا ابن الرجب.

- لسّع الفحص ما جا.

- إبني دير بالك.

دسّ الحاجّ في جيب ابنه أربع ليرات بحالها، ووضع في غرفته صرّة كشك، وخبز صاج، ومضى، ولم يصادف الشيخ أحمد الذي زار ابنه بعد أسبوع، وأكّد على التنافس الجديد، ودسّ في جيب ابنه أوراقًا تشتري دكّانًا بحاله.

كان عبد الله يحبّ العلوم، وبذل جهدًا كي يفهم الرياضيات، وتعلّق منصور باللغة العربيّة، وبالأستاذ القادم من الشام، وهو يحدثهم عن البحتري وأبي تمّام وجرير والفرزدق، وكان كلاهما بعيدًا عن اللغة الأجنبية، فلم يكن المسيو جان مستعدًّا لتطويع اللسان البدوي للغة البلابل لغة فيكتور هيغو وجان جاك روسّو.

بعد ستة شهور، جاءت علامات الفصل الأوّل، كانا متساويين تقريبًا، ولم يكونا من الأوائل، لاجتهادهما في جانب، وتقصيرهما في جانب، فظنّ الشيخان أنّ هذه الدرجات الجيّدة للولدين نتيجة التنافس، فزادا من حدّة التشجيع، ومَنْح الأوراق النقدية اليابسة.

في ربيع١٩٥٣ ، وفجأةً وقع منصور أرضًا، والتمّ حوله الأولاد، ورشّوا عليه الماء. ثمّ نقلوه إلى المستوصف. وقف عبد الله فوق رأسه كأمّ رؤوم، ظلّ يومًا كاملًا معه، ثمّ أخذه إلى البيت. غاب عبد الله عن المدرسة. حين وصل الخبر أحمد الرجب، أسرع إلى المدينة، ولم يجد ولده في الغرفة التي استأجرها له. قالوا له إنّه في فترة النقاهة، يرعاه قريبه عبدالله عبد اللطيف، ودلّوه على غرفته.

أُسقط في يد الشيخ، ولكنّ قلب الأب أخذه إلى غرفة ابن غريمه. كان الصبيّان يتناقشان في مسألة حساب، لم تمرّ بهما في تاريخ القبيلة، عن السرعة والزمن والمسافة، لم يحلّاها لأنّ الضيف المقبل أربكهما وأفرحهما في وقت واحد.

ضمّ منصور ابنه، وتمالك نفسه من البكاء، في حضور ابن غريمه، ثم اتجه إلى الصبيّ الذي تقدّم إليه:

- مرحبا عمّي

واحتضنه الكهل وقبّله، وهو ينظر إليه بفرح:

- والله يا ابني أنتم أخير منّا احنا الكبار.

في المساء كانت دجاجة مطبوخة تتوسّط الرجل والطفلين، وقد فرحا بهذه الزيارة الدسمة.

***

حين تأخّرت أمّ عناد لحقها ابنها، سأل عنها علّاوي المحسن، فأخبره أنّها مرّت به، واشترت عنزتين، وأنّها ذهبت إلى بيت أمّ ياسين (زوجة عبد اللطيف)، فالنساء هناك، والرجال يبحثون عن ياسين، الغائب منذ أمس.

- ياسين؟ اليوم شفتو بالبلد.

- بالله عليك؟

- اي والله، حتّى سلمت عليه، وردّ عليّ السلام،چان شايل بيدو أوراق. ومهتمّ.

كان ياسين قد نجح في الثانوية قبل عام، وسجّل في الحقوق، ثمّ سجّل في مديرية التربية طالبًا شاغرًا لمعلّمٍ وكيل في قرى البلاد النائية، وفي البلد، نصحه أحد زملائه الذين كانوا معه في الثانويّة، أن يزورا معًا أحد الموجّهين ليتوسّطا عنده، فيعيّنهما في مدرسة، وأقنعه أن يبيت عنده الليلة، وقبل ذلك يزوران بيت الموجّه رفقة أبيه الموظّف في النفوس.

***

- يا عمّاااه.. البشارة.. لگينا ياسين.

واندفع العجوز وهو يكاد يقفز من الفرح، واهتزّ العكاز في يده

- عفية.

وفرحت العجوز، وغلبها البكاء، وفي الأثناء جاء طفل صغير، يقول إنّ محمد المحسن قد ذبح البقرة، ليسجّلوا على الحصّة، فأجابه الحاجّ عبد اللطيف:

- خلّيه يحسّب البگرة كلّها عليّ، ويوزّعها على أهل الجرية.

في الطريق إلى البيت، قال دحّام لأمّه مستبشرًا: إن البندورة عادت إلى أسعارها، وأنّه سقى الحقل قبل أن يأتي، وبعد يومين سيقطف أوّل قطفات أيلول الجديدة، وضحكت العجوز فرحةً:

- عفية ربيّ.

ومضى البيكاب يقفز فوق الحصى، وفي صندوقه عنزتان تثغوان، وبضع صناديق خشبية.

"يجيك يوم يا ما اسعد ايّامك*

ويجيك يوم تلبس سمال الناس"

(٧)

كانت شمس أيلول تمشي على قدمين من قلقٍ وانكسار، تدفعها إلى عشّها الأبدي غيومٌ رماديّة كابية، مزّقتها الريح مزقًا صغيرة، وحوّلتها أشعة الشمس الواهنة إلى حطام مرآة كبيرة، يغالبَ ماءَ الفضّة اللألاء طلاءُ الرصاص الكتيم. وعند التلّة الصغيرة تناثرت أغنام القريتين في الأراضي البور، وتجمّع الرعاةُ فوق التلّة يتبارون في الرمي. أخرجوا مقاليعهم المنسوجة من صوف أغنامهم، وثبّت كلّ منهم الحلقة المنسوجة كخاتم نهايةَ الحبل الممسك بالكُفّة، يضعها الرامي في إبهام اليد التي يحذف بها، ثمّ يضع في "الكُفّة" المفتوحة حجرًا صقيلًا، ويغلقها، ثمّ يلتقط الحبل الثاني، في اليد الرامية، ويلوّح جيّدًا. قبل أن ينطلق الحجر في الفضاء تجاه عين الشمس المتوارية خلف الغيوم الممزّقة. حسم عليّان الفوضى، ونظّم مسابقةً، منح فيها الرعاة ألقابًا أشعلت فيهم الحماسة. فجعلوا الشمس عن يسارهم، ورموا نحو الشمال بعيدًا عن الشمس، والطريق، والمارّة، يتابعون الأبعد، والأدقّ، والأمهر، وكلّما أحدث مقلاعٌ صدًى صرخ عليّان: "عفية السبع".

***

هدأت القطعان الصغيرة، وسكتت أجراس المراييع، وساد سكون عجيب، وقال عليان:

- هذا غيم مطر، الغنم هاجعة، كلّ من يروح على غنمو يالله غلّگ علينا الليل.

- دحگم ولوم، شوفم.

وحدّق الجميع في قطيع سيّارات مختلفة، تمشي في هدوء، نحو الشمال، سيارتان، ووراءهما سبع بيكابات، وشاحنتان، وجرّار. عدّهما سلّوم الناصر:

- واحد.. ثنين.. ثلاثة.. أربعة.... تسعة.. عشرة.. ايْدَعش.

- وين رايحين؟ هذول.

اقترب الرعاة أكثر، وتسمّروا جانب الطريق، رجال ونساء وأمتعة، يتّجهون نحو خربة الشيخ أحمد، قافلةٌ تنوء بأحمالها، أضافت إلى مشهد الغروب بعدًا غامضًا مقلقًا، وكان ثمة أطفالٌ تطاولوا ليشاهدوا أطفالًا يشبهونهم، ومضى الركب، وشيّعتهم عيون الرعاة بفُضلة الضوء التي لم يمحها الغروب تمامًا، وحين اندغم قطيع الآلات بالخربة بدت نقاط ضوء صغيرة انبعثت من السيارات. وتساءل أحد الرعاة:

- لازم مفزّعين أهلنا.

- لا تخافون.. الله العليم انهم بلّاشة.

- بلّاشة؟

- أي.. ناس بلشـ(م) وجلـ(م)

- الله يستر.. يا الله على اهلكم. قال عليّان، الراعي الكهل، الذي ألف مهنة الرعي منذ عشرين عامًا، انطلق عليّان صوب أغنامه، وامتطى حماره، وصرخ بأغنامه:

- عيْ

وتعازل الرعاة الصغار أغنامهم، بقليل من العناء، واتّجهت القطعان الصغيرة في مجموعتين نحو الصفرة وخربة الشيخ أحمد.

***

قبل أيّام توقّفت سيّارة أمام أوضة الشيخ أحمد، وترجّل منها رجلّان متجّهمان، تلقّاهما الشيخ أحمد مرحّبًا، ودعاهما إلى مجلسه، دخل الرجلان المتجهّمان، وقبل أن ينادي الشيخ من أجل القهوة، قال الكهل المربوع:

- ترانا داخلين عليك يا شيخ أحمد.

- وصلْت يا خوي، وصلْت.

بعد القهوة، قصّ الرجل القصّة. حادثة عابرة، عرّضت عائلة فوّاز المشعل للـ"جلوة"، حينما أطلق ابنهم الشابّ النار في عرس، لم يتمكّن الشاب من رفع يده بما يكفي، ليطلق النار كما يطلق الرجال في الأعراس، كان يتحدّى أصحابه أن يطلق النار فوق الرؤوس وكأنه يصوّب إليهم، فأردت الرصاصة شابًّا من أبناء عمومتهم. لم يكن قتلًا عن طريق العمد، ولكنّ "أولاد الحلال" صبّوا النار على الزيت، وتذكّروا خصومات قديمة بين الشابّين، وبين العائلتين، ولم تجد القرية رجلًا حكيمًا يبعد النار عن الحطب، فاحتشدت العائلتان، ومن بعدهما الفخذان، واقتربت الحشود، وصرخت النساء، وكادت تحدث مجزرة لولا جهد بعض العقلاء من الغرباء في القرية، وإمام المسجد، قبل أن يتدارك رجال الشرطة الأمر في آخر لحظة.

بقي رجال الشرطة يومين يحرسون العائلة الموتورة، وقد اختُصرت الخصومة في العائلة وحدها، ولم يقبلوا إلّا بجلائهم عن الديرة، وها هم يبحثون عن ملاذٍ لهم،

في مكانٍ بعيدٍ، آمن، بعدما خرجوا من القرية وباتوا أيّامًا في دير الزور في حارةٍ أقارب لهم، لم تمنع عنهم الخوف من أخذ الثأر.

- وصلتم يا النشامى.

- ما تگصّر يا أبو منصور.

طلب الشيخ أحمد من أهله وأقاربه تجهيز الساحة الكبيرة خلف الأوضة، بَنَوا لهم خمس خيمات، وأصلحوا مستودع البذار الكبير. انتظر الشيخ ضيوفه يومًا كاملًا وقلق كثيرًا، فهم باتوا تحت حمايته، ومن غير اللائق ألّا يأتوا لأنّ شيخًا آخر استضافهم، أو أنّ أحدًا تعرّض لهم وهم في الطريق. إنّ كلا الاحتمالين يؤثّر في سمعة الشيخ والقبيلة؛ فأدنى ما سيقال عنهم إنّهم لم يستطيعوا حماية مستجيريهم.

- تعوّگم ضيوفنا.

- الغايب حجتو معاه يا با (قال منصور). ولفّ سيكارة غازي بعناية، وأشعلها، ثمّ قدّمها لأبيه، فانشغل الشيخ بلفافة التبغ، ونظر نحو الغرب.

- تأخّر المطر.

- أيلول لسّعو بأوّلو.. كاتبين بالنشرة الجويّة انّ بحمص واللاذقية مطر.

- ان شالله يوصلنا.

- جدّي ي ي ي جمّ الضيوف.

وغلبت طمأنينةُ الشيخ البردَ الذي سرى في أوصاله، وحمد ربّه سرًّا، فقد انتشر في القبائل أنّ عائلة الفوّاز في حماية الشيخ أحمد. خرج الشيخ ونظر إلى القافلة

القادمة، وشدّ فروته إلى جسده الكهل، وسبقه ابنه منصور، والرجال أمام الأوضة، ورحّبوا بالضيوف، ودعوهم إلى الأوضة، ودعوا النساء والأطفال إلى بيت منصور.

- حيّ الله، وأخذ الرجال شاحنات الماشية والأثاث إلى المخيّم الصغير. وتعاون المعازيب والضيوف في إفراغها، وبدا الحيّ الصغير مؤنسًا، بعد الوحشة التي هيمنت على الساحة زمنًا، وجاء منصور على عجل:

- العشا جاهز، نتعشّى وبعدين نكمّل.

وتوجّه الجميع إلى الأوضة، ومُدّت أمامهم صحون واسعة مغطّاة بالخبز الفائض عن أطرافها، وقد توسّطه لحمٌ وافر. ذبح الشيخ أربع نعجات حيل، وأضاف إليها منصور ثنيّة سمينة. خبزت النساء عشر عجنات، تسابق الشباب في سلخ جلود الذبائح، وألبس الفائزون المهزومين الجلود المسلوخة بمرحٍ ظاهر، وقف إسماعيل الحسّون فوق القدور ، موجّهًا تعليماته إلى كتيبة الطبخ الصغيرة بزيادة الحطب، أو المجيء بالملح، أو برمي القدر عن الأثافي.

لا يرغب الشيخ أحمد في الولائم الرسميّة أن يقدّم الرزّ، ويرى أن وليمة الثريد هي الأفضل، وعلى الرغم من أنّ الطبيب "حمّاه" على الرزّ، إلّا أن للولائم شأنًا آخر. وحين تكاملت الصحون أمام الرجال، وأحضر الرجال قدر الحساءِ الصغير، نظر الجميع إلى الشيخ أحمد، وأشار بيده:

- تفضّلم ع المقسوم.. أمانة الله، احنا الضيوف وانتم المعازيب.. الخطا بركّابكم.

تقدّمت عائلة الفواز وكأنّهم مرغمون على الأكل، كانوا متعبين وَجِلين ومحرجين، فالطريق وجرح الغربة قد نالا منهما. تقدّم معهم الشيخ أحمد والحاضرون، وبقي ثلاثة شباب يقدّمون الماء والإدام. فتّ الشيخ أحمد اللحم أمام فوّازِ المشعل، وأجبر الضيف الكسير نفسه على مضغ لقمتين، ثمّ غصّ، ولم يفطن إليه أحد،

فطلب الماء من الشابّ وتدارك غصّته بجرعة ماء كبيرة، ثم شرب على مهل، وأدرك المضيف أنّ أيّ كلمة أخرى ستحرج الضيف، ولاحظ أنّه لا يأكل تقريبًا، فصرف نظره إلى باقي الضيوف، ورحّب بهم مرّة أخرى، وساد صمت قصير تقطعه أصوات المضغ، وحركة الملعقة الكبيرة تصطدم بقدر الإدام.

- دايمة يا شيخ أحمد.. بعزّك.

- هنا وعافية.

وانسحب الضيوف من المائدة واحدًا واحدًا بهدوء، وتسابق الأولاد مع أباريقهم البلاستيكية وقطع الصابون الملوّنة والبشاكير الملفوفة حول أعناقهم، يصبّون الماء. وجلس الضيوف والمعازيب معًا يشربون الشاي، وجهّز ابن منصور تلفزيون السيرونيكس الكبير، ليتابعوا مسلسلًا بدويًّا "متعب الشگاوي" في محطة التلفزيون العراقية، ولكنّ بيانًا عسكريًّا، فاجأ الجميع، بتحدّث عن بدء الحرب العراقية الإيرانية.

ومن بعيد تناهى إلى الأسماع صوت رصاص، جعل الضيوف يتحفّزون، والشيخ يقف قلقًا، كانت بضع رصاصات أتبعتها هلاهل، خفّفت من قلق الشيخ، وجاء شابّ من الناحية، ليخبرهم أنّ زوجة علاوي المحسن.. حامل.

(٨)

- يمّا ياسين.. وينك هسّع؟ تاكُل؟ تشرب؟ شلون تنام؟ ما حدا يغطيك اذا كشّرت، ولا حدا يدري بيك اذا جعت.

كانت العجوز تكلّم نفسها، فلم تحزن كلّ هذا الحزن، منذ أن مات زوجها الشابّ، واضطرت من أجل ابنتيها أن تتزوّج من أخيه الحاجّ عبد اللطيف، حتّى عندما تزوّجت الفتاتان خارج القرية، شعرت بالحزن نعم، ولكن ليس كالحزن الذي سببه غياب ياسين، قالت له إنّهم ميسورون، ولا داعي للعمل أساسًا، ولكنّ الولد يريد أن يكون رجلًا. حين احتضنته للمرة الأولى، شعرت بشيء غريب، شيء يشبه حلمًا في نومٍ عميق، أو عودة غائب بعد سنين، شيء غريب، يومها قالوا انجنّت حليمة النوفل، انجنّت بطفلٍ ليس من رحمها، كما أنّه ليس من صلب الحاجّ، ولكنّ الطفل ربطها معًا، وكأنّهما قد أنجباه حقيقةً. ثمّ إنّ ياسين "ولد ينحبّ" وهزّت رأسها مبتسمة، وتقول في سرّها "بسم الله ما شاء الله" كما تسمع من ممثلة المسلسل المصري، وكانت حليمة تتساءل: "منين جايب هالزين"؟ فتخطر صورة أبيه وأمّه وصورة جدّه أبي نظمي، ولا تتذكّر من أخواله من كان بوسامة ياسين، وتتمنّى في لحظةٍ لو رأت أمّ عبد العليم، وأباه، فربّما كانا قد أورثا ابنها هذا "الزين".

***

بعد أربع سنوات، جاء خال الولد الموظّف في الشام، جاء توفيق البيطار يطلب الولد، وهدّد برفع قضية، سأله الحاجّ أين كان عندما توفّي والده، وأين كانوا جميعًا كلّ هذه السنين. كان الخال قد علم بالأرض التي سجّلها الحاج باسم ياسين، ولكنّ حماسته تراجعت فجأة حين أبرز له الحاج أوراقًا تعرقل انتقال الأرض إلى الوصيّ.

بعدها بشهرٍ كامل، جاء رجلٌ كهل يرتدي ثوبًا طويلًا وفوقه "درّاعةٌ" سوداء، و"محرمة" بيضاء. جاء الرجل محتدًّا، مطالبًا بالولد، بداعي أنّه خال أبيه، بقي ساعةً يصرخ: "الولد لأهلو"، فلاحظ الحاجّ ثوبه البالي، و"محرمته" التي تغيّر لونها، وقال مرحّبًا:

- حيّ الله بأهل ياسين، ما يصير ألّا الـ "بدكم يّاه".

ثمّ قام إلى خزانة لباسه، وأخرج محرمةً بيضاء جديدة، جاءته هديّة، ولم يلبسها بعد.

- اقبل منّي هذي الهديّة.. ما يصير يجون الناس، ويشوفون أهل ياسين بها الشكل.

لان الكهل قليلًا، وحين ألبسه الحاجّ المحرمة، هربت من وجهه ملامح ابتسامة، اصطادها الحاجّ، وأدرك أنّه عرف الطريق إلى الكهل.

- يا خوي.. انت جاي من مكان بعيد، شـ رايك تگوم تغسّل، ونتكلّم بعدين. يا مرة، جهّزي الحمّام لضيفنا.

عندما خرج العجوز من الحمّام بدا رجلًا آخر، وكان فطورٌ مختلف ينتظره، بيض بالسمن ولبن وخبز جديد. رحّب الحاجّ بضيفه أكثر من اللازم، وبدت شروط المساومة قريبة من التحقّق.

- وينكم عن الولد كلّ هالسنين؟

- ما كنّا نعرف انّو خلّف.

- ومين خبّركم؟

- خالو. وهزّ الحاجّ رأسه، وأدرك أنّ الأرض التي سجّلها باسم ياسين ستجرّ عليه المصائب، وسيخسر الأرض والولد معًا.

- عندك شيء يثبت انّك خال المرحوم؟ هو قال انا مالي حدا.

- طبعًا. وأخرج الرجل هويّته، وقال إنّ اسمه: عفيف حسين، وإنّ اسم أمّ عبد العليم في الهويّة: سلمى حسين. ولم يكن الأمر مقنعًا تمامًا لوجود اسم الأم وحيدًا دون ذكر الكنية في بطاقة عبد المعين، وأدرك الحاجّ أنّه يمكن أن يطرد الرجل الغريب، ولكنّ إثارة الموضوع ستتعبه أكثر، فقد يفقد الولد، وفي أقل تقدير سيؤلّب أولاده عليه، وهم يلاحظون ميله الشديد نحو اليتيم.

- يا حجّ.. ابنكم لكم، بس انتم عندكم حدا يرعاه؟

- وارتبك الكهل، وتذكّر أنّ زوجته لن تقبل بهذا الولد الغريب، من دون كمية المال الكبيرة التي ستأتي معه. كلّ هذا يجري أمام عين عبد اللطيف في ملعبٍ صغير مكشوف.

- يا حجّ.. ترى الولد ما باسمو أرض، لا أمّو عندها أرض، ولا أبوه. إذا حبّيت تاخذو هو ابنك.. واذا حبّيت تخليه هو ابنّا، وتعال كلّ ما حبّيت تشوفو.. وتجهّم الكهل الغريب، ولعن في سرّه الرجل الذي أوغر صدره تجاه الكنز المنتظر، فاستدان مالًا كي يأتي أرض الجزيرة، باحثًا عن ولدٍ وكنز، والآن أفلس من الاثنين. كان عبد اللطيف يروز ضيفه بعيني ذئب، ولكنّه الآن صار حملًا، حملًا بقرنين لطيفين، ولسانٍ متدلٍّ. ودسّ الحجّ بضع ورقات "أمّهات الميّة"، فأحس الرجل بالإحراج والسرور معًا.

- هذا سلام لك، جَيْتَك عندنا ما هي هينة، أهل ياسين غالين علينا. وأدرك الضيف أنّ هذا مخرج مشرّف لمساومة متعثّرة، وأن يظفر بشيء خير من أن يعود خاسرًا كلّ شيء.

استعادت حليمة النوفل هذا الشريط البعيد مرّة أخرى، وهي ترتّب غرفة ياسين، حين جاءتها فاطم الجاسم:

- حبّااااااااااب .. ياسين جا.

ورقص شيء ما في صدر العجوز، وتبعثرت الكلمات، ولم تدري ما تقول، فصرخت صرخة لا معنى لها، وقالت: "يا بنيّ ي ي ي ي" وقامت، وانطلقت حافية إلى باب الحوش:

- ولي فطومة وينو؟

- حدّر من البيكام ع الطريق، وجاي.

وركضت العجوز نحو الطريق، وبدا ياسين، أو الأستاذ ياسين وكأنّه غاب أعوامًا، بلحية خفيفة، وجسم مهدود، يحمل حقيبته، وعندما رأى العجوز صرخ:

-يمّااااا

واحتضنت العجوز ابنها الشابّ، فقبّل رأسها، ثمّ يديها، ثمّ شهق شهقة بدت مقدمة لبكاء طويل، لكنّه تماسك، وهو يرى العجوز تنهار.

عندما غاب ياسين للمرة الأولى كان ذلك في الصفّ السابع، ذهب رفقة أبناء القرية، سبعة أولاد، الكبير منهم في الصفّ العاشر، أوصوه بال"عجّان" خيرًا، واثنان في الصفّ التاسع، وكان التاسع يعدّ صفّ الموت عند أهل القرى، لأنّ الناجحين فيه

قلّة، وطالب وحيد في الصفّ الثامن، وطالبان رفقة ياسين في الصفّ السابع. يومها جنّ جنون صبحة، ولم يكد يأتي آخر الأسبوع، حتى نطرته من الظهر، ورأته من بعيد في صندوق البيك اب يرتدي لباس الفتوّة الخاكي، وعلى كتفيه شريطان أصفران، وفي يده كتب مشدودة بحزام مطّاط أحمر. قفز ياسين من البيك اب، فأشفقت العجوز وصرخت: يا بنيّ. بالطريقة والنبرة ذاتهما، كما صرخت قبل قليل.

***

كان المطر قد أقام في الصفرة والخربة معًا، ضيفًا عزيزًا، ظلّ عشرة أيّام، عشرة أيّام وليلة تقول أمّ عناد، جرت المياه في الأرض، وجرى ماء قليل في الوادي، ولم تحمِ الخيام ضيوف الشيخ من المطر، فتقاسمهم أهل القرية، واستسمح فوّاز المشعل الشيخ أن يعمّر بيتًا ينضاف إلى مستودع البذار، فاستمهله الشيخ بعد "المظلّة" وستبني القرية كلّها "حارة الفوّاز"، ولم تؤثّر مشكلة الخيام في الفرح الذي طغى على معالم القريتين، على الرغم من أنّ بعض البيوت قد نالها الدّلَف، وتعرّض أصحابها للملامة والتعيير، وقال محمد المحسن لصديقه صطوف معاتبًا وهما في بيته، وقد وضعوا الصحون تحت مواطن الدلف:

- الـ ما يونّي يغرگ.

وأدرك علاوي المحسن الذي سكن الخربة منذ سنوات، أنّ هذه الأيّام أفضل فرصة ليحتفل بحمل زوجته، بعد أعوام قضاها وزوجته يتردّدان على الأطباء، الذين لم يجدوا في التحاليل ما يمنع الحمل، ولم يبقِ الزوجان طبيب عرب، ولا رجلًا صالحًا، ولا "ضرّابة فال" إلّا بحثوا في خريطة الأمل عن نقطة خضراء مضيئة.

في الصباح بشّرته زوجته أنّ النعجة التي اشتراها في الصيف "جابت توم" وحسبها علّاوي إشارة إلهية، ونظر إلى بطن المرأة نظرة ذات مغزى، وقال:

- الله كريم

فضحكت المرأة، وذهبت متثاقلة لتحضر الفطور لزوجها.

وانعقدت دبكة صغيرة من شيّاب وشباب، سرعان ما التمّ حولهم أهل القرية والعابرون، وبعضٌ من أهالي الصفرة، وظهر ياسين وقد شارك في الدبكة، فلفت انتباه الفتيات، وسألت حسنة الفواز عنه ابنة منصور الصغيرة، فقالت لها:

- هذا الاستاز ياسين.

"وان هلهلتِ.. هلهلنا لج".

(٩)

بدت ساحة الملعب الصغيرة شمالي الصفرة المكان الوحيد الحيّ في هذا الأصيل الشاحب البارد، ولكنّها الكرة التي دخلت حياة القرية. صحيح أن الكبار لعبوها أيام الأستاذ عبد العليم رحمه الله، غير أنّهم كانوا يهملونها حالما يتركون الدراسة بعد الابتدائية، خلا طلاب لا يتعدّون أصابع اليد يغادرون إلى المدينة فيلبثون عامين أو ثلاثة ثمّ يعود معظمهم، وقد وجدوا حاجزًا منيعًا أمام امتحانات الصف التاسع المخيفة المرعبة، ولكنّ جيل ياسين الذي أدرك المدينة وانتشار التلفزيون، ومباريات الكرة في التلفزيونين السوري والعراقي، كلّ هذا جعل للكرة طعمًا في القرى النائية. كان ياسين قد أغرم بالكرة في المدرسة الإعدادية. أبناء المدينة العفاريت، لا يتركون له فرصة ليلعب معهم، وقد يجد فرصة ليلعب إن غاب لاعب في ذلك اليوم، أو أصيب ولدٌ في لعبة مشتركة، وعندما عاد إلى القرية اشترى "طابة جلد"، ولم ينتظر حتّى الصباح، بل ذهب إلى ساحة القرية في تلك الليلة القمراء، وقذف الكرة نحو الأعلى ثمّ ركض خلفها، كمهرٍ صغير.

تجمّع رفاقُ اللعب احتفالًا بعودته بعد غياب، وخرجوا إلى الفسحة الصغيرة، تأكّدوا من المسافة القصيرة بين الحجارة الكبيرة التي تحدّد الأهداف، ثم تقاسموا بعضهم، حين برز فيّاض لياسين، وقال له:

- تعال نتجادم

ومدّ كلّ منهما قدمه أمام القدم الثانية، حتى كادت قدم ياسين تصل قدم فيّاض، فوضع فيّاض قدمه فوق قدم خصمه، فقال له ياسين:

- اطلب

هكذا يتقاسم اللاعبون في الصفرة، واحدًا هنا وواحدًا هناك، حتى ينفد اللاعبون في ساحة الانتظار، ولم يحدث أن فاض أحد فوق حاجة الفريقين، وإن احتاجا أحدًا طلبا من الأطفال الصغار أن يلعبوا، ومن اثنين منهما أن يقفا حارسين بين الحجارة، المكان الافتراضي للمرمى.

فاض الملعب الترابي بأصواتٍ وصخب وهياج، وصرخات الفوز، ولوم الخاسرين، وكرة تطير بأقدام متعطّشة للضرب، وقد أغراهم الدفء الذي اكتسبته أجسادهم الفتيّة أن يكملوا، فواصلوا اللعب. غطست الشمس في بحيرة برتقالية، ثمّ تبعها الشفق متعجّلًا، ولم يعد اللاعبون يرون الكرة، وعادوا إلى بيوتهم، مع عودة الرعاة، وقد اختلطت أصواتهم بأصوات الأجراس والثغاء، والأمّهات اللاتي يوقدن نار المساء في صيجان مقلوبة امتلأت بحطب القطن.

- خايفة عليك تنكسر يا ابني.. من الدبچة ع الطابة؟ عَجَل ما انتَ رايد حالك؟

وابتسم ياسين، وهو يغسل وجهه، وينشّفه ويجلس بعيدًا عن مائدة الجمر الشهيّة.

- تعال.. تدفّا.. لا يگتلك البرد. عفيا ابني تعال.

وتذكّر حرصها عليه منذ سنين، حين يلعب في البرد، فتجبره على ارتداء اللباس الثقيل، والجلوس جانب "الصوبة". ولم يكن يطيق اللحاف فتراها دائمًا تتفقّده، وتغطّيه في الشتاء، وفي الصيف لم يكن يتغطّى أساسًا، ويقول لها: "اللحاف نار"، فصنعت له لحافًا من القطن، ولم يجدِ الأمرُ نفعًا، فصنعت له لحافًا من قماشٍ فحسب، صنعته من بقايا ثيابٍ وستائر وأغطية:

- شوف هذا "جودل".. بااااااااااااارد، وخفيف... ترى برد الصيف أحدّ من السيف.

ولم يقل لها إنّه في تلك القرية كان قد "كشّف" في ليل صقيعيّ، ولم يفطن إلى نفسه، إلّا بعد أن كاد يتجمّد، وأنّ "الزّكمة" لازمته أيّامًا. ولكنّها لاحظت ذلك، وسألته بعد شهقةٍ طويلة: وال ياسين شبيك؟

- شبيّه؟ ما بيّة شي.

- بصلاة محمّد.. لا تغبّي عن أمّك.

- شويّة رشحة.

- أكيد ما چنت تّغطّى.

- يمكن عَداني حدا الطلّاب.

***

كان التلفزيون العراقي يعرض بياناته العسكرية، جانب الأغاني، وال"هوسات" والموسيقا التي تجذب المستمعين، وقد استأثرت كلمات الأغاني بحديث الأطفال الصغار، بعدما انتشرت مقدّمات الهوسات العراقية، فيصرخ طفل "ها اخوتي ها" فيردّ عليه زملاؤه "ها ها ها".

- الله يستر.

قال الحاجّ عبد اللطيف وهو يشاهد التلفزيون في "الأوضة"، في تلك الليلة الباردة، وقال لحفيده الأصغر:

- أشوف الصوبة كلّ شوي تطفي.

- الهوا شمالي.. لازم نركّب مثلّث.

- روح على دكّان المحسن.. شوف عندهم؟

كانت المدافع والدبّابات والبيانات التي تبدأ بآيات كريمة تملأ فضاء الغرفة التي باتت غيمة زرقاء من دخان، وقال إبراهيم العليّان:

- اعطوني طلحيّة أو محرمة كلينكس.

فأعطاه طفل في التاسعة ورقة من دفتره المدرسي، بلّله إبراهيم بالوقود، ثمّ أشعل الورقة، ورماها في جوف المدفأة، فاستجاب الوقود أسفل فرن المدفأة للنار في الورقة، ورقصت خصلات لهب من وراء زجاج الواجهة الصغيرة، فآنس الحاضرين. وقال الكهل محسن:

- الله حيّ الزلم.

- الله يستر يا محسن. هذي الحرب ما راح تخلّي وراها حطب.

وجاء الأولاد بقطعة معدنية مجوّفة تشبه الحرف الإنكليزي H ، فخرج معهم إبراهيم ليثبّتوها فوق ماسورة البواري النافذة من خلال الجدار، ثمّ عادوا بعيون تبرق، ينتظرون عبارة تشجيع.

- عفية السباع... تعالم عند النار.

وتجمع الفتيان الثلاثة حول المدفأة التي مكّنوها من الثرثرة الحامية، ومدّوا أيديهم نحوها، واستجاب أحدهم لنداء الحجّي أن يجلب الشاي، فجاء به، ثمّ فرش صينيّة الكاسات على الأرض، ثم ملأ الكؤوس، وقام ليدور بالشاي على الرجال.

حين تسأل حسنة الفواز عن ياسين، فهذا لا يعني أنّها وقعت في حبّه، ربّما رأت شخصًا غير مألوف. غير مألوف؟ لا.. كيف؟ حتّى هذه لا.. كيف تسمح لنفسها أن تفكّر بشابّ مغرور، مرّ بعرس، ولم ينظر إلى أحد؟ وتذكّرت حسنة أيّام قريتهم البعيدة، يوم كانت "شيخة الشيخات" من هو حتّى يتجاهل حسنة؟ " لا هو أكبر جدّ ولا أحمر خدّ"، ولكنّ الغربة "بنت حرام"، أمّها قالت لها ولإخوتها محذّرةً "يا غريب كون أديب". وأحسّت حسنة أنّها فقدت جناحيها بعد هذه العبارة، وفي اليوم التالي في الخيمة الصغيرة، بحثت حسنة عن نظرتها القديمة لتخرج بها من باب الخيمة، بحثت كثيرًا، ولم تجدها.

- يا بااا.. ليش سمّيتوني حسنة؟

وابتسم فواز المشعل، وأغمض عينيه.

- اسم زين.. ولمّن جيتي چنتِ مثل الگمر.

وتذكّر فواز ذاك اليوم البعيد. كان في الثلاثين، وكانوّا مربّعين في الشمال، وقد اشتبكت قطعان القبائل، في البقعة الخصيبة بعيدًا عن ديارهم التي ضاقت فيها مساحات الرعي. كانت حسنة ابنة صاحب القطيع الصغير، وقد تجاوروا أيّامًا، فيساعدهم في سقي الماشية، ويساعدونهم في الحلب. في اليوم الخامس، سهرت العائلتان معًا، وفي اليوم السابع خطبها من أبيها. كان جنونًا منطقيًّا في ليالي نيسان، ولكنّ الجار أفسد سيرورة ليالي نيسان، ورحل في اليوم التالي.

- هيييييييييه وين رحت؟

قالت زوجته، وقد عرفت أنّه تائه يبحث عن حسناه في ذلك الصباح، وذكّرته بوجوب متابعة قضية ابنه، وإرسالها لزيارته. فذابت النشوة في عيني الأب، وطمأنها.

كانت عدلة الشوّاخ قد أنجبت لمشعل أربعة أولاد، حين استشملوا للربيع، وحين جُنّ فوّاز بفتاة خطرت في ربيع، وتذكر حين "تدخّلت" على صايم "أبو حسنة" أن يرفض زوجها، وأشرق وجهها حين استيقظت صباحًا، ولم تجد مكان بيت صايم غير الأثافي والرماد.

حين عادوا، انتشرت قصّة عاشق الربيع، وضحك أصدقاؤه و"الشيّاب" وكلّما تجمّع الرجال في حفل أو فزعة عمل، أنشدوا "وان هلهلت هلهلناچ" فيعلو صوت أحد أصدقائه:

"وان هلهلتِ واسمچ حسنة طگ البارود يونّسنا"*

فيضحك الجميع. بعدها بخمس سنوات، أتعبها حملها الأخير، تعبت كثيرًا، وكادت تموت، في الوحام وفي شهور الحمل الطويلة، وحتى في المخاض، وجاءت بنت مثل القمر.

- شـ نسّميها عمّاه؟

قالت عدلة لأم مشعل، واستعرضت العمّة أسماء العائلة من البنات، خلفة، خاتون، فاطم، صبحة، عوش، مريم.. وهي تتخيّر لها اسمًا يليق بجمالها. وحينذاك نهض مشعل من فراشه، ونظر إلى زوجته مبتسمًا، وقال في رجاء:

- حسنة.

"نعدّ الليالي والليالي تعدّنا*

العمر يمضي والليالي تزود"

(١٠)

- منين نجيب مازوط بعدين؟ اگصرم الصوبة.

- لسع المربعانيّة من اوّلها حجيبي..

- التقّم باللحف.

وجد أبو دحام الحلّ، ولكنّ دّحام هو من يشفط المازوط لسيارته العطشى أبدًا، وحين يفاجئه الكهل يبدي غضبه، ويصرخ، ودحام صامت، وربّما هربت من وجهه المتجمّد ابتسامة، ووعد الحجّي بتعويض المازوط.

- خلّصت برميل على سيارتك، وما جبت بدالو.

- باچر .. بعد باچر، يجي موسم القطن، وأشتري ثَلَث براميل بدل البرميل، ولا تزعل يا حجّي.

ونفض العجوز يده في امتعاض واضحٍ بدا على محيّاه، ومضى يمشي في ذلك الصباح البارد، متدثّرًا بفروته الثقيلة. كان صباحًا أقل قسوةً، وكأنّ ألف فروة خروف بيضاء تشكّلت في سماء الأيام الأخيرة من كانون الأوّل، غطّت جلد السماء وخفّفت من لسعات برد الشمال، وطلب الحاج من كنّته الصغيرة، أن تشعل له نارًا في صاج. وانفرجت أساريره حين تقدّمت المرأة الشابّة بالصاج المقلوب. هو لم يطلب نار الحطب ليوفّر وقودًا، ولكنه كان أسير حنين جديد، تولّد في صور قديمة، للكانون، وصوبة الجلّة، وخبز الذرة السميك. وكان سيطلب منهم أن يحرقوا روثًا،

لولا أنّهم يحتفظون به سمادًا للأرض، ثمّ إنّه روث بقرة، أين منه "البعرور" الناشف، الذي يشي برائحة أعشاب أكلتها الأغنام قبل شهور. حين مدّ العجوز يديه الباردتين فوق الجمر الفتيّ، قال لزوجته إنّ هذه الحرب ملعونة، بين مسلمين ومسلمين، وغنّى طفلٌ في العاشرة: *"هاي امّك گالت للگاع وانت وليدي* عرّيس وربعه يزفّونه وعرسك عيدي"* فقال له لماذا لم يذهب إلى المدرسة اليوم، فأخبره الصّبي أن اليوم عطلة.

- شـ ما اكثر عطلكم!

وسأل زوجته مرّة أخرى عن ديون دحّام ومصاريف الأرض، وبدأا يحسبان، ووجدا أنّ فاتورة القطن قد لا توفّي جميع الديون، وصفّق العجوز كفًّا بكفّ مرّتين، وطلب من الكنّة الشابّة أن تضع "چيدان الشاي" على الجمر، ففعلت، ونظر إلى زوجته متضرّعًا.

- ولي جيبينّا شوية سمنة وخبز.

فامتعضت العجوز، وقالت للولد اللاهي: طفّي التلفزيون، وروح اكتب وظايفك.

***

- اليوم صاحية.

- ودافية.

- الله يستر ما تمحل علينا.

- الله العليم.. ورا هالدفا مطر

- فالك والخير.

كان الحاج محسن والملّا سعيد في بيت حج عبد اللطيف حين دقّ الباب، وقالوا للطارق في وقت واحد:

- تفضّل.

- السلام عليكم.

- وعليكم السلام.

ونهض الرجلان في وجه الضيف، وبقي الحاج في فراشه، فصافح ضيفه جالسًا، مادًّا كلتا يديه: عزيز

فابتسم الرجل وانحنى وقبّل وجه الحاج، وقال له بصوتٍ عال:

- شلونك حجّي.

- على الله يا بن اخوي.. الحمد لله.. بس تراني ما عرفتك.

- احزر

وقرّب الشايب نظره من وجه الغريب، وتضاضى في قسماته، "تضاضى" كثيرًا دون فائدة:

- العتب ع الشوف يا ابن اخوي.

ونظر الحاج محسن إلى الغريب، وحرّك نظارته ذات الإطار السميك ونظر إلى الفتى، وقال له:

- ما انت ابن محمد سراج؟

- اي نعم، أنا ابنو جوان.

- حيّ الله ابن اخوي... تعال تاحبّك انّوب.

وتقدّم الرجل إلى العجوز، وتصافحا من جديد، وقبّل الشاب قبلتين على خدّه، ومسح وجهه، وتملّاه ثانيةً:

- اي والله.. وال خيّي شلون ابوك.

- الحمد لله.. ابوي شبّ، بدنا نجوزو.

وضحك الرجال وضحك جوان أيضًا، ونظر الملا إلى الشاب، وقال:

- ما شالله ما شالله.

وحدّثه بالكردية مستفهمًا عن محمد سراج، جارهم الذي ترك القرية من سنين وذهب إلى المدينة، والشاب يردّ عليه بإجابات مقتضبة هامسة، واستدرك الملّا أنّ حديثهما قد لا يكون مفهومًا للعجوزين، فقال للشابّ:

- أخوك سيف الدين وين صار؟

- والله.. سنة رابعة هندسة مدنية.

- ما شالله.

- يا هلا بابن اخوي.. يا ولم وين چايكم؟

***

في الستينات حصل محمد نوري على قطعة أرض انتفاع، أيام الإصلاح، جوار الحجّي، واحتجّ بعض الفلاحين أنّه ليس من أقاربهم، فدافع عنه الحجّي بشراسة، وظلّ محمد نوري في القرية حتى كبر الأولاد، فقرّر بيع الأرض، والذهاب إلى المدينة. كان ذلك أوائل السبعينات، باع الأرض، واشترى بيتًا في حيّ بعيد، واستأجر دكّانًا قرّر أن يستثمره في بيع وشراء منتجات الأرياف. يشتري اللبن والبيض والعسل والجبن والسمن، ويضعها في مواعين جديدة، ثمّ يبيعها لأهل المدينة. نجح محمد نوري وازدهرت تجارته وتمدّد عمله، فاشترى بعد خمس سنوات دكّان جاره، وأصبح تاجرًا معروفًا. ونجح أولاده في المدارس، وفي الحقيقة إنّ هذه هي تجارته الأهمّ، فقد اهتمّ بهم، وقسا عليهم، ووجد نتيجة صبره، أولادًا على وشك التخرّج: سيف الدين المهندس، وجوان مدرّس الإنكليزي، وجيهان سنة أولى طبّ، وثلاثة أولاد في مدارس المدينة. اشترى أبو سيف بيتًا في حيّ راقٍ، وبات من تجار الجملة، وأبقى دكّانه ذاك الذي جرّ إليه رجل دحام، فاستغل علاقة الجيرة، واستدان من محمد نوري مبلغًا من المال لم يسدّده بعد.

***

- والله يا حجّي المبلغ كبير.

- وليش ما وفّاكم فاين السعد؟

ولم يقل جوان شيئًا، ولكنّه هزّ كتفيه.

- أبوك غالي عليّ، وما يصير ألّا خاطركم طيّب.. يا هلا بابن اخوي

- والله يا عمّو لو ما محتاجين المصاري .. ما طالبنا.

- حقكم يا ابن اخوي.

لم يضع الحجّي في الحسبان أنّ على دحام -ابن أخته- ديونًا جديدة ، وهزّ رأسه، بينما الضيوف يتحلّقون صينيّة الرزّ وفوقها ديكٌ بجناحين، نظر الحاج إلى الديك واشتهى أن يأكل مع ضيوفه، ولكنّه تصبّر، وهمّ أن يصرخ أن يأتوه بشيء يلهيه عن الرزّ بشعيرية وإدامه المحروق بالبصل وقد ملأت رائحته الأوضة، وكاد أن يصرخ "يا ولم جيبوا لي غداي" لولا أن شاهد حفيده الشاب يحمل صينيّة بهية المنظر ليس فيها غير بضع حبّات بطاطا مسلوقة في صحن، وجانبها شريط الدواء. فامتعض الحاجّ، وقد طار الديك من أمامه، وأنساه المشهد العابر ديون ابنه الجديدة، وهمس ساخطًا.

- گطيعة البندورة.

***

- نبيع البيكام.

- خلّينا نأجّر الگاع.

- لا يا إبني، نأجّر گاعتنا؟ عيب. شـ يگولون عنّا الناس؟ باعم گاعتهم؟

- نأجّرها يابا... نأجّرها.

- لا.. لالالالا. ما عدنا ألّا نأجّر الگاع، وتظلّ تطارد ع البيكام؟.

- نبيع الذّْهَبَات الـ عندي.

- جهاديّاتج؟ شـ الحجي.

كان أبو دحّام قد اشترى لزوجته صيف ١٩٧٥ طقمًا ذهبيًّا معتبرًا، مكّونًا من ليرات ذهبيّة بالرسم العصملّي، ١٢ جهاديّة. اشترى ١٠ في البداية، وعندما لبستها

أم دحّام طغى فرح غريب في صدرها، حتّى كادت تختنق، وتمنّت أن يزوّد الحجّي عددها إلى ١٢، لكنّ الحجّي المتفاجئ غضب، وقد توقّع أن تشكره المرأة بدل أن تستزيد، فنظر إلى شيءٍ يبيعه، لتكتمل فرحة المرأة التي أحبّها كلّ تلك السنين، ولم يجد غير مجموعة من الخراف الكبيرة، وهذا ما كان.

- لا يا حجّة.. الجهاديات للأيام السودة... شوف لك شرّاي للبيكام، وبالمرّة نخلص من مصروف المازوط.

وذاب البِشر الذي كان يحقن وجه الشابّ الثلاثينيّ، واستسلم للأمر، ونظر بحزن إلى سيارته الصغيرة، وتخيّل سيناريو متكاملًا عن حياته من دون سيّارة، لكنّه لم يفكّر أبدًا بتصرفاته التي أوصلته إلى بيعه.

(١١)

- ومين هُوَّ تا أنشغل بيه؟ هذا الشبّ "الشايف حالو". ونظرت لحظةً في وجه السماء الشاحب، ثمّ لعنت في سرّها الغربة التي وضعتها في مجتمع لا يقدّر قيمتها. وتثاءب صباحٌ باردٌ، وتذكّرت حسنة الفواز يوم الدبكة التي أشعلت في روحها أسئلةً لا جواب لها، ولامت نفسها كثيرًا، ولكنّ صورة الشاب ظلّت تخطر أمامها تلك الأمسية البعيدة، بثوبه العسليّ، ونظرات عينيه المتفائلة، وشعره الأشقر المسترسل، وشاربه الخفيف. كان واثقًا من نفسه. هي تعرف الشابّ من نظراته، وتذكّرت نظرات ابن عمّها القلقة، ونظرات أبيها المتجهّمة، ونظرات جمعة الرمضان اللطيفة، ولكنّ نظرات ياسين متطامنة واثقة لا تخبّئ في داخلها لؤمًا، ولا خوفًا. ثمّ يختفي طيفه فجأةً فتبذل جهدًا مضاعفًا كي تتذكّر صورته، فتحبط ثانيةً، وتمضي في سهومها، حتّى تسمع صوت أمّها:

- "حسنااااااااااااااو.. وين الچاي؟".

- ولكن!! ها هو، يا الله، ياسين في باب الحوش الصغير، وتراجعت الصبيّة الوالهة، ثمّ اختارت مكانًا تنظر منه إليه.

- يا عراااااااب.

- تفضّل. قال فواز المشعل "يا أهلًا وسهلًا".

ودخل الشابّ، وصافح الرجل الكهل، ولم يجلس.

- أبوي الحجّ عبد اللطيف، عازمكم ع العشا.

- ما يگصّر والله.

- يا الله بخاطركم.

- وين رايح؟ والله ما تروح ألّا تشرب معانا الشاي.

وجلس الشابّ، ورقص قلب البنت، ستراه جيّدًا، ولن يفلت منها كما فعل قبل قليل.

- چنّك.. ما انْتَ معانا بالعرب؟ ما جاعد نشوفك.

- والله يا عمّي آني طالب بالجامعة، جيت من چمّ يوم، وأدرّس بجرية بعيدة.

- الله يعطيك العافية يا استاز.

ارتبكت حسنة وهي ترتّب كؤوس الشاي، وتراقب الچيدان، وخافت أن يكون شايها "مخبوطًا" معكّرًا حين أنزلت الإبريق من الموقد، صبّت في كأس وتأكّدت من لونه الرائق "دم الغزال" وشفّت شفّة خفيفة، وحين تأكّدت أنّها وُفّقت، انفرجت أساريرها، وندهت أخاها ليأخذ الشاي، ولكنّ أخاها الشابّ لم يكن موجودًا. فناداها الأبّ بلطف:

- تعالي يمّا.. ما بي حدا غريب.

وزاد ارتباك البنت، وأحسّت أنّ قلبها سيقفز من صدرها، ولكنّها تماسكت، حين سمعت طقطقة الكاسات في الصينيّة، وتذكّرت أنّها كانت شيخة البنات قبل أيام قليلة فقط.

- من إيد ما نعدمها.

قال ياسين، وارتبكت البنت ثانية، وخرجت منها: "هنا وعوافي" كلازمةٍ لغوية، دون أن تفكّر في معناها، ثمّ خرجت مسرعةً، تداري ارتباكها.

حين غادر ياسين، جمّعت حسنة كلّ التفاصيل الصغيرة، واستعادتها مرّةً بعد أخرى، حتى عندما خرج وغادر وقال: "ترى كلكم معزومين، حتّى عمّتي والبنيّات، ترى أمّي راح تزعل".

وحين أعطاهم ظهره وسار نحو الصفرة، ولم يبق منه إلّا نقطة صغيرة في الطريق، ثمّ غيّبته التلّة، كلّ هذا رصدته عينا حسنة، وداهمتها عبارة من أغنية: *"آيمت تصير العصر، واصير چنّتهم"* وكادت الأغنية أن تنفلت إلى شفتيها، ولكنّها حبستها، واكتفت بخزنتها من البهجة، وقالت لأمّها:

- شـ نسوّي غدا اليوم؟

***

- وطّي النّار ع الچشچ.

ولم تردّ حسنة الفوّاز، كانت تضحك، وتبتسم، ثمّ تشرد في البعيد. وتعجّبت الأمّ وقالت في سرّها: "العجيّة عشگانة"، وصرخت في ابنها:

- شـ يتراوى لچ .. حسنا!!؟؟

وانتبهت البنت، واعتراها شيء من الخجل، وكأن الصور التي أمام عينيها مكشوفة للآخرين، وأعادت تحريك الكشك بملعقة خشب كبيرة، ونظرت إلى أمّها:

- ها يمّا.. گلتِ شي؟

- وطّي النار ع الچشچ، خلّيه يستوي زين.

- إي.. ان شالله يمّا.

وعادت الصور أمام حسنة الفوّاز، تمتزج بالبخار المتصاعد مع القدر، وقال العجوز:

- عجل ما احْنا مْعَزومين، الياكل الچشج يظل يومين ما ياكل.

- تريد يشوفونّا جوعانين؟

وسكت العجوز، ونظر إلى البخار ذاته، وشرد في صوره الخاصّة، فمن المؤكّد أنّ طالبي الثأر عرفوا مكانهم، وفي الشهر القادم، سيعرضون ابنه عاصي للمحاكمة، وأكيد أنّهم عرفوا موعدها، ومن المؤكّد أنّهم سيحتالون لقتل الشابّ، وقام الرجل من مكانه، ولم يعرف ماذا يفعل. وكانت الأربعينيّة قد دخلت منذ أيّام، ولكنّ دفئًا غريبًا يلفّ المكان، ولا شيء في السماء غير غيومٍ بعيدة، وأرض قليلة العشب، فلم تمطر في التشرينين، والناس متضايقون فعلًا، ثمّ إنّ محاكمة الولد كلّفته كثيرًا بين أجور المحامي، والبراطيل، ولم يبق معه شيء، فقد باع جزءًا من أرضه، وربّما سيبيع جزءًا آخر.

(١٢)

الوقت لا يمشي في ذلك الأصيل، وتحيّرت الفتاة ماذا تلبس، صحيح أنّها غادرت قريتها البعيدة في حالةٍ طارئة، ولكنّها جلبت معها صرّة ثيابها، أثواب الحرير والجورسين والكودلي، والعباءة المقصّبة، والدرّاعة المبطّنة بالجوخ الخفيف، وكنزات الصوف، والصاية الشيفون بدربين ذهبيين على الأردان، وفكّرت أن تتزيّن، ولكنها طردت الفكرة فورًا؛ فأخوها نزيل السجن، والعائلة قلقة عليه، ثمّ إنّها لا تريد أن تكون "رخيوة رسن" وحين فاجأتها هذه العبارة انتفضت فجأة، واختارت ثوب الجورسين الأسود، ولبست فوقه الدرّاعة، واختارت ملفعها الأسود المؤطّر بخيوط فضيّة، وزانتها أمّها بعينين قلقتين، وهزّت رأسها موافقة.

***

تشابكت الغيوم فوق لوحة الغروب، وشاغبت صاعدةً هابطةً تخفي قرص الشمس ثمّ تبديه، وهي تتوائب وتلهو حوله، فتتجمّع وتتبدّد، وتنتفض، مكوّنةً لوحاتٍ غريبة مدهشة، ثمّ تتجمّع السحب الشهباء والبيضاء والسوداء والرماديّة، وتشتبك، تنفذ من خلالها أشعّة الشمس الهاربة، فتترك حصائر ملوّنة سرعان ما تذوب، ولكنّها تُذكِّر حسنة الفوّاز ببيتهم هناك، حين تمدّ الحصائر والسجاجيد في المضافة، ثمّ تضع الوسائد والطرّاحات في ترتيب خاصّ. ماذا لو جاءهم ياسين، ورأى بيتهم القديم؟

وكان بيكاب التويوتا الذي حمل العائلة يقطع المسافة القصيرة بين القريتين متمهّلًا في الدرب الذي حفرته التراكتورات بعد مطرةٍ عابرة، ولكنّه أتاح لحسنة أن ترى الغروب، فيما يجلس معها إخوتها وابنتا عمّتها في صندوق البيكاب بـ"تذرذرون"

من برد الغروب، ويتجمّعون على أنفسهم، ينظرون إلى غروبٍ ليس على كتف الفرات؛ هناك.. حين تهبط الزرازير، وتثغو الماشية، وتهدأ أصوات المحرّكات.

في الحوش الكبير، نزل فوّاز المشعل من قُمرة البيكاب رفقة زوجته، ونزل أبناؤه من الصندوق، وخرج الحاج عبد اللطيف على عكّازه مرحّبًا.

- حيّا الله.

- ومن گال.

وتقدّم الرجلان خطوات وتلاقيا متصافحين، وأبدى الحاج عبد اللطيف ترحيبًا بآل مشعل وكأنّه يعرفهم منذ زمن، وهزّ يد مصافحا إيّاه أكثر من مرّة ، ثمّ أمسكت يمناه بيُسرى ضيفه، وقاده نحو المضافة، وخرجت أمّ ياسين بخطوات مسرعة، وقبّلت ضيفاتها، وأخذتهنّ نحو غرفةٍ أخرى.

كانت أمّ ياسين (الزوجة الصغرى) قد خصّصت غرفتها لل "هدوم" من فُرش ولِحف ووسائد، وأجادت صفّهنّ، فبدا النّضَد وكأنّه جدار رابع في البيت، ثمّ اشترت قماشًا شفّافًا "جلّدت" به جدارها الأثير، فبدا النضد تحت ساحة النسيج القديمة لوحةً شفّافة نافرة، تناسبت فيه طيّات الفرش واللحف مع الوسائد الضخمة. وطالما دعت العجوز جاراتها وضيفاتها إلى زيارة نضدها، لترصد علامات الإعجاب في عيونهنّ المنبهرة، وربّما في آرائهنّ اللاتي يبدينها أحيانًا، وفي السنوات الأخيرة وبعدما انتشرت زراعة القطن في البلاد، وذهب الرحيل والنزيل إلى غير رجعة، سارعت النساء إلى صناعة فرش ضاقت عنها الجدران القديمة، فبدا من الطبيعي أن تكون هناك غرفة للنضد في الصفرة وكثير من القرى الأخرى.

***

نظرت أمّ حسنة بعين خبيرة إلى البيت، وأخفت دهشتها بصعوبة، وقالت "ما شالله ع الهالعَمرة" بنبرة بادية التكلّف، ولكنّ حسنة انتبهت إلى الوسائد التي تخلو من "الخاصة البيضاء" وابدت استعدادها لنسج خاصةٍ من "القناويج"، وكانت تلك أفضل رسالة يمكن أن تقدّمها إلى ياسين، وفرحت كثيرًا عندما لاحظت فرح أمّه باقتراح حسنة، واقترحت على حسنة أن تأتي معها وتساعدها في تحضير عشاء الضيوف.

كانت أمّ ياسين قد اقترحت أن تطبخ لضيوفها "الكبّة" ولكنّ الحاج استبعد هذه الفكرة، فالكبّة لا يمكن أن تكون طعامًا رسميًّا يدعى إليه ضيف من وجهاء قبيلة أخرى، ويعدّ "ضيف" القبيلة كلّها، وليس ضيف الشيخ أحمد فحسب، ولهذا طلب منهم أن يذبحوا نعجتين من الأغنام الحيل التي لم تحمل هذا العام، وأن يصنعوا ثريدًا، حتى إنّ العجوز طلبت منهم أن يقدّموا الرزّ بدل الثريد، ولكنّ الحاج أبى. ولكن كيف تحتال لتشعر ضيوفها أنّهم متحضّرون؟ وفكّرت العجوز أن تضع "شجيج الباميا" أو "حبّ الفاصوليا" ولكنّ الحاجّ رفض، لاعتبارات قبلية، فأي تعديل في وليمة الثريد، سينال من قيمته القبليّة، الثريد الذي عهدوه منذ سنين بعيدة، بل منذ قرون.

ولكنّ العجوز لم تفقد الحيلة، فصنعت قدرًا من المحشي، وقلت أقراصًا من الكبّة، ليقدّموها أطباقًا إضافيّة، ووافق الحاجّ على مضض. كان الشباب في الحوش يعالجون القدرين، ويتأكدون أن اللحم قد نضج، فيما جهّزت أم ياسين طعامها الخاصّ في مطبخها في تلك الغريفة الصغيرة البعيدة عن البيت، وفرحت حسنة بثقة العجوز التي "حطّت عينها" على البنت، وبدا هناك شيء أقرب إلى التواطؤ شارك فيه الجميع، غير ياسين القلق، لأنه سيسافر في الغد إلى قريته البعيدة. ولكنّ الشاب القلِق الضجر الحزين، سرعان ما تبدّلت حاله، حين جاء لأخذ أطباق المحشي والكبّة والتقت عيناه بعيني الصبيّة الغريبة.

"النجمة الشعشعت* تلهب لهيب حشاي

ويا زين قصد الولف* حافي الجدم مشاي"

(١٣)

- ان شالله دايما يا حجّي.

- الخطا برگبتك يا حجّي.

- كفاها المولى.

وتراجع فوّاز المشعل قليلًا إلى الوراء، ونظر الحاج عبد اللطيف إلى الضيوف ورجال القرية، وأشار إليهم:

- سايم عليكم وجه الله، لا حدا يگوم ألّا يشبع.

ولكن، وبعد دقائق، كان الجميع قد تراجع، وبدأ أولاد صغار يصبّون الماء من أباريق بلاستيكية ملوّنة، وقد وضعوا على أكتافهم البشاكير، وفي أياديهم صابون الغار، يستقبلون الضيوف في الحوش، وفي الأوضة لمّ ياسين مع بعض الشباب سفرة الطعام، وجاء أحدهم بالشاي.

وأدّى بعضهم صلاة المغرب، ثمّ تبادلوا التحيّة، وأعاد الحاجّ عبد اللطيف ترحيبه بالدخيل:

- يا خوي.. ترى احنا زاد لينا حصّة بيك.

- ما تگصّر يا حجّي.

وجلس الرجلان "مُتراكيَين" على وسادتين وضعتا بينهما، واستغلّ الحاجّ هرج الشاي، وانشغال الحضور بأحاديث ثنائية، فسأل فواز المشعل عن أحواله، وعن ابنه في الحبس، وعن أي مسعى لـ"مرضوي" بين الطرفين.

- والله يا حجّي، من جينا انشغلنا بحالنا هين، وما عندنا خبر عن ربعنا هناك، بس الولد بخير، ومحاكمتو بعد شهر، بـ ١٨ شباط، والله ومحتارين شلون بدنا نواجه الولد، أخاف يستغلّون طلعتو ع القاضي، ويضربونو جدام باب المحكمة.

- لا تاكل همّ. إذا ما عندكم حدا، أبعث ياسين ابني، الشبّ يدرس حقوق.

- ما تگصّر يا حجّي، بلچي يرافج عمتو.

- يا خوي انت منّا وبينا.

وأحس فواز المشعل بفرح غامض أطفأ القلق العامر في صدره منذ أيّام، وأحسّ بلذّة الشاي بعد الطعام الدسم، وكأنّهم وضعوا فيه الهيل، وما إن فرغ الكأس، حتى كان الفتى الصغير، يسرع بإبريقه نحو الكأس الفارغة منتظرًا كلمة "دايمة" ليحمل الكأس، ولكنّ فوّاز المحسن قال له: "أي ابن اخوي.. صبّ"، وأخرج من جيب جاكيته علبة فضيّة وهمّ بفتحها، فرمى أبو دحّام علبته بين يدي فواز.

- من هين، من هين..

- من إيد ما نعدمها.

وفتح فواز علبة مضيفه، وشمّ رائحة تبغٍ طريّ، ذي رائحة غريبة منعشة، ونظر إلى الكهل الذي سُرّ بنظرة ضيفه الممتنّة.

- جاني من تركيّة من چمّ يوم.

- مبيّن عليه طيب.

- آني ماني شرّاب تتن، بس لازم العلبة تكون جدّامي، وانفّخ، ومن يوم ما مرضت، افتح العلبة واشمّو، يمكن بالنهار أشرب لي سكارة.. سكارتين.

- الله يكفيك شرّو يا حجّي، بس شتكول، تعوّدنا عليه، ومثل ما قالم أهلنا.. نعلگو ويعلگنا.

وقبس فواز برؤوس أصابعه قبسة ووضعها في ورقة "دفتر الشام" ووجدها قليلة، فقبس قبسة أخرى صغيرة، وأحسّ أنّ الحاضرين يراقبونه، فتمهّل في لفّها، ثمّ بلّل طرف الورقة بريقه، وألصقها باللفافة المدرومة، وأخرج قدّاحته "الرونسون" القديمة، ولكنّ يدًا امتدت أمامه، بلهبٍ يتقدّم أمام عينيه، فاجأه، فأشعل سيكارته، وشكر الرجل الواقف أمامه.

وارتفع الشاي الأوّل، وجاء الشاي الثاني، واستبدّت الحماسة بالحاضرين، وهم يتحدثون عن الحرب العراقية الإيرانيّة، وعبثًا كان الحجّي يقول لهم: "مسلمين ويّا مسلمين"، وطلب فوّاز المشعل أن يهّدئوا من حماسة "الصوبة" أيضًا، ففرك ياسين أذن البرغي النحيف الطويل في جوف الكرة المعدنية، فتباطأت نقاط المازوط الذاهبة إلى أمواج اللهب الملوّنة كما تبدو من نافذة البلّور الصغيرة، وقد علتها عبارة "كوكب الشرق".

كان الشرق في مطلع الثمانينات تلك، يتعرّض لموجاتٍ من الاحتجاجات الشعبية، والحروب الأهلية، والحروب بين الدول، ثمّ جاءت موجة قحط بليدة، ظلّت سنين طويلة، وعرفت الدروب إلى دمشق، شبابًا في عمر الورد، هجروا الأرض ومقاعد الدراسة نحو بيروت أو عمّان أو حتّى السعوديّة للعمل، وهاجرت شرائح جديدة نحو المدن.

وتشاكى الجالسون رخص أسعار الحلال، وتبادلوا أخبار النشرة الجويّة والمنخفضات الآتية من أوربّا.

- ترى المحل عامّ، مو بسّ احنا. المحل بالجزيرة والشاميّة.

قال ياسين، وأخبرهم أنّ أحد مدرّسيه أخبرهم أن يعدّوا عشرة أيّام عندما يشاهدون الغيوم المطيرة فوق إسبانيا أو فرنسا.

- المطر من الله يا ابن اخوي، هذول چذّابين.

- يا حجّي هذا علم.

- والله ما شفنا المطر من يوم طلّعونّا النشرة الجويّة.

وضحك الحاضرون، ووجدها الحاج فرصةً لتغيير الحديث:

- الله واعلم انّها سنة خير، وان شالله تالي المربعانية ألّا تمطر.

واستبشر الحاضرون برأي الحجّي الذي ينمّ عن أمنية عميقة مشوبةً بخشوع مؤمنٍ زاهد.

وحين انفضّ السامر، واستأذن الضيوف، وخرج الحاجّ وعائلته لوداع الضيوف، وهناك التقت عينا جسنة بعيني ياسين، للمرة الثالثة هذا اليوم. كانت لمبة الحوش الخارجية الصفراء، تلعلع بنورها الباهت في حضرة الظلام المثقّب بنجوم توشك على الانطفاء، ولكنّ وجه حسنة شحن ياسين بمعنًى غريب أوقف نافورة القلق التي تنقّط عميقًا في روحه، كلّما حزم حقائبه.

وهناك في البيت بثّ فواز المشعل سبب مسرّته المفاجئ، بأنّ ياسين سيرافق الحريم إلى المحكمة، فشهقت حسنة، ولكنّها سرعان ما دارت دهشتها، وفتحت خزنتها الفقيرة بصور ياسين، وضحكت في سرّها، ولم تنم إلّا في ساعة متأخرة.

(١٤)

- والله .. مغيّمة يا عمّي، خايفة ما الْحَگ اخَبَز.

نظر أبو دحّام في السماء المدلهمّة، وأخذ نفسًا عميقًا هادئًا، ثم وضع يده في جوف الفضاء، وكأنّه يتلمّس ضرع نعجةٍ، ثمّ مسحها بيده الأخرى اللابدة في صوف فروته، وهزّ رأسه.

- لا لا .. يمچن تمطر بعد ساعة، يمداچ تخبزين.

وانصرفت صبحة العايد تحمل كرات العجين الملكوكة بالطحين، ومن تحتها الثفال، وتبعتها ابنتها الصغيرة بالغطاوة الخشبية. وهناك، وأمام الحوش، أكبّت بالصاج فوق ثلاث حجرات سوّدها السخام، وكسرت بضعة أعواد حطب، ثمّ وضعتها تحت الصاج وأضرمت الحطب. ثمّ كشفت عن كرات العجين المفلطحة، ومدّت أمامها غطاوة الخشب القديمة، وأخذت كرة العجين الأولى، وطبطبتها فتمدّدت الكرة وصارت قرصًا في مساحة رغيف الطابونة الذي يأتيهم من المدينة أحيانًا، ثمّ وضعت القرص بين يديها، وبحركة غريبة أعجبت البنت ذات التاسعة، كانت المرأة "تلوف" العجينة المدوّرة، وتنقّلها بين ذراعيها بحركة شبه دائرة، حتى قاربت مساحته مساحة الصاج، فهدأ الرغيف الطائر، وحطّ فوق الصاج، والأمّ مهتمّة، عابسة، تنظر إلى الغيم، وحانت منها التفاتة إلى الصغيرة، وهي تقلّد حركة يديها في مطّ الرغيف.

- شد جاعد تسوين ولي، تعالي وزّي لي.

فتراجعت البنت قليلًا، جاءت بأعواد حطب، عانت في كسرها ورميها في الثغرة الصغيرة، التي ارتفع فيها الصاج فوق الأثافي، وجلست تراقب أمّها، وقد اعتدل مزاجها، وهي تخبز رغيفًا بعد رغيف، وترميه فوق الثفال، وقد سرّتهما رائحة الخبز الناضج، ومرأى الأرغفة وقد ملأتها هالات سوداء وشقراء، وبدأت السماء تذرف بهدوء دميعات متباعدة، فأسرعت المرأة، وحدّثت نفسها أن تعيد باقي العجنة إلى البيت، وتخبز في "القاووش"، ونظرت إلى الكرات المنتظرة، وقرّرت أن تخبز رغيفين آخرين، ومطّت كرة العجين الأولى، ورمتها فوق الصاج، ولكنّ عمّتها فاجأتها، وهي قادمة:

- للحز ما خلّصتي ي!!

- ظلّ سبع رغفان.

- سوّيهن تالي.

ووجدت صبحة أنّ هذا هو الحلّ الأفضل، وأعطت عمّتها الخبز الناجز، وجمّعت كرات العجين، ولكنّها استدركت وقالت لطفلتها:

- تعالي اسوّي لج كعك.

ففرحت البنت، وعمدت الأمّ إلى صناعة بضع دوائر من العجين، ورميها فوق الصاج، ثمّ صناعة التالي بعدما مدّدته فوق الغطاوة دائرة ثخينة، وثقّبتها بأصابعها، ثمّ وضعتها بهدوء فوق الصاج الذي هدأت تحته النار المتضرّمة، ولم يبق غيرها خارج البيت، بعدما أعطت صغيرتها دوائر الكعك الشاويّ. وارتفعت وتيرة المطر قليلًا، ولكنّ المرأة لم تشأ أن يفسد التالي، فوقفت ومدّت درّاعتها فوق الصاج، وما كاد ينضج، حتى قلبته قليلًا، ونزعته من الصاج، ثمّ لفّته بدرّاعتها وركضت إلى البيت. وبدت في عين الأسرة المنتظرة بطلة هذا الصباح، فوضعت التالي

أمام عمّها، وقالت لهم عجوز البيت، إنّها أعدت اللبأ، فقد ولدت نعجة مساء الأمس.

***

استبشرت الصفرة وخربة الشيخ أحمد بالمطر، وتذكّر ضيوف القبيلة بلادهم البعيدة، وهم يتابعون الغيم المتداخل مرتبكًا أمام صراخ الرعد، وتذكّر فواز المشعل أرضه، وقالت العجوز: "المطر بشارة خير.. تا ما يگولون وجهنا على ربعنا مو زين"، واقتنع فواز بكلام زوجته، فربّما لمّحت إليها عجوز أو امرأة بكلام من هذا القبيل، وقال لابنته التي لبست درّاعتها وتابعت المطر منذ القطرة الأولى:

- عفية بنتي، سوّي لنا چاي.

وكانت حسنة ما زالت أسيرة ذلك اليوم المشهود، وقد رسمت مئات الصور، في أحلام يقظة متتالية، وأدركت الأمّ ما آلت إليه حال البنت، ولم تشأ مكاشفتها، واكتفت بإيقاظها من شرودها، كلّما طلبت منها مساعدتها في عمل البيت، غير أنّها أبعدتها عن الطبخ، بعدما تركت البرغل والشعيرية على النار حتّى احترقا، واستصعبت أن توبّخها، ولكنها لمّحت إليها: "الماخذ عگلچ"، فارتبكت البنت، وبقيت صامتة، ولكنّ حسنة اليوم تذكّرت بيتهم هناك، وجيرانهم، وأقاربهم، والمطر على كتف الفرات، وأوراق الشجر المخضلّة بماء المطر. وخطر ياسين فجأةً في بالها، وتذكّرت عندما شاهدته ثلاث مرّات في ذلك اليوم السعيد، وعنّ لها أن تخبر أمّها، ولكنّها استبعدت الفكرة في الوقت الحاضر، وقامت إلى البابور حاملة "چيدان" الشاي وقد ملأته ماءً. وتذكّرت كيف احترق البرغل، فصمّمت أن تطرد الصور. وأمام إبريق الشاي لفّ فواز سيجارته الخامسة هذا اليوم، ونظر إلى المطر، وهمهم:

- يا ربّي لا تموّتنا بالشتا.

وضاق صدر زوجته، وأرادت أن تعاتبه، ولكنّها خافت أن يمتدّ العتاب إلى شجار، لا يحتمله صباح المطر البهيج، فنظرت إليه مبتسمةً:

- شـ عجب ما تحبّ تموت بالشتا؟!

- أخاف الدفّانة ما يگدرون يحفرون الگبر.

- والله يا حجّي الموت مو زين.. لا بالگيظ ولا بالشتا.

- الموت موت، وما عنّو فوت. مشتهي مرگة العدس بهالجوّ.

وابتسمت حسنة، وابتسمت أمّها، وخافت إن أوكلت الأمر إلى ابنتها، أن يحترق العدس، فنهضت إلى كيس العدس المجروش بين أغراض المؤونة، وغرفت بطاسة صغيرة غَرفتين.

***

في أوضته كان الحاج عبد اللطيف ينظر إلى السماء من الباب المفتوح، مستبشرًا، وقد وضعت أمامه "أمّ ياسين" إبريق الزهورات ومقلاة صغيرة ملأتها مكعبات الجبنة المغليّة، ثمّ سكبتها في صحن فخار صغير، ونظر الحاج إلى طعامه، واشتهى أن تضع له شيئًا من "مربّى التين" غير أنّه تراجع عن الفكرة، وساهم في ذلك مجيء الملّا سعيد، فتبادلا حديثًا متفائلًا قبل المصافحة والسلام:

- الحمد لله، قبل ما تفضّ المربعانية، جتنا رحمة ربّك.

- ما بي أكرم منّو، حيّ الله الملّا .

- السلام عليكم، والله يا حجّي لازم نسوّي مولد.

- إي بالله.

وجلس الرجلان، وطلب الحاج شايًا للملّا:

- أشرب من الـ تشربو.

- خلّي امّ ياسين تجي بلچي تجيب لنا مربّى.

- لااااا يا حجّي لا، كبرنا ع المربّى أنا وانتَ، السكّر يا حجّي.

وضحك العجوزان ضحكةً مشرقة.

"الاشيل همّي وهمّك* واگضي الليل بعنيني"

(١٥)

كانت نسمات برد قاسية، تصفع جدران الطين، دافعة معها مطرًا شحيحًا إلى تلك القرية على الحدود العراقية، لم تكن "الذيابات" قرية بمعنى الكلمة، بل أطلالًا تتخلّلها بيوت تتنسّم الحياة، ولم تكن الكهرباء قد طرقت أبوابها بعد، وأحسّ ياسين بوحشةٍ كبيرة، حين جاء تعيينه فيها، ولكنّ تحدّي الذات جعلته يتصبّر، واحتمل الفصل الأوّل كاملًا، ينام على ضوء لمبة الكاز، ويستيقظ على أصوات طلابه يملؤون الباحة، فيصفّهم، كي يردّدوا الشعار ويحيّوا العَلَم.

***

كان ياسين معلّمًا وحيدًا، يدرّس القراءة والحساب والعلوم والرياضيات والجغرافيا والتاريخ، لسبعة عشر طالبًا، ستّةٌ منهم في الصفّ الأوّل، وسبعةٌ في الصفّ الثاني، وثلاثةٌ في الصف الرابع، وواحدٌ منهم في الصفّ الخامس. كان يومه المدرسيّ شاقًّا، ولكنّه استعان بحمدان المطر طالب الصف الخامس ليشرف على طلاب الصفّ الذي لا يدرّسه، غير أنّه اكتشف في قائمة الأسماء أن طلاب المدرسة المسجّلين أكثر من الحاضرين، وتعرّف شيئًا ليس في قراهم القريبة من المدينة، فهناك طلاب متسرّبون، لا يحضرون أوّل الدوام، بسبب عمل أهاليهم، أو رحيلهم خلف الماشية، وقسم منهم من البنات اللاتي قد يداومن الصفّ الأوّل ثمّ يتركن المدرسة. وما إن جاء تشرين حتّى عادت بعض العائلات إلى القرية، وأصلح أهلها بيوتهم، ثمّ جاء طلّاب من جنوب القرية ومن شمالها، يسكن البيت والبيتان حول القرية، ثمّ يرسلون إليها أولادهم. وتثاءبت "الذيابات" بعد نومٍ طويل، ولكن ثمّة في القرية بيوت مغلقة، لكلّ بيتٍ منها حكاية مختلفة.

يتذكّر ياسين ذلك اليوم الذي قصد فيه كاراج القرى البعيدة حيث "البيك آبات" التي تقصد الجنوب آخر اليوم، عائدة بمرضاها، ومتسوّقيها، ومراجعي دوائر الدولة. جلس ياسين بعدما عرّف بنفسه في قمرة البيك آب، وركب معه شابّ عسكري، قال له وللشوفير إنّه نال إجازة بعد تفوّقه في مسابقة الجري، وهناك، وبعد سفرٍ طويل في أيلول العابس، وصل القرية، فوقفوا أمام بيت أهل العسكريّ الفرحينَ بابنهم، وقال له الشوفير مشجّعًا: تفضل أستاذ، وفهم أهل العسكري أنّ الأستاذ ضيفهم، فرحّبوا به، وفي المساء، امتدّت أمامه صينيّة ثريد تعلوها "كراديش" لحم الضأن، فتحلّق مع القوم حول المائدة، وفي عينيه اجتمع الخجل والشكر والعرفان والشعور الحادّ بالغربة.

كان يومه الأوّل في "الذيابات" فرصة ليقرأ ذاته بعيدًا عن أمّه التي ليست أمّه، وأبيه الذي ليس أباه، فهو يريد أن يكونا أبويه وينسى الجزء الناتئ في حكايته، ولكنّ هناك دائمًا من ينغّص عليه، ويعيد تذكيره، من الوثائق الرسميّة التي تذكّره أنّه ياسين عبد العليم ياسين، وليس ياسين العبد اللطيف. وفي خربة الشيخ أحمد والصفرة ثمّة من يذكّره بأخواله، وجدّه. تأتي هذه التذكيرات مثل وخزات كلّما أنس ياسين ونسي، واطمأن إلى أنّه فعلًا "ياسين العبد اللطيف" أو ياسين العبد اختصارًا، وقد يفاجئه عجوز أزعجه اعتداد ياسين بنفسه، فيقول له: "عدّ جدودك" وهو يعرف أنّ قصده غير هذا. كانت الذيابات ملجأً أمينًا، لشابّ صفعته الأقدار، وبات لا يملك أيّ شيء، على الرغم من أنّه يملك كلّ شيء.

في الذيابات، كان يقرأ بنهم، قرأ روايات نجيب محفوظ وحنّا مينة، وأشعار المتنبّي، وأحمد شوقي، وقرأ بعض كتب الساسة التي انتشرت أواخر السبعينات، قرأ في سِيَر الأعلام، وقرأ أعدادًا من مجلّة العربي، وحاول أن يكتب قصّة، ولكنه خشي أن يسأله أحد عن شخصيات قصصه المفضوحة. واستمع إلى الراديو في ليالي المدينة الطويلة، استمع إلى إذاعتي لندن ومونتكارلو، والإذاعتين السورية

والعراقية. اشترت له أمّه راديو فليبس بجلد مخرّم بنّي، كي يسلّيه في المدينة، فصار رفيقه الدائم، وجاء به إلى الذيابات.

ولكن لمَ تخلط الذكريات الآن يا ياسين؟ هل هو المطر.. أم ذكريات ما قبل الكهربا؟ أم حسنة التي حضرت في ذلك اليوم، ولم يكن ليأبه بها لولا ارتباكها وهي تقدّم الشاي، وتقول "هنا وعوافي" بنبرة خجولة لم يعهدها من قبل؟ حين تجرّأ وهو يضيف دعوة النساء إلى الوليمة خوفًا من "زعل أمّ ياسين" ، لمح ارتباكها. وفاجأه صوت واحدٍ من طلابه الصغار يصرخ:

- ستاز.. ستاز.

- شبيك يا علي.

- جاسم ضربني

ونظر إليهما، وكاد أن يضحك، ولكنّه تجهّم أمامهما، وصرخ بحزم:

- جاسم، ليش ضربتو؟

- استاز، يگول لي أبوك ما يْعَرف يگرا.

وضحك الطلاب، وضحك ياسين، وظهرت أسنان جاسم وقد قلع قبل أيّام أسنانه الأمامية، فضحك الجميع، قبل أن يكلّفهم بكتابة "الوظيفة" مرّتين زيادةً على زملائهم، فهذه الليلة سيطول ليل جاسم النهيّان، وعلي الدخيل أمام لمبة الكاز وهم يكتبون نشيد "فلسطين داري". وقال طالب آخر:

- جاسم اَهَتَمٌّ.

فزجره ياسين، وطلب منه أن يكتب واجبًا إضافيًّا مع زملائه.

(١٦)

حين يأكل حمدان المطر التفاحة، لا يقطعها نصفين أو أربعة، ولا يقشّرها، بل يأكلها "هنشةً بعد هنشة" تملأ قضمة التفاح فمه، تتسلّل بخفّة إلى فمه، مستشعرًا طعمها "المزّيز" وما إن تمضِ في بلعومه، حتّى ينهش نهشته الثانية، ثمّ الثالثة، والرابعة.. حتى يستوفي التفاحة، ولا يبقى منها سوى غلاف قاسٍ صغير يحمي البذور، فيطحن البذور المرّة مغمضًا عينيه، وكأنّه يشفّ من فنجان قهوة في بيت جدّه، ثمّ يمسح فمه. قبل سنتين عندما جاد الغيث البلاد اشترى لهم أبوهم صندوق تفّاح أصفر، لم يتقاسموه، بل تركه لهم يأكلونه، ثلاث تفّاحات كانت من نصيب حمدان. ولكنّهم في هذه السنة العجفاء انحرموا هبات الأعوام الخصبة، ولم يعد في كيس الأب القادم من المدينة غير الخبز الثخين المخرّم، رغيفان لا غير. كان حمدان يراقب طلاب الصفّ الثاني في كتابة عبارات من كلمتين نقلًا من الكتاب، حين كان الأستاذ ياسين يشرح لطلاب الصفّ الأوّل درس الفواكه، مقرّبًا المسألة لأفهامهم بسؤاله عن الأشياء الحلوة الطيبة التي تفرح الأطفال، فأجابوا "التفّاح" و"المردقان" و"العنب" وتحمّس ولدٌ صغير في المقعد الثاني:

- ستاز ستاز ستاز.

- اي يا جمعة گول

- المشبّك ستاز

وضحك ياسين، ضحك لفترة قصيرة، ثم انتابه حزنٌ واضح، هذا ما لاحظه حمدان، وسألهم الأستاذ:

- هل هناك شجر فيه مشبّك؟

ولم يدر الطلاب ماذا يجيبون.

- المشبّك يا أولاد مصنوع من الطحين والسكّر، ويُقلى بالزيت.

- لازم الفاكهة تكون بالشجر يا ستاز؟

- لازم يا جمعة.

ثمّ استدرك ياسين:

- المردقان أخير الّا التفّاح؟

- اثنينهن زينات.

- والمشبّك؟

- زاد زين.

- خلاص.. الروحة الجاية أجيب لكم معاي تفّاح ومردقان ومشبّك.

وقفز الصغار من الفرح، وظهرت بعض الثغرات في أسنانهم، وتماسك الكبار قليلًا، ولكن الجميع أحسّ بفرح غامر، وفي المساء زاره موجه التعليم الإلزامي، وأخبره بوجوب دعوة جميع الأطفال ممّن همّ تحت سنّ الرابعة العشرة للالتحاق بالمدرسة، وقبلها جاءه شابّ في عمره يحمل كتاب تعيينه في المدرسة، ففرح ياسين بزميله الجديد الذي سيسلّيه ويحمل عنه جزءًا من عبء التدريس. ولكنّه في الحقيقة فرحٌ آخر كي لا تغلق المدرسة بغيابه لمرافقة عائلة فواز المشعل إلى محاكمة ابنهم عاصي.

- والله يا حجّي تبخبخ وتْهَتف.

- بلجي اللهْ.. تْعَمَرْ السنة.

- ياسين مدرّب خَبَر، ما راح يجي اليوم، راح يجي الاثنين الجاي، من شان يروح مع ربعنا ع المحكمة.

- الله يرجعو بالسلامة.

- عجل عليه خطر بها الروحة.

- لا لا بسّ آني أدعي.

- حجّي آني اعرفك.. مبيّن عليك خايف ع الولد من شي، بصلاة محمد عليك تخبرني.

- يا حجّة.. الولد ما هو منهم، ولا هو مطلوب، شـ رايد يجيه؟

وهرب الحاج بعينيه، نحو الغيم والمطر، ولم تجرؤ العجوز أن تضغط عليه أكثر، فهي تعرف عاقبة ذلك، منذ أن عرفته بعدما تزوّجا، الأرملة الشابّة التي نُكبت وهي صغيرة بموت زوجها. لم يكن الحاج يريد الزواج منها، ولم تكن تطيق سيرة الزواج مرّة أخرى، ولكنّ أهلها ألحّوا عليها، إمّا أن تتزوج عبد اللطيف الأخ الباقي للمرحوم، أو تتزوّج من رجل آخر وتفقد طفلتها، وظلّت المرأة ترفض ثلاث سنين، ثمّ لانت، واختارت أن تبقى مع طفلتها. جاء الملا سعيد، وعقد القران بشهادة محمد نوري ومحسن العلّاص. كان الحجّي متجهّمًا، وكانت المرأة خائفة، وجمعهما سقف واحد وفراشان، وبقيا هكذا إلى أن جاء ياسين، فنام بينهما، وبحثا له معًا عمّن تكمل له سنة الحليب الباقية، ولم تبق امرأة مرضعة إلّا أرضعته، ولهذا بات ياسين ابن الصفرة بجدارة، ابن خمس نساء أرضعنه، وبات أخًا لخمس عائلات، وخالًا لسبع عائلات أخرى، وعمًّا لعائلتين، ولهذا كان معظم فتيات القرية أخواته في الرضاعة.

يدخل ياسين معظم بيوت القرية، يصافحه الرجال، وتقبّله النساء، دون أن يثير غيرة الإخوة أو أبناء الأعمام، فياسين ابن القرية في الرضاعة أيضًا.

تعرف وضحة الحمدان حدود استغضاب الحاج، هو لا يضرب، ولم يحدث أن مدّ يده عليها، ولا على زوجاته الأخريات، ولكنّ غضبه مديد، وبخاصة حين فرغ البيت من فضّة وهدلة اللتين تزوّجتا مبكّرًا، ومن ياسين الذي سافر إلى المدينة منذ ست سنوات، ولم يبق لها غير الحجّي، بعدما ماتت زوجته الكبيرة أم عبدالله. وباتت سيدة البيت، تعدّ القهوة المرّة، وفطور الصباح، وتشير عليه، ويسمع "شورها" أحيانًا، ويبدي لها أولاد زوجته الكبرى الاحترام والامتنان، فقد كفتهم مؤونة خدمته وهو في هذا السنّ. ولم يكن ثمة شيء يخيف من مسألة تلاعب أمّ ياسين بالإرث، فقد قسّم الحاج أراضيه على أولاده منذ سنوات، واستبقى لنفسه قطعة أرض مع الأوضة، ويحدث في السنين العجاف أن يطلب منهم مالًا ليدير مصاريف البيت والقهوة و"الطواليب"، وتقول بعض العجائز إنّ الحجّي "يطيّر عيون" ويطلب من أبنائه المال، حتّى لا يشكّ أحد بأمر الذهب الذي وجده أسفل التلّ وهو يحرث الأرض نهاية الستينات، ولكنّه يظلّ كلامًا لم تجد له سيدة البيت الجديدة أم ياسين أيّ سند، ولكنّ الحجّي لم يفلس يومًا، ولم ينقطع عن البيت الخبز والشاي والسكّر والإدام، فتقول في سرّها ربّما هو دعاء "عمّتي الحجّة" أمّ عبد اللطيف.

***

لا تدري حسنة أيّ الشّوقين يغلب، شوقها لأخيها عاصي السجين هناك، أم شوقها لياسين بطل مسلسلها الصغير، المبني على أربع مرّات أو خمس شاهدت فيها ياسين، وعرفت في المرّة الأخيرة أنّ عينيها أوصلتا إليه جيّدًا ما تريد قوله، وفاجأها وهي تركب البيكاب في الصندوق:

- مع السلامة يا حسنة.

- مع السلامة -وأكملت- دير بالك على حالك.

وكانت قد عرفت من أمّه أنّه مسافرٌ في الغد إلى القرية البعيدة التي يدرّس فيها.

***

بينها وبين الإثنين ساعات قليلة، وقد طلبت منها أمّها أن تحضّر مكدوسًا وجبنًا لعاصي، وترتّب الثياب التي اشتراها له أبوه منذ يومين من سوق المدينة، وانهلّ مطرٌ من عين السماء، مطرٌ مصحوب ببردٍ ورياح، وقال فواز المحسن وهو تحت لحافين: "الله يحميكم من البرد".

"يا ريل جيّمْ حزنْ* أهل الهوى مْجَيمِين"

(١٧)

لم تنم حسنة، ربما أغفت دقائق معدودة، فمنذ أيّام وهي تنتظر يوم السفر، ذلك اليوم الذي ترى فيه "عاصي" وياسين، وتراهما معًا. خطّطت أن تلبس "صايتها" الشيفون، "المدرّبة" بدربين ذهبيين فوق الردنين، وتلبس درّاعتها السوداء، ثمّ تردّدت، فواحد منهما يكفي، ولكنّ البرد شديد، وقد لا يكفي أحدهما. وقالت لها أمّها أن تسلق بيضًا ليأكلوا على الطريق، وأعطاهما الأب ألف ليرة، يعطون ٥٠٠ منها، خرجيّة لعاصي، ووضعت الأمّ الجبنة والمكدوس في برطمانين صغيرين، لعلها توصلهما إلى عاصي. وكانت الأم مشتاقة إلى ابنها، ولكنّ الحزن هدّها، والخوف على مصير الولد زاد من قلقها، فإن خرج من السجن، فهل يكفل له ذلك النجاة والسلامة؟ لا بالطبع، فهذا ثأر، و"الدّمّ ما يصير ميّ"، والجماعة "ما هم ناويين على خير"، ونامت العجوز من التعب، ولكنّ المجنونة التي أمامها، ما تزال تحضّر الأغراض، وترتّبها وتعيد ترتيبها، حتّى هدّها التعب، كانت في حدود الثانية، ثمّ لم تدرِ بشيء.

عند الرابعة فجرًا كان بيك اب مصيطف الهزّاع توقف أمام بيت فواز المشعل، وعلا صوت الزمّور، فقامت العجوز وابنتها مسرعتين، وخرجتا، حاملتين صرّتين صغيرتين. خرج ياسين من القُمرة، كي يركب في الصندوق، فرفضت العجوز.

- لا لا السيارة تاخذنا كلّنا

وأذعن ياسين، وانزاح نحو الشوفير، وجلست العجوز، ثمّ ابنتها، وبعد سلام مقتضب، نبّه ياسين مصيطف:

- ترانا تعوّگْنا.

وأسرع مصيطف، ومرّت بهم عشرات المصابيح الباهتة في وجه الصبح، وعبر البيكاب جسرًا عاليًا، ثم انعطف جهة اليسار، فوصل المحطّة بعد دقائق.

كان النعاس والتعب قد أفسد على حسنة بهجة اللقاء، ولكنّها استعادت صحوها، عندما ركبوا العربة، محتفظين بكروت صغيرة، يبحثون من خلالها عن أرقام جلوسهم بالـ"فرگونة" الخامسة. وجدوا أرقامهم في كرسيّين متقابلين، فجلسوا، وبعد دقائق جاء رجل في الأربعين وجلس في الكرسي الرابع. بعدما مشى القطار، وعبر مسلكًا ملتويًا، ثم صعد قليلًا، وهو يتخطّى النهر الصغير الشاحب، ولمحت حسنة قطيعًا من بقرٍ أسودَ غريب، قال ياسين:

- هذا الجِمَسْ، مشهور بالگيمر، گشوة الحليب الدسمة، وأكثر من مطعم يسوّونو فطور ،ع العسل.

حين فرغ ياسين من شرحه، كان القطار قد تجاوز المدينة، واتّجه جنوبًا. وكان الرجل ينظر إلى المرأتين بعينين وقحتين، فأزعج ذلك ياسين، ورأى من بعيد عجوزًا وحدها، فوجدها فرصة أن تتبادل والرجل مكانها. وافقت العجوز، ولكن الرجل الكهل رفض بوقاحة وصرخ مشيرًا إلى بطاقه في جيب صدره:

- هذا مكاني.

- يا رجلْ.. انتَ لا تعبّر ولا تعطي جراب؟

- هذا حقّي، انتو غيّْروا مكانكن.

وجاءته النجدة من الكرسي الخلفي، إذ وقف الشباب الأربعة، مخاطبين ياسين.

- تعال هون يا أخي.

ونظر ياسين إلى الشباب نظرة امتنان، وتذكّر واحدًا منهم، سافر معه مرّة قبل شهر، أيّام اختبارات الجامعة، وخمّن في ذهنه أنّه عرفه، واستبعد الفكرة لأنّهم تخلّوا عن أماكنهم دون أن يشاهدوهم، لكنّه أحبّ أن يتعرّف إليهم:

- شلون قدّمت بالامتحانات.

- الحمد لله ماشي الحال، على حلب؟

- لا.. گبل حلب، آني واهلي رايحين ع الدير.

- موفقين ان شالله.

وأحست حسنة بغبطة خضراء حين قال ياسين "أهلي"، وأغمضت عينيها وأطرقت، وجلس ياسين قبالتهما، وحين عمّ الدفء المقصورة، أغفت العجوز من التعب وسهر الأمس، وشعرت حسنة بحرج شديد، وكذلك ياسين، ولكنّه حدّثها عن الشباب الذين بادلوهم الأماكن:

- هذول ربعي بالجامعة، أهل شيمة.

- إي والله.

- شـ عجب ما تظلّ بحلب؟

- ما اگدر ابعد عن الشيّاب.

- الله يطول لك بعمرهم.

- وانتِ ما درستِ؟

- شلون ما درست؟ وصّلت للتاسع.

- معقول؟

- شد بيك مستغرب؟ آني چنت أطلع الأولى، للسادس.

- ما شالله.

- اي بس بالإعدادي، صارت الموادّ أصعب، وجانا الانگليزي.

وابتسم ياسين، وشجّعها ذلك على أن تبتسم، وكادت أن تقول له: "ما كان الانگليزي صعب عليك؟" لكنها لم تشأ كسر الحاجز بينهما.

- اي والله چان صعب، صعب بالحيل، بسّ الحمد لله، نجحت من اول سنة بالتاسع، جبت ١٤٥.

- ممتاز والله. آني يالله ويالله جبت ١٩٢، واندهشت حسنة، فهي تعرف الدرجات التي يحرزها أولاد القرى، الذين يريد منهم أهلهم النجاح في التاسع وكفى.

- ما شالله.. عجل چنت شاطر.

- چنت اطلع الأولى للسادس.

وضحكا معًا ضحكة نبّهت العجوز من غفوتها، فسألت عن المسافة المتبقية، فأخبرها ياسين أن أقلّ من ساعة تنتظرهم ليصلوا المحطّة.

ونظرت حسنة إلى ياسين، وبقايا الضحكة على شفتيها، ونظر إليها ياسين، غير أنّ العجوز كسرت حوارهما الصامت، وقالت للفتاة أن تأتيهم بالفطور، فنهضت البنت وجلبت إحدى الصرّتين، واستأذن ياسين ليغسل يديه، فاغتنمت العجوز الفرصة،

فعاتبت ابنتها، فالغريب غريب، و"باچر شـ يگول عنّا"، وعندما عاد الشابّ، رأى الشحوب على محيّا فتاته، فتخيّل الحوار الذي دار بينهما، فاستأذن ليتركهما تفطران ويجلس في مكانٍ شاغر، ولكنّ العجوز ألحّت على الشابّ، فاعتذر:

- والله يا عمّة ما لي نفس، خذو راحتكم، أريد أروح أمدّد هناك، بي كرسيّين فاضيات.

- شـ تگول يا بني، مستحي منّا؟ باطل. آني أمّك، وحسنة اختك، تعال تعال.

وصلت الشابّين رسالةُ العجوز، فأطرق كلاهما حسيرًا محبطًا، وامتلأ وجه العجوز المنتصرة بالدّم، وقشّرت البيض المسلوق البارد، بيدين دافئتين.

وصرخ القطار صرخاتٍ منكرة، يعلن وصوله المحطّة، وانتاب قلق غريب المرأة المتعبة، وسرعان ما انتقل عدواه إلى الشابّين، فقاموا ينتظرون أن تفتح أبواب القطار، ونظرت العجوز من نافذة القطار نحو الشمس العالية وقالت بنبرة قلقة:

تعوّگنا.

"ريتك بحيةَ الهوى* يا قايد التجنيد

خلّي النشامى تعبر* أگبل عليهم عيد"

(١٨)

في المدن الريفية البسيطة، تلحق الشمس الفلاحين في الساحات العامّة، بعيدًا عن الحقول، تقبض عليهم بعيدًا عن بسطات الفاكهة والخضرة، والأرصفة المزدحمة، تلحقهم في "الغبشة" وحيدين، متدثرين بفرائهم الثقيلة، و"البردسودنات" الرخيصة التي اشتروها من أسواق البالة. الفلاحون الآتون من قراهم نحو الأحياء الراقية لزيارة الأطباء المشهورين، أو نحو القصر العدلي لمراجعات مرهقة ومخيفة أحيانًا، في المدينة تلحق الشمس أبناءها المرضى والخائفين، وتعود معهم آخر النهار، وهم يحملون أقراص المشبّك والتفّاح والمردقان، وهم يشاهدون شمسهم قرصًا عسليًا يذوب في فم الغروب، بينما المدن الغافية تستيقظ متأخرة، بفعل المنبّهات المتربّصة فوق ساعاتٍ دائريّة صغيرة. لا توقظ الشمس أهل المدينة. يحدّث ياسين نفسه، بينما السيارة تعبر شوارع المدينة الواصلة بين المحطّة، غير مهملٍ قلق العجوز المتصاعد، وقلق حسنة.

***

في ساحة القصر العدلي، رأى لوحة ياسين تحمل اسم "عدنان بيطار.. تصوير وثائق رسميّة" فتذكّر شيئًا قديمًا، ينساه أحيانًا، ويتناساه، ولكنّه يعود، وفي هذه المرّة شعر بالحاجة إلى تذكّر شيءٍ كهذا، الماضي الذي يجلب القوّة أيضًا. كان الشابّ الواقف وسط محلّ التصوير منهمكًا في التصوير، ومحاسبة الزبائن، واثنان آخران يساعدانه، وكان واضحًا أن عمله مربح، وأنّ استئجاره محلًّا في حضن

القصر العدلي، دليلٌ أكيد على أنّه "غنيّ" و"واصل"، تقدّم إلى الشابّ الأشقر ذي العينين الخضراوين، ومدّ يده إليه بهويته:

- ممكن تصوّر لي الهويّة خال.

- هلا ابن اختي... تكرم.. يول حسام، تعال صوّر هاي الهوية للشبّ.

ومدّ ياسين يده بعشر ليرات، ولكنّ الشابّ الذي أبصر المرأتين القلقتين تنتظران، قال بأدب، رافضًا مدّ يده:

- خلّيها علينا ابن أختي، مبيّن جايين من مشوار بعيد.

- أنا ابن اختكم فعلًا، جدّي فهمي البيطار، أصلو من هون. وسكن ريف الحسكة من شي ٥٠ سنة.

- والله تعذرني، أنا ما اعرف، بس الوالد أكيد يعرف، هسّع يجي.. بس شكون قصّتكم بالمحكمة.

وحكى ياسين قصّة العائلة التي جاءت "دخيلة" على قبيلتهم، وعن زيارتهم للشابّ، ومحاكمته اليوم، فنبّهه الشابّ بسرعة:

- ترى بين النظارة ومكتب القاضي مسافة، ويقدرون يطخّونو، ديرو بالكم، روح شوفو المحامي، وديرو بالكم ع الولد.

وانتاب ياسين القلق، وشكر الشاب الأنيق ونزل إلى المرأتين، ودخلا المحكمة، يبحثان في صالتها الواسعة، وردهاتها، ويتفحّصون بعيونهم الوجوه في الزحام، وأبصرت العجوز أقاربها طالبي الثأر، رأت ناجي السّرحان وسلطان النشمي يتأهّبان لزيارة مكتب في المحكمة، بوجهين حليقين، ونعلين مصبوغين، وهندام عربيّ

تقليديّ، تعرف دلالات ارتدائه، وشاهدت حسنة عليّان النشمي الشابّ الصغير فنبّهت أمّها وياسين، وكان ياسين قد وصل إلى المحامي وجاء به، كي يُعلم المرأتين بخطوات هذا اليوم.

***

كان عاصي قد وصل نظارة التوقيف، وسيعرض على قاضي التحقيق بعد الواحدة ظهرًا، وأخبرهما المحامي أنّ من مصلحتهم تأجيل النظر في القضية إلى جلسةٍ أخرى، كي يعطوا فرصةً للصلح، فربّما استجدّ جديد، وكان فواز المشعل قد أخبرها بشيءٍ كهذا، ولكنّ "الطَّمْعَة" كانت بـ"شوفة الولد"، ومن أجل هذا شَدّت الرّحال من تلك القرية البعيدة في الشمال القصيّ من البلاد. نظر ياسين إلى ساعته، كانت تقترب من الثانية عشرة، ومن بعيد لمح الشابّ صاحب محلّ التصوير، رفقة رجل كهلٍ في الستين تقريبًا، يتقدّمان نحوه، فاستدرك ياسين، واستأذن كي لا تسمع المرأتان حديثهم، وأوصاهما أن تظلّا عند النظارة.

كان الكهل ينظر إليه من بعيد بعينين فاحصتين، مستعبرتين، حادبتين، وتخيّل ياسين أنّه كان مستعدًّا لاحتضانه، دون أن يسمع منه أي عبارة:

- السلام عليكم.

- وعليكم السلام يا إبني، تقول انّو فهمي بيطار جدّك.

- نعم، فهمي البيطار، كان موظّف صحّة، ظلّ بـ"جرية" الصفرة شي عشرين سنة، وكان لو بيت، وما زال، جوّز وحدة من بناتو "صالحة" لأستاذ المدرسة اللي هو أبوي. الأب والأم أعطوك عمرهم بحادث سيّارة، وجدّي انتقل إلى رحمة الله بعدها بفترة، وأنا ظلّيت عند رجل طيب، وعشت عندو كلّ هالسنين.

وتشنّج وجه الرجل الكهل، وأمسك به الشابّ الأنيق، وتقدّم الكهل من الشابّ واحتضنه، وكاد أن ينهار، لولا أن نبّهه الشابّ: "الجماعة بخطر، وممكن بعد شوي ينقتل ابنهم".

- تعال إبني تعال.

وشاور الكهل الشرطة عند باب النظارة، فسمحوا للمرأتين بمقابلة الشابّ داخل النظارة، وسمع ياسين صوت بكاء، وتقدّم الشرطيّ بعد قليل، وقاد الشابَّ النحيف ذا الوجه الأصفر نحو مكتب القاضي، ومن بعيد كانت حسنة تراقب عليّان النشمي الذي اختفى فجأة، ثم جاء راكضًا من الخلف، فصرخت حسنة، ومدّ الشابّ يده نحو جيبه، وصرخ: "أنا اخوك يا حسن".

وهرب الشرطة، والناس، ولم يبق غير المرأتين والشابّ مقيّدًا، وياسين، ولم يدرِ ياسين، كيف رفع يده في مواجهة المسدس، وأنّه سمع صوتًا فظيعًا، وأحسّ بخدر قريب، وبردٍ لذيذ، وصراخ حسنة:

- ياسي ي ي ي ي ي ين.

"هلي يا مركب (ن) بالبحر ما مال

هديب وگلبه طول العمر ما مال

احنا گصى بينا الزمان بكثر ما ملّ

وخلّانا دحايج للاجناب"

(١٩)

- يا ربّي طيّب ياسين، يا ربّي داخلة عليك، بجاه كلّ من لو جاه عندك، يا ربّي شاحذتّو منّك.

كانت الغرفة الصغيرة ممتلئة قبل أن يطلب الطبيب أن يتركوها، الشرطيّ جلس عند الباب، والأمّ تراجعت نحو البهو رفقة الكهل والشاب، وحاولت حسنة أن تبقى، ولكنّ الطبيب طلب منها الخروج:

- شـ يصير لك الشبّ.

وتردّدت حسنة، وارتبكت، ولم تدرِ كيف اندفعت العبارة التالية من فمها:

- أخُوي.. بحسبة اخُوي.

ولم يعلّق الطبيب، وطلب منها أن تبقى تراقبه من بعيد، تراقب كيس السيروم، وإذا صحا أن تخبره:

- عمومًا الممرضة راح تطلّ عليه كلّ شوي.

هزّت حسنة رأسها، وتناوبتها مجموعة متناقضة من المشاعر؛ الفرح بقربها منه، والنظر إليه، والحزن لحالته غير المستقرّة، وإقرار أمّها الضمنيّ بأحقيّتها أن تشفق

عليه، وتذكّرت حادثة الظهيرة المشؤومة، حين وضعت مع أمّها أخاها عاصي بينهما، وهما فرحتان به، خائفتان عليه، ومن بعيد تقدّم عليّان النشمي صارخًا: "أنا اخوك يا حسن" وذاب الحشد الذي كان يملأ الممرّ، وصار الشابّ المسلّح في مواجهة الشابّ المقيّد، وصرخت المرأتان "يبووووه" ولم تريا كيف اندفع ياسين نحو الفتى.

يقول الشرطيّ الذي جاء يركض نحوهم إنّ ياسين اندفع، ورفع يده نحو مسدس الشاب وقد أشهره، وأنّه أمسكه، ولكنّ إصبع الشابّ ضغطت على الزناد، وانطلقت الرصاصة صوب كتف ياسين، أدنى بقليل، فهشّمت عضدَهُ، وسال دمٌ غزيز، قبل أن يسعفه الشابّ الذي حدب عليه رفقة الكهل، الذي ظلّ يبكي: "يا ريتني ما عرفتك بها اليوم"، ولم تدرِ حسنة عن أيّ معرفةٍ يتحدث الكهل، ولم يكن الوقت ملائمًا لتسأله: "منين تعرف ياسين؟".

***

غابت الشمس بسرعة، فليس للغروب معنًى في المدن ذات الأحياء المزدحمة ببيوتها المكدّسة، تضاء المصابيح قبل الغروب، وتسير دورة الحياة الغريبة، غير آبهةٍ بوداع الشمس، كانت نقاط السيروم تذكّر حسنة بالصوبة، والكرة المعدنية المجوّفة تفرغ "المازوط" في جوف المدفأة فتلهب أحشاءها، وهي تدرك أن كيس النايلون الصغير يفرغ في شرايين ياسين وقودًا ما، فها هي أنفاسه قد انتظمت. ومسحت حبيبها النائم بعينين مطمئنّتين، وهي ترى وجهه الشاحب، ويده اليمنى ملفوفة بالشاش والجبصين، وتذكّرت وجه الطبيب المعروف خارجًا من غرفة العمليات:

- الله اعطاه عمر جديد.. ظل شوي وتوصّل الضربة للقلب.

كان عاصي قد عاد إلى سجنه، وقد قبضت الشرطة على الشابّ، ورأت حسنة من بعيد قريبيها من عائلة الشابّ المسلّح وقد بدا عليهما الإحباط والارتباك، وكلمات أمّها الموجزة:

- السالفة خطلة.. قضا وقدر، بسّ الشيطان وزكم، علقتكم اليوم مع عشيرة، أوّلها هين،وآخرها بالقامشلي.

ولكن الحمد لله، فقد نجا ياسين، وزادت خزنتها الصغيرة صورًا أخرى للفتى، فها هي في مواجهته، تملأ عينيها منه، وأرادت أن تمسح حبيبات العرق عن جبينه، لولا خشيتها أن تفاجئها أمّها، وتقول لها مثلًا: "ما صدّگتِ؟". ها هم الثلاثة في مدينة كبيرة، بعيدين عن العين، ولكن هناك من ينتظرهم الآن في الصفرة، وخربة الشيخ أحمد، وكيف ستطيق أمّ ياسين فراق ابنها، وكيف سيتلقون الخبر؟ وحدّثت نفسها أنّ أمّها لا بد قد بحثت في هذا الأمر. ولكنّ أهمّ شيء أن ياسين .. وأخاها قد كُتبت لهما النجاة من موتٍ مدبّر في ١٨ شباط ١٩٨١.

جاءت عائلة محمد عادل بيطار من حلب، سكنوا هنا مع تطوّر المدينة، ومع الوقت اندمجوا مع أهل المدنية، تركوا لسانهم الحلبي وأتقنوا لهجة الفرات. يعيد النسابون أصولهم إلى جزيرة العرب. عاشروا الناس، تزوّجوا منهم، وأعطوهم، وتناثر أولادهم في المدينة، وكان منهم الطبيب والمحامي والضابط والقاضي وأستاذ المدرسة، ودلّال الغنم، ولاعب الكرة.

تسمع العجوز كلمات الكهل، وتهزّ رأسها. كان الغروب قد هبط فجأة حين اطمأن الخال الواله على ابن أخته، وطلب من ابنه الشابّ أن يسافر إلى الصفرة ليُعلم أهل ياسين بخبر إصابته ونجاته، ومع ارتفاع أذان العشاء، كان جمعٌ رجال وسيّدات من أخوال الفتى يغشى المستشفى الصغير، وبكت سيّدة نحيفة وهي تشدّ عباءتها على كتفيها:

- هذا ابن صالحة؟

- إي .. ابن صالحة.

- أريد أشوفو.

- لا يا أختي مي يصير، الدكتور مانع الزيارة، استريحي، وتعالي سلّمي على أهلو، وأحسّت أمّ حسنة بعاطفة غريبة نحو الفتى الذي لم تكن تطيقه حتى الظهيرة، ومدّت يديها تعانق الخالة الطارئة، وانفتح باب الغرفة الصغيرة، وخرجت حسنة تغالب ابتسامة عريضة: ياسين .. ياسين صحا.

(٢٠)

ليالي المدن مغشوشة، لا نجوم فيها ، ولا قمر، ولا ظلمة، ولا "وحيف" شجر، ولا عويل ريح، و لا ثغاء ماعز، ولا "ضوّ" سيارة قادمة من بعيد، ليل المدينة، ليل الأحواش المغلقة، والأبواب كثيرة الأقفال. تهادت السيارة خلف السيارات الثلاث الأولى، وهبط الجميع في حارةٍ كبيرة تعلو الأعمدة في شوارعها مصابيح صفراء باهرة، تسمح للعابر بمشاهدة حبّات المطر آخر الليل. نزلت خالة ياسين، ثمّ نزلت حسنة، وتبعتها أمّها، ومَشَيْن وراء الرجال الذين دخلوا أحد البيوت، وتلقّتهم سيّدة عجوز، ودخل الجميع غرفة كبيرة، غريبة، لا بساط فيها، ولا لبّاد، ولا وسائد تستند إلى جدار، أثاث يشبه أثاث غرفة المستشفى، ربّما هو "الكنب" الذي تسمع به.

***

جلست عائلة بيطار، بعدما ترك الجميع المستشفى، تاركين أحد شباب العائلة مع ياسين، ومعهم الضيفتان المُتعبتان، وصاح الخال العجوز بأهل بيته "ترانا جوعانين"

- يخسا الجوع

قالت العجوز من بعيد، وجاءت بسفرة كبيرة، تناولها الشبّاب، وأفرغوا وسط الغرفة من الطربيزات، والتفت الخال إلى أمّ حسنة:

- احنا ناكل ع الطاولة، بس مشانكم راح ناكل ع الأرض.

واستسلمت العجوز لابتسامة متعبة، موافقة العجوز:

- و"انتم زاد".. لا تواخذونا، أشغلناكم اليوم.

- اليوم عندي أحلى يوم، بعدما اطّمّنّا على ياسين، مين كان يصدّق إنّي أشوف ضنا ابن عمّي بعد خمسين سنة، لا هوّ ولا ولادو، نعرف عنهم شي.

- يا حسرتي على ياسين.

وظهر تأثير العبارة الأخيرة على وجه حسنة، التي لم تشأ ترك الغرفة، لولا أنّها فتاة، لا تربطه به أيّ رابطة، وتمنّت للحظة أنّها شابّ وليست فتاة، لتبقى إلى جانب ياسين. وجاءت العجوز بصينيّة فيها صحون صغيرة ملأى بالمخلّلات والخاثر والبصل الأخضر، ثمّ جاءت بطبق كبير تفوح منه رائحة شواء. وطلب العجوز أن تتقدّما نحو السفرة في لهجة اعتذار، وأعادت الخالة الترحيب:

- لا تويخذونا.. ما طبخنا لكم اليوم، انشغلنا بياسين، بس بكرة راح أعمل لـ چي محشي ولا أطيب.

- كثّر الله خيركم.. احنا جايين نجربكم؟

وامتدت الأيدي المرتبكة الجائعة إلى الطعام، وزاد من ارتباكها ترحيب آل البيطار، المتناوب، وأحبّت حسنة الخاثر، الذي ذكّرها بخاثر قريتها القديمة، وحدّثت نفسها أنّه ربّما كان خاثر قريتهم، ولكنّها فكّرت فجأة ماذا سيأكل ياسين؟ وجاءت فتاتان في عمر حسنة وسلّمتا على الجالسين، ونادوا عليهما أن تأكلا، فاعتذرتا، وصاح بهما الخال: "تعا أكلوا.. وَنْسُوا البنت، تراها خجلانة".

واستغلت حسنة الفرصة لتتراجع قليلًا، وتقوم فتصافح الفتاتين.

- بنتي هدى، آنسة مدرسة، وبنت أخُوي ميساء سنة ثانية هندسة، وهذي حسنة أخت ياسين. ورحّبت الفتاتان بالضيفة، وبادلتهما التحية، واستأذنتا العائلة أن تأخذاها إلى غرفة هدى.

***

استيقظ ياسين، ووجد حسنة أمامه، وسألها "آني وين؟" واستبشرت حسنة، وقصّت عليه ما جرى، ونظر ياسين إلى يده المجبّسة التي لا يكاد يحسّ بها، ولكنه وجدها ثقيلة فوق جسده المتعب، وركضت حسنة لتبشّر المنتظرين، فاصطدمت عيناه بوجوه لم يرها من قبل، قبّله الرجال، وقبّلته النساء، وأجهشت واحدة منهنّ فوقه، لولا تحذير الرجال، وفهم من رؤية خاله أنّ هؤلاء أخواله، ومنعه ألم ذراعه عن معانقة أهله الحقيقيّين. وتابعتهما حسنة وأمّهما بعيون دامعة، متحيّرة، وسبحت عينا حسنة في وجوهٍ حزينة، مشفقة، وحاولت أن تربط بينها وبين وجه ياسين، ولا حظت بعض الشبه بينه وبين العجوزين؛ شكل الأنف، وكرسيّ الخدّ، والحواجب المتقاربة، ولكنْ.. من له عينان كعيني ياسين؟، ربّما في هذه "جاي على ابوه"، ولكنّ المحقّق فاجأ الجميع، بطلب إخلاء المكان، لاستكمال إجراءات التحقيق، مع ياسين، ثمّ أكمله مع حسنة وأمّها.

- صارت الساعة عشرة، لازم ياسين يرتاح، وبكرة ورانا يوم طويل، زاد خلّوا ضيوفنا يرتاحون، ويجون ينامون عدنا.

- وين نروح ونترك ياسين.

قالت العجوز، وأيّدتها حسنة دون أن تتكلم، ورصد العجوز ذلك من تعبيرات وجهها.

- يا أمّي.. ما يصير تظلّون هون، عيب بحقنا، وعندنا بعدين كتيبة شباب، أي واحد منهم يجي يقعد عندو للصبح.

وكاد ياسين أن يطلب منهما أن تبقيا إلى جانبه، لولا إلحاح خاله، والواجب الذي يقتضي أن يقوم به رجل.

***

ليل المدن الغريبة متعب، لا نومه نوم، ولا يقظته يقظة. لم تنم حسنة، بعد سهرة قصيرة مع فتاتين أجهدتاها في الأسئلة، عنها وعن ياسين، وفيما إذا كان قريبهما الجديد مرتبطًا عاطفيًّا، دراسته، الطعام الذي يفضّله، برجه، الأفلام التي يحبّها، والأغاني التي يسمعها.. وتحيّرت في أسئلة لا قبل لها في الإجابة عنها. ولم تصدّق متى يأتي الوقت الذي تعفيانها فيه من استجواب طويل، فنامتا وتركتاها تتأمل سقف غرفةً مغلقة، وأحسّت باختناق شديد، قبل أن تنام.

"يا ديوانة يا ديوانة* عتب ع الراح وما جانا"

(٢١)

- حسنااااا.. حسنااا.. أُگعدي أُگعدي.

قالت الأمّ هامسةً، فاستيقظت البنت مهتمَّةً، ومسحت وجهها بيديها، ولبست صايتها، وأصلحت عصبة رأسها، وهمست لأمّها:

- لسّع الدنيا ظلمة.

- ما گدرت انام.

- واني زاد.. گبل شوي تا نمت.

وأحسّتا بصوت أقدام، فعدّلتا من جلستيهما.

- يا صباح الخير، من هسّع گاعدات؟

- صبحج الله بنور النبي، والله يا خيتي راسي مشدّد عليّ، ما هدّا.

- استنّي تا اجيب لچي حبّاية وجع راس. بس لازم تاكلين شي.

وجاءت سيدة البيت، بصينيّة صغيرة، تفوح منها رائحة الشاي، والجبن المغلي، والمكدوس.

- يا خيتي .. والله ما ا گدر.

- اجبري حالچ، الحبّاية على معدة فاضية تذبح.

واستسلمت العجوز، وقطعت قطعة صغيرة من الخبز، وأكلتها، ثم دفعت اللقمة الناشبة برشفةٍ شاي، ثمّ رشفت رشفة أخرى، وحاولت أن تأكل لقمةً أخرى، ولكنّها خافت أن تستفرغ:

- اعطيني الحبّة يرحم والديج، والله ما ا گدر.

وجاهدت أمّ حسنة لتبتلع قرص الصداع، وشربت وراءه كأس الماء كلّه، ونظرت إلى مضيفتها نظرة امتنان:

- الله يوهبج يا خيتي.

- عليج العافية.. شويّ ويروح الوجع.

- ها الوجع مرافجني من يوم هالمصيبة ما حلّت علينا.

- الله كريم يا خيتي. غمضي عين فتّحي عين، ما تحسّين ألّا أنّ ابنج عندج. وترجعون لأهلكم.

- الله كريم.

- افطري يا حسنة، تعالي افطري معاي.

وتقدّمت حسنة، ملبيّةً دعوة "المعزّبة" وهرست باذنجانة مكدوس بقطعة الخبز، ثمّ رشفت معها من كأس الشاي، وتذكرت أيّام تصنعه مع أمّها آخر الصيف. فيقطفن الباذنجان غضًّا وصغيرًا، ويسلُقْنه، ثمّ يتركنه قليلًا ملفوفًا بقماش بين حجارة نظيفة كي ينشف، ويحشونه جوزًا وفلفلًا وثومًا وملحًا، ويضعنه في القطرميز وقتًا كافيًا، ويضفن إليه الزيت، ويتركنه. ولم تكن حسنة تنتظر حتى ينضج المكدوس، فتتسلّ إلى "بيت المونة"، وتفتح القطرميز بحجّة زيادة الزيت وتفحّص

المكدوس، فتضع واحدةً في رغيف، وتقول لأمّها: "لسّع ما استوى". فتهزّ أمّها رأسها: "يمچنّو السنة ما راح يستوي"، فتبتسم حسنة وتسكب لنفسها كأس شاي، جانب "صندويشتها" الخريفية، وتغمض عينها لتكتشف الطعوم المختلفة ممتزجة بشاي ساخن شديد الحلاوة.

- أُكُلِي يا بنتي، شايفتْچِي ما أكلتِ غير لقمة مكدوس.

- الحمد لله يا خالتي، الصبح ما لي نفس.

- البارحة ما أكلتِ واليوم ما أكلتِ.

- والله مثل أهلي وأعزّ، وبسّ أجوع راح آكل.. هُدى ما عندها دوام اليوم؟.

- هُدى.. حسرة قلبي عليها، لا والله .. دوامها مسائي.

- ان شالله ما بيها شي.

- ما لها سعد يا خيتي، من كم يوم فسخت خطبتها.

- لاااااا.. كلّ شي قِسْمة ونصيب. مو أحسن ما تطلگت.. گبل الخطبة أحسن؟ باچر الله يبعث لها نصيب أحسن.

- ونعم بالله.

وتكوّن سيناريو مفاجئ أمام حسنة، ترتّبت مشاهده بسرعة غريبة، يُختطف فيها حبيبها آخر السيناريو، وأحسّت فجأة بكراهية لهدى وأهلها ولهذا البيت، وخنقها وجودها هنا، واستعادت مشاهدها المتشائمة مشهدًا مشهدًا، فبالأمس سألتها عمّا يحبّ وعمّا يكره، وهي تجيب مثل "المهبولة" وغدًا سيصطدنه، في غيابها، سيأتي أبوها اليوم، وسيأخذها إلى المنفى في خربة الشيخ أحمد، ولن تستطيع بأي حال أن

تتحجّج للبقاء هنا؛ فماذا ستفعل في بيت غريب، من أجل شابّ لم تصرّح له بحبّها، ولم يصرّح لها. وندبت حسنة حظّها الأسود، الذي حرمها من التعليم، ثمّ من البيت الآمن في قريتها، وأخيرًا من حبيبها الذي وجدته في الجانب المضيء من كارثة العائلة، وحصّتها من موسم العذاب. ولكن؟ هل يحبّني ياسين؟ حدّثت حسنة نفسها، واسترجعت صوره من أوّل يوم، حتّى الأمس، حين ودّعته، فأشرقت روحها، ونسيت هواجسها التي داهمتها قبل قليل، راقبت بحذر حديث العجوزين اللاهيتين عنها، فاطمأنّت إلى أنّ الصور التي سرّحتها أمام ناظريها في مأمن، ولكن إلى حين.

- صباح الخير.

- هلا بنتي.. تعالي.

- صباح الخير "قالت أم حسنة" تعالي تعالي أُگعدي عندي.

- شلونچي حسنة، نمتِ زين؟

ونظرت حسنة إلى غريمتها، ولكنّها استدركت، وأجّلت معركتها المرتقبة مع قريبة حبيبها الجديدة، واستطاعت أن ترسم ابتسامة على محياها بعد جهد.

- صباح الخير يا خيتي.. نمت شوي .. الحمد لله

***

مطر المدينة من دون زرازير تقف عند باب البيت، ومن دون ماعز تثغو في الحظيرة المسقوفة، ولكنّه مطر مبهج، استراح قليلًا في الصباح، وكأنّه يتيح للموظّفين والطلبة أن يصلوا إلى أمكنة دوامهم، وفي السيارة الصغيرة كان "الشوفير" يتلفّت، ويسوق بعناية شديدة كي لا يؤذي المشاة فوق الأرصفة، من دون أن يترك شتائمه أحيانًا:

- دحّق قدامك يولّ.. لا عاش عمرك

وأمام المستشفى تجمّعت نساءٌ يولولن، فخافت حسنة، وفغرت فاها، وتبعتها أمّها، يدفعهما الفضول، والخوف من المجهول:

- ول خيتي شبيكم، عسى ما شرّ.

- شبّ مثل الوردة، ضربتو سيّارة اليوم الصبح.

- يا يمّة.. وشلون صار.

- بينا روح.. وبيه روح.

وانسلّت المرأتان من جمع النسوة الثاكلات، ووصلن غرفة ياسين، وهناك فوجئن بالحاج عبد اللطيف، وأمّ ياسين، حول السرير، وغير بعيد كان فواز المشعل، وإبراهيم الشيخ أحمد، ومحمد المحسن العلاّص، والشابّ كريم البيطار، وكانوا يتحدّثون حديثًا حول سجن الشابّ المعتدي، وتجريمه بالقتل العمد.

- يا جماعة ضايقْنا ياسين، خلونا نطلع.

- تعالوا نفطر، في مطعم زين قريب، من هين.

قال إبراهيم الشيخ أحمد، ولكنّ الشابّ، اعترض:

- أنتم ضيوفنا، وأهلنا، من هون لمّا تتيسّروا، لا حدا يجيب طاري فطور أو غدا، أو عشا.

- ما تگصّر يا بن الاجواد

قال محمد المحسن، وهم خارجون من غرفة ياسين، تاركين النساء والحاجّ عبد اللطيف وفواز المشعل حول ياسين، وأحسّ المريض ببعض السعادة، وهو ينظر إلى أمّه الوالهة وفتاته، ثمّ استدرك:

- يا عمّي فواز، ليش جيت، وانت تعرف انّك مطلوب؟

- الموت والحياة بيد الله، والله يا ابن اخوي انت مفضّل علينا، الولد الـ جانا، حچى لي على كلّ شي، وشلون رفعت المسدس فوق، كان راح يذبح ابنّا.

- الحمد لله. بس لازم ترجع، خاف يشوفونك.

- فواز دخيلنا يا ابني، وما حدا يگدر يگرب عليه، والمدينة لكلّ الناس، بس يروح على ديارهم، ليهم حگّ.

- بس لازم ينتبه.. يا يابا.. الحرص واجب.

- هاي تطمّنّا عليك، بعد شوي طالعين آني والحبايب، وان شالله نشوفكم بالديرة.

وأحسّت حسنة بغصّة مفاجئة، ووجدت عيني ياسين في عينيها، فأشاحت، وأمسكت رأسها، فأشار الأب مستفهمًا من الأمّ.

- راسها يوجعها، ما گدرت تنام الليل.

- ها يا بنتي، ما زالنا هين، هرواحي تا خذچ ع الدكتور.

- لا لا يا با، ان شالله بعد شوي يروح الوجع.

واستأذن فواز المشعل، وسلّم على ياسين، وأراد الحاج عبد اللطيف أن يقوم كي يصافحه، فحلف عليه ألّا يفعل، وودّعت أم حسنة أم ياسين، ووقفن، ثمّ مشين نحو الباب، ووجدتها حسنة فرصة فتقدمت نحو ياسين مودّعة:

- تريدنا نروح ها؟

وفوجئ ياسين، فوجئ بما يشبه اعتراف حسنة بحبها له، وفوجئ بعتابها.

- عزيزين يا حسنة، بس خايف على عمّي فوّاز.

وأخفت حسنة وجهها الذي احمرّ فجأة، وكادت أن تقول: "وانت عزيز يا ياسين" لولا الضيوف القادمون.

- السلام عليكم.. سلامتك يا ابني، سلامتك.

ورأت حسنة مضيفتها رفقة هدى، فتوارت حمرة الخجل، ونظرت إلى ياسين مرّة أخرى، فيما زوجة خاله تخاطب أباها.

- اليوم حسنة وامّها ضيفات عندي، وماني تيركتهم.

ولم تدرِ حسنة كيف تتعاقب الأحداث، وأمام استسلام أبيها لطلب خالة ياسين، أحست حسنة بجوع مفاجئ، وتذكّرت المكدوس الذي تركته في الصباح، وحدّثت نفسها حين يعودون إلى أخوال ياسين، ستطلب من هدى أن تأكل مكدوسًا.

"ريت الـ حرمني عشيري* ينحرم من دنياه

ويمـــوت يوم الثلج* الچفن ما يلقاه"

(٢٢)

لم تكن نارًا خارجة من "ببّور" النفط، بل كانت نارًا أكثر اتّساعًا وأشدّ ضرامًا، لكأنّها الصاج المقلوب وقد شبّت فيه نار الحطب، لكأنّها "السّعيرة" التي شاهدتها طفلةً في حقول قريتها ذات صيف، نار .. نار.. تلك التي تلتهب في صدر حسنة، وهي تشاهد حبيبها يُختطف منها "الضَّحاة العالية". الأمّ وابنتها تزوران ياسين، وبعد قليل سيخرج ياسين، وسيقعد عندهم أيّامًا، تخصّه هدى برعايتها، هدى ابنة خاله التي جاءتها هدية من "غامض علمو" إيييه عفوك يا ربّ "بسّ واللهِ حرام".. ولم تكن حسنة متأكدة تمامًا أنّ ياسين يبادلها حبًّا بحبّ، فمثله "ينحبّ" شباب ووسامة ومتعلّم، ومن عائلة.. والآن هناك عائلة أخرى تتبنّاه، أخواله الذين "طبّوا على غفلة" وتوعّدوا أهل الشابّ، وها هو قريبهم الضابط في الشرطة يهدّد أهل عليان بالحكم على ولدهم بأشدّ العقوبة، وهاهم المُشاكون يبحثون عن "واسطة خير"، وللحظةٍ تعاطفت حسنة مع الشابّ الصغير، المدفوع بغريزة الثأر لقتل أخيها.

***

حين وصلوا بيت عادل البيطار في ذلك الحيّ الراقي، كانت عائلة البيطار تنتظر كذلك، وضعوا سريرًا وسط المضافة الكبيرة لابن أختهم المصاب، ورحّبوا بالضيوف،. كانت الشمس قد غابت وراء العمارات منذ وقت، في مساء متأخر من شباطٍ ماطر، ولم يكد الرجال يرتشفون شايهم، حتى كان أذان المغرب يصلهم من مساجد المدينة، فجهّز الشباب المكان للصلاة، وقدّموا شابًّا ملتحيًا قرأ بصوتٍ رخيم الفاتحة وسورة قريش، ثمّ قرأ المسد في الركعة الثانية، وانشرحت صدور

الضيوف، وأشرقت عينا ياسين في سريره، وهو يستمع إلى الآيات التي قرأها مرارًا وسمّعها لتلاميذه، وكأنّه يسمعها لأوّل مرة، وانتظر حتى تفرغ الجماعة من الصلاة ليكلّم الشابّ. ولكنّ خاله طلب من الشباب أن يستعجلوا في تجهيز العشاء، وكان الشابّ من أوائل المسارعين لجلب الأطباق والخبز.

لم يكن جديدًا عليهم ذلك الطعام، ولكنّ طعام المدينة مختلف، صنوف مختلفة، منسف الرزّ واللحم، وصينيّة الدجاج، وأطباق المحشي والكبّة. وحين تكاملت المائدة أشار الرجل الكهل إلى ضيوفه:

- تفضلّوا يا جماعة.. تفضّلوا.. يا حجّي يا شباب.. الله محييكم.

- ما تگصّر. قال الحجّ عبد اللطيف.

- خليني اسكب لك يا حجّي.

وتقدّم الشابّ الملتحي يريد ملء طبقٍ للحاجّ.

- والله يا بن اخوي إحنا ما نعرف .. ألّا إيدنا والصحن.

وضحك الجميع، ودعا خال ياسين إلى إزاحة الأطباق.

- والله هذي عادتنا يا حجّي. بس واجبكم علينا چبير.

- خير الطعام ما تكاثرت عليه الأيدي. قال الشابّ الملتحي مبتسمًا، فضحك الجميع، ولكنّه استدرك، مشيرًا إلى ياسين: وهذا المسكين يدحّق علينا، خلّيني أسكب لو.

- هاي طلّعناك اليوم، رغم تحذير الدكتور، شـ اسكبلك ابن اختي؟

وابتسم ياسين خجلًا، وفرحًا بحفاوة أخواله:

- بدّي من محشي خالتي، هيّ وعدتني بي من البارح.

***

- يا بنتي ما أكلتِ، من البارحة، وأنا شايفتجي.

- والله ما بنفسي يا خالة ان شالله دايمة.

وتدخّلت هدى، وأهدت حسنة قرصًا من الكبّة المشويّة، ومازحتها:

- هاي الشوايا ما يعرفونها، ذوقيها ولْجي.

وقبلت حسنة التحدّي، وتناولت قرص الكبّة من غريمتها المفترضة. كانت حسنة جائعة جدًّا في الواقع، ولكنّ غيرتها المفاجئة هذا الصباح خفّفت شهيّتها، غير أنّ مذاق الكبّة المشوية اللذيذ أنساها غيرتها، وتمنّت أن تهديَها غريمتها هدى قرصًا آخر يسدّ جوعها، ولكنّ هدى جرّتها من يدها بعنف ومرح:

- لا تتدلّلي علينا، يا الله تعالي.

ووجدت حسنة أنّ التراجع المشرّف أفضل من جوع الضيف في ليلة شتوية باردة وطويلة.

- من شانج بس، راح أجْبر حالي.

ونسيت في غمرة الأطباق الكثيرة، المكدوس الذي وعدت نفسها به، ونظرت إلى أمّ ياسين السعيدة بنجاة ابنها، وهي تواجه أهل أمّه الحقيقيّة، وكأنّها خائفة مثلها أن تفقد وليدها، في تلك المصادفة العجيبة.

كان باص "الهوب هوب" يتمطّى في الشوارع المزدحمة قبل مغادرة المدينة، تسلّت حسنة عن حزنها بمراقبة الدكاكين والبيوت والعابرين يحملون المظلّات، والأطفال العابثين. قبل أن يستسلم الباص للطريق الطويل.

في الصباح الباكر خرجتا من بيت البيطار، كان ياسين شبه نائمٍ حين ودّعته أمّ حسنة، ولم تجرؤ أن تلحق بأمّها لتودّعه أمام أبيها والضيوف، رافقهما أبوها إلى موقف الباصات، وأخبرهما أنه سيتأخر لعلّه يرى ابنه، وربّما كان هناك سعي لـ "المرضوي" ، فتحلّ مشكلتهم، ويعودون إلى بيتهم، وقفز قلب الأمّ فرحًا، وجمد وجه حسنة من دون أيّ تعبير، فقد انزرع في خربة الشيخ أحمد شيء لم يكن في قرية أهلها.

كان الباص قد غادر البصيرة ومركدة والسبع سكور والشدّادي، ولم يبق غير وقت قليل كي تصلا الحسكة، وأفاقت العجوز من غفوتها. وتذكّرت بعضًا من شبابها في هذه الأماكن، يوم سكنوا الشدّادي أربع سنوات، وهي طفلة، وما إن لاح جبل كوكب حتّى ذكّرتها بحبيبة أبيها "حسنة" التي تسمّت ابنتها باسمها في ذلك الربيع. وضحكتا معًا، غير أنّ حكايةً على لسان عجائز من الخلف أثارتهما:

- من يومين سمعنا أنّو بي شبّ انچتل بالمحكمة.

- لا ... يگولون تصاوب.

- الشبّ ناوي يگتل شبّ ثاني مسجون عند المحاكمة، وهذا الولد من العشيرة الداخلين عليها، جاي مع أمّ الشبّ وأختو.

وقرصت الأمّ ابنتها بارتباك، وهي تسمع قصّتها مختزلة في أفواه عجائز ثرثارات، في رواية ما زالت صامدة حتى الآن.

- اگصّ ايدي.. احلف مصحف، ان ما چان الشبّ رايد البنت، عجل شـ جابو؟

- جابتُهْ منيتُهْ.

- الشب لسّعو طيب.

وضغطت حسنة بارتباك يد أمّها، وأرادت أن تقول شيئًا، ولكنّ الباص توقّف.

- الحمد لله على السلامة، انزلوا يا شباب.

ونظرت حسنة إلى العجائز الثلاث، وتمنّت لو تصرخ فيهنّ "ما تخافن الله؟"، وفي باحة الكاراج المليئة بماء المطر، كان المنادي يصرخ بالنازلين من الباص:

- قامشلي.. قامشلي.. قامشلي .. يا الله طالعين.

(٢٣)

- الدكتور يقول بدّك أسبوع تا نشيل الرباط.. الحمد لله.

- ما نلحگ لكم على جزا يا خوالي.

- يا الله يا ياسين، لازم نمشي، ونفكّ الگطب بالقامشلي.

- لا يا عمّو ما يصير، مستحيل. الجرح ممكن يلتهب، ما لازم يتحرّك..

- والله يا ابن اخوي احنا لازم نمشي.

وتدخّل خال ياسين، وقد أدرك أن الحاجّ ملّ مقام المدينة:

- لا يا حجّي والله مستانسين بيكم.

- ما أگدر ع الحبسة يا حجّي. لازم اتيسّر، وياسين ابنكم، ما ني خايف عليه. يا الله يا أم ياسين.

وتفاجأت العجوز، وكانت تؤمّل أن تبقى مع ياسين، ولكنّها أدركت أن العجوز ترك أدويته هناك، وأنّه يحتاج إلى طعام خاصّ، لا يستغني عنه، ولا يمكن أن يثقل على معارفه الجدد بطلبات شيخ تعدّى الثمانين.

- شلون يا حجّي نخلّي ياسين وْحَدُو؟

- وهمس لها بهدوء.

- يالله.. يالله.

واغرورقت عينا ياسين بالدموع، حين ودّعه العجوزان، وأحسّ في الوقت نفسه براحة كبيرة لأنّه سيعفيهما من عبء رعايته التي تتطلب وقتًا لا يحتمله العجوزان الريفيّان في مدينة مغلقة الأبواب.

كان أهل الفتى المسلّح قد أرسلوا جاهة كبيرة، للحاج عبد اللطيف وابن الشيخ أحمد، ولعائلة البيطار، وكاد الأمر يأخذ طريقه نحو الصلح، لولا فكرة أحد أقارب فواز المشعل، أن تُقبل جاهتهم – مقابل ذلك- لمراضاة أهل القتيل الذين رفضوا الفكرة رفضًا تامًّا.

***

- الواحد ما يرتاح ألّا بّيتو.

- الحمد لله..

- يا ولُم جوعانين.. جيبو لنا شي ناكل.

- يخسا الجوع.. طبخنا مجدّرة ونستنى ترتاحن.

- مجدّرة.. مجدّرة.

لم تحبّ حسنة المجدّرة يومًا، منذ كانت طفلة، لم تحبّها وكفى، ولكنّها تقبلها في الربيع، حين يكثر "البياض" فتحسو إلى جانبه اللبن الرائب، كانت تفضّل عيش البرغل بالشعيرية، وهم يعرفون ذلك، ولكنّ المجدّرة وجبة مفضّلة عند أبناء العائلة الآخرين. جاءت عمّتها وضحة بالسُّفرة، وصحن المجدّرة الكبير، وفرشت إلى جانبه أرغفة خبز الفرن الذي جاءت به المرأتان من السوق.

- عجل ما انتن خابزات؟

- لا والله خبزنا.. بس جونا الجيران واستكرضم منّا عند الغدا.

- المجدّرة من غير خبز الصاجّ ما هي زينة.

وجاءت البنت الصغيرة خاتون بعروش بصل، وجاءت أختها الكبرى سعدة بصحن خاثر، وضعته أمام حسنة. فاندهشت: "الْحَز" المجدّرة طيبة".

- هذا شباط ساعة يضحك وساعة يبكي.

قالت خالة ياسين، وهي ترفع الستارة لترى السماء وقد ذرفت كلّ غيمها طوال النهار، وهي تراقب الفتى الطعين بسرور:

- ترى أنا وأمّك صالحة الله يرحمها، متراضعات، يعني أنت ابن أختي، ومو بس ابن بنت عمّي.

- بالله؟.. "وضحك ياسين" بس ليش كلّ ها السنين ما سألتم عنّي؟

- ما چنا نعرف.. والله على بالنا أنّو توفّت وما لها ضنا، وخالك الله يسامحو ما خبّرنا، أصلًا احنا ما شايفينو غير كم مرّة، سكن بالشام، ونسى أهلو.

- الله يسامحو.

- السلام عليكم..

ودخلت هدى، ونكّبت مظلّتها ووضعتها في الزاوية كي تنشف، وتوجّهت نحو ياسين:

- ها ان شالله اليوم أحسن.. يا الله بلا كسل.. قوم قوم.

- الله كريم يا آنسة هدى.

- شو هاي آنسة.. أنا هدى بنت خالك.

- والله مين چان يصدّگ، يطلع لي گرايب؟

كان أذان المغرب قد ارتفع فوق أصوات السيارات والمطر والأطفال العائدين من المدارس، وأجّل حوار ياسين مع عائلة خاله، واشتاق ياسين إلى صوت الشيخ الشابّ الذي قرأ بعذوبة آيات قصيرة في ركعتي المغرب، وسأل عنه بعد الأذان.

- هذا ابن عمتي صبحية، محمود، سنة ثالثة شريعة.

- ما شالله شبابكم متدينين.

وضحكت هدى:

- لسّعك ما عرفتهم زين، شبابنا مخلّطين متدينين على قوميين على اشتراكيين؟ بكرة بس تقعد معاهم زين، راح تعرفهم.

وأحسّ ياسين بفضول شديد، لمعرفة أسرار أخواله، ونظرت إليه هدى مبتسمة:

- بسّ أنت أيّ واحد من هذول؟

وفوجئ ياسين بالسؤال، وارتبك للحظات، ولم يدر كيف يجيب، فمنذ أن دخل الإعدادية نسّبه الموجه إلى الشبيبة، ثمّ نسّبه دحّام إلى الحزب، وظلّ في قريته البعيدة، بعيدًا عن السياسة، حتى جاءت الحرب العراقية الإيرانية التي شغلت الجميع.

- والله ما اعرف ش اگول، يمكن آني كلّ هذول.

وابتسمت هدى، وأحسّ ياسين بالمرارة، وأدرك في أعماقه أنّ الفتاة قد هزمته.

"يا صديقي

أيها الباحثُ مثلي عن إجابةْ

في الطريقِ؛

ضلّ أصحاب المغنّي

وانحنى ظهر الربابةْ"

(٢٤)

- ما شالله ع المطر.. من الجمعة الماضية وهيّ تمطر.

- ان شالله يتعدّل الموسم.

- وراها آذار.. إنْ خربت وراها آذار، وانْ عِمْرَتْ وراها آذار.

واعتدل أبو دحّام في جلسته، ونظر إلى كأس الشاي الفارغ أمام الملّا سعيد، فحمل الإبريق يريد صبّ الشاي:

- داگر؟[1]

- شكرًا.

وابتسم الرجلان، وشغّل أبو دحّام الراديو، يبحث عن إذاعة لندن التي يكون بثّها مسموعًا جيّدًا في الصباح الباكر.

---

[1] - كلمة كردية (كرمانجية) بمعنى: أسكب لك أيضًا؟

كان العراقيّون قد امتدّوا في الأراضي الإيرانيّة ووصلوا ديزفول وقصر شيرين والمحمّرة "عربستان"، وفي البلاد ما زالت الاضطرابات تعمّ مدن الداخل، وأغلق أبو دحّام المذياع.

- ما وراه ألّا البلا

- البلا من أنفسنا يا بو دحّام، هذا حجر ينقل أخبار. البلا كان قبل الراديو. هذا آخر الزمان يا أخي، فتنٌ تموج في فتن.

- بس والله طلعوا زلم.

- الحرب ما زالت بأوّلها.

وجاءت زوجة دحّام بصينيّة صغيرة وضعتها أمام الرجلين، وسلّمت على الملّا

- أهلين بنت اخوي. عجل وين دحّام

- طلع من الصبح على وظيفتو.

- عجل ما گلْتِ لّك.. دحّام توظّف .. صار شوفير برميلان.

- ما شالله .. صار ياكل ع الميز، ديري بالچ يا بنت اخوي، باچر تكثر بجيبو المصاري ويتجوّز.

وضحكت المرأة وهي تضع يدها على فمها بحركة عفوية، ومنعها الخجل من أن تردّ، وغادرت.

- بيض وخاثر؟ وين الجبنة؟

- نعمة چبيرة يا بو دحّام. الـ يلگى خاثر، يدوّر ع الجبنة؟

وتقدّم الرجلان، يمزّقان خبز الصاج الساخن قطعًا صغيرة، ويصنعان منها ملاعق تغرف من صحن الخاثر، وتبسط قطعًا أخرى فوق صحن البيض المقلي. ثم تدفع برشفات شاي تسلّك الطعام، ولكنّ الملّا مسح يده بعد لقيماتٍ.

- الحمد لله، دايما يا بو دحّام.

- يا شيخي ما گلنا بسم الله، بالله عليك كمّل فطورك.

- والله سبقتك.. قبل ما آجي أفطرت.

- ان شالله عوافي، واني زاد شبعت.

ومسح أبو دحّام يديه، وصاح بكنّته:

- تعالي يمّا خذي الأچل، وجدّديْ لْنا الچاي.

- يا حجّي ما لو لزوم.. آني جايك بشغلة؟

- خير انشالله يا ملّا؟ ابشر بالـ نگدر عليه.

- ان شالله خير... ربعنا بخربة الشيخ أحمد، جماعة فواز المشعل، يدورون فلاحة، وانت عندك أرض وموتور.. الناس عندهم خبرة بالخضرة، وما هم حابّين يظلّون عطّالين بطّالين.. بلكي الله تتعدّل أوضاعكم كمان.

- أي.. ان شالله.. يومين واردّ لك خبر.

***

- يا الله .. مَليك.. قوم حتى نفطر... اليوم لازم تاكل بإيدك

- الحمد لله، أگدر أحرّكها براحة.

- يا الله قوم .. تا نفطر ونروح نشيلْ لك القُطَب.

وجاءت خالة ياسين بصينية إفطار عامرة، وجلس الشباب حول الطربيزة الكبيرة، ونظر ياسين بشهيّة إلى أطباق المكدوس ومربّى الورد والبيض المقلي والبيض المسلوق واللبن الخاثر والزيت والزعتر وحلاوة الطحينيّة والزيتون، والزبدة التركيّة.

- هذا صار غدا يا خالة .. مو فطور.

- هنا وعوافي .. ان شالله بس تاكل.. مو مثل كلّ يوم.

والتفّ حوله شباب العائلة يصبّون الشاي، ويأكلون بشهيّة، وكان اللبن الخاثر قد طاب لياسين، فأكثر منه، متلذّذًا ببرودته، وطعمه، فيرشف وراء كلّ لقمة من كأس الشاي المحلّاة، ويغمض عينيه على الطعم الغريب الذي أعاد ذاكرته إلى الصّفرة.

- هاي شكون يا شاوي.. ما صدّقت لقيت الخاثر.. كول مربّى، تراها شغل خالتك، بعدين راح تزعل منّك ها.

- شاوي.. شاوي.. بس هذا الخاثر لا يُقاوم.

- هذا أوانو .. نزل البيض البلدي والخاثر ع السوق، فرصتنا ها الچم يوم، ناكل لبن وبيض على راحتنا.

وعبث ياسين بالراديو الصغير بجانبه، فسمعوا صوت المذيع العراقي، يقرأ بيانًا مبدوءًا بآيات كريمة، وتقريرًا بعمليات اليوم السابق، وطرب إسماعيل البيطار للأخبار.

- والله طلعوا زلم.. إي هه.

- راح تظلّون متخلّفين طول حياتكم، هذي حرب عدمية، لدعم الرأسمالية.

- روح ولك شيوعي، أنتم شـ معرّفكم بالوطنيّة؟ ولك هذا العراق.

- يعني أنت مصدّق أنّو راح يجي يوم تكون فيه وحدة عربيّة؟

- غصبن عنك وعن ربعك.

وتدخّل محمود، مهدّئًا بين ولدَي العمّ.

- آني شايف إنها حرب ع الإسلام.

- انت شـ معرفك زاد. لسّعكم بالقرون الوسطى.. يا عمّي الصراع الطبقي هو المحرّك الخفيّ للأحداث، لو كان الشرق الأوسط ما بيه بترول، كان راح تصير كلّ ها الحروب؟

- الحرب بينّا وبين الفرس ما انطفت من يوم يومها.. قبل البترول وبعدو.

وأراد ياسين أن يقول شيئًا، ولكنّه وجد نفسه من دون أدوات يدخل بها الحوار، وتساءل: "وين چنت آني عن ها السوالف"، وأحس ببعض الإحباط، لكنّه قرّر أن يقول شيئًا، وتذكّر كلامًا قيل في تحليل إخباري في إذاعة لندن.

- هذي الحرب راح تطوّل، لأنّو إيران ما راح تستسلم.

ونظر الثلاثة إلى ياسين، وإلى بعضهم وعلائم بشرٍ على وجوههم، فقد دخل ياسين حلبةً جدل شباب البيطار.

***

لم يكن دحّام مرتاحًا تمامًا لعمله في حقول النفط في رميلان؛ فيستيقظ منذ الفجر، ويقف على الطريق، وتأتي باصات رميلان الزرقاء، باصات كثيرة متجهة نحو الشرق، يقف باص دحّام، فيصعد ويجلس جوار شيرگو الذي يفسح له ليأخذ غفوة أخرى قبل أن تشرق الشمس بعد الجواديّة أو معبدة، وعندما يصلون مع السابعة، يتسلّم سيّارة "الزيل" الكبيرة، ينقل بها العمّال نحو آلات الحفر. لم يحبّ دحّام طعام "الميز" ولكنّه ألفه، ولم يحبّ عمل الرميلان، صحيح أنّه يقود آلة نقل، تذكّره بـ بيكابه الغالي، الذي فقده منذ شهر ليفكّ الديون التي تراكمت. ولكنّه هنا سيحصل على راتب لا يناله خريجو الجامعات، وماذا يريد أكثر من ذلك.. ها؟ بدل السيارة سيارات، وبدل الدين راتب شهري محترم، وطعام "لو يصير لجدّك ما مات"، اعگل يا ولد، ولا تخلّي عبيّان يوزّك، فيهدهد ضجره ويصرخ في شيرگو؟

- مرحبا شتار[٢]

- أهلين جواز.. خلص لو، احكي عربي أحسن. فيتقدّم دحّام من زميله ويمدّ أحدهما للآخر سيكارة الحمراء القصيرة، فيشعل الآخر السيكارتين من ولّاعته.

***

[٢]- عبارة ترحيب متداولة.

لم يكن سهلًا على الـ شيخ احمد ترك معازيبه يبحثون عن عمل، ولكنّ إلحاح فواز المشعل، واطمئنانه إلى أنّ خصومهم اكتفوا من الثأر بمحاولة المحكمة، وهم الآن مطلوبون لهم بدم ياسين، وتحيّر الشيخ العجوز في حادثة كهذه، يطالبون فيها بدم شاب ليس ابنهم؛ وإن كان.. وإن كان.. فياسين ربيب القريتين، وفتاهما المدلّل.

كان الشيخ ممدّدًا على فراشه، ولكنّه "صاحي" حتّى إنّه سمع دقّات المطر على زجاج النافذة، وكاد يقول "المطر .. ما خلّاني أنام" لولا أنّه تكاسل واستسلم لغفوة ساعدته في إتمامها بطانيّة الصوف الجديدة "جلد النمر" التي جاء بها من لبنان حفيده من ابنته الوسطى عبد الهادي، ولم يدرِ كم ذهب من الوقت، ولكنّ المطر توقّف عن طرق الزجاج، وليس ثمّة أحد حوله، وتلذّذت عظامه الواهنة بالدفء، ولم يشأ أن يصرخ بأحد طالبًا الماء، بل لم يستطع، وتفكّر في أمر القبيلة والبيت وأولاده المتناثرين بين المدن الجديدة والبيوت المنعزلة في الحقول، وتذكّر أوّل ما بنوا الخربة؛ سبعة جمال وبضعة حمير جاءت من سنجار، وجدوا هذا المكان.. لا لا.. الأمر التركي هو من أعطاهم الإشارة، ولكنّها إرادة الله على أيّ حال. أناخوا الجمال، وأفرغوا حمولاتها، ثم بنَوا بيوت الشعر، كانت ثلاثة بيوت كبيرة، وبضعة خرابيش، ثمّ جاء الناس والقطعان، ثمّ بنى بيته "القصر" هذا، وجاءه المجنون محذّرًا، فضحكوا.. وذرفت عينا العجوز التسعيني قطرتي دمع لم تسيلا تمامًا فوق خدّيه الغائرين، ولكنّه أحسّ بالدفء أكثر، وتسلّل إليه أهله هناك: عمّته مزنة، وجدّه مضحي، وفتاة غريبة كان يعرف اسمها، لم يبق منها غير صورة باهتة، ركض أحمد وراءها وهي تمضي بهدوء غير عابئة، ركض وركض .. وجلس يستريح، ثمّ انقطع الضوء، وفتح الشيخ يديه، وحين جاءت حفيدته بالحليب المغليّ، أيقظته، فلم يجب.

(٢٥)

كان آذار يبكي، ليس كبكاء شباط، في أيّامه الأولى على الأقلّ.. بكاء متقطّع هامس، وزاعق أحيانًا، وأمسِ ليلًا.. هطل مطر خفيف على الصفرة، هطل طول الليل، ثمّ صفت السماء، وظهر القمر نحيفًا في النزع الأخير من الشهر القمريّ، رآه الملّا سعيد حين خرج إلى مسجده عند الفجر، وأذّن للصلاة. ثم صلّى ركعتين في انتظار المصلّين، أخرج من جيب اليلگ (الصديري) ساعته، فدغدغت سلسلتها الباردة يده الرطبة من أثر الوضوء. حضر بضعة مصلّين يرتدون فرواتهم الثقيلة المبطّنة، وصلّوا وراء الشيخ، وخرجوا مسرعين، ولكنّ القمر النحيل استوقف الملّا، وذكّره بقريته البعيدة في الشمال، فهزّ رأسه وهو يقرأ وردًا لطيف الكلمات، يختمه بآياتٍ من آل عمران جهر بأوّلها: "شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ.." وخفت الصوت قليلًا: "وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ". فوقف فوق الطاء، ولم يساعفه الهمس في أن يقلقل الطاء، ولم يتأسّف لذلك مثلما كان يصوّب للفتيان، بل راح يقرأ سرًّا بقيّة الآية. لقد عاد من الخربة ليلة أمسِ منتشيًا، وحدّث المعزّين طويلًا، عن واجب العودة إلى الله، وتَرْك الأمور الدنيوية، والاتّعاظ بالموت، فالموت نهاية محتومة، مهما بلغ الإنسان من العمر.

نام الشيخ أحمد نومة طبيعيّة، ولم يفق بعدها، حفيدته التي جاءته بالحليب، وجدته نائمًا وطيف ابتسامة على وجهه. "ما شاء الله" قال الملّا وتفكّر في دورة الموت التي تتقصّد "الشيّاب" الذين لا يحتملون الزكام والبرد وأمراض الشتاء. "*في الربيع يموت العشّاق*" وابتسم الشيخ، ولم يدرِ أين سمع هذه العبارة، في صوت لندن، أم من مثل كرديّ قديم، أم وجده في كتاب قرأه. حين وصل البيت، عرضت عليه زوجته أن تصنع فطورًا، ولكنّه فضّل أن يغفو بعض الوقت، وكان الوقت مبكّرًا على بثّ الإذاعة السوريّة التي تبدأ بالقرآن الكريم في الخامسة والنصف، وآنس من الفراش بقايا دفءٍ، وقاومته صورٌ مختلقة تجمّعت عند وسادته، صور مجلس العزاء، وأحفاده في القامشلي، وطفولته البعيدة، هناك حين قرأ الملّا الحروف العربيّة أوّل مرّة : "أليف.. با.. تا.. ثا..."، وصورة الشيخ يشجّعه على القراءة، واندغمت الصور، وحاول الملّا تفكيكها، ولكنّ النوم منعه.

لم تكن الخربة حزينة إلى درجة كبيرة، فالشايب "چلا عمرو" وهو متعب منذ سنوات، ولكنّ موته الهادئ فاجأ أهله، وفاجأ أهل الخربة والصفرة أيضًا، لم يكن حزنًا كبيرًا ولكنّه كان عزاءً جليلًا، يليق بالشيخ أحمد وبالقبيلة، جاءت عشائر العرب والأكراد، ومسؤولو الدولة، وجاء رجال دين، كان عزاءً "مهيوبًا" استعرض فيه أبناء القبيلة نفوذهم الاجتماعي، وألفَ الشباب طقس العزاء المغلّف بالحزن، لكنّهم "تالي" الليل، وحين يغادر المعزّون يجتمعون حول النار في صاجٍ مقلوب، وربّما تعشّوا معًا، وتحدّثوا في الدين والسياسة والمواسم. عشرة أيّام بلياليها، وفي اليوم الحادي عشر وصل ياسين، وتلقّاه الجميع.

عرف ياسين الشيخ أحمد في السنوات الأخيرة، حين يأتي مع الحاجّ عبد اللطيف، ويجلس مع الرجلين، اللذين يطيلان في تذكّر الأيام البعيدة، وقد يتناول الشاي من يد "راعية البيت" ويصبّ بنفسه للشيخين، وقد يقرأ لأحدهما نشرة الدواء في العلبة

ليشرح طريقة تناوله، ويستقبل بنفسه ضيوف الشيخ إن لم يكن أحد من أبنائه في البيت. كان ياسين ابن القريتين معًا، منذ تصالح العجوزان اللذان فرّقت بينهما فرسٌ قديمة، ثمّ تجدّدت في سيارات الكاديلاك الفارهة، ولكنّهما اعترفا بالواقع، منذ أن بدأت مدارس الدولة تفرز وجوهًا جديدة للقبيلة من أبنائهم الذين وصلوا إلى الجامعة، وصاروا موظّفين كبارًا ينعمون بخير الوظيفة، وبجاه السلطة، وبعصاها أيضًا. واعترفا بالوهن والتعب، ومالا إلى الدعة والسكينة، وأحبّهما ياسين، يتبادلان العتاب القديم، وصور القبيلة الآتية من الجنوب، ويتذكّران وقائع حروب قبلية لم تهملها قصائد الشعر، ولا أسماء الأماكن التي أطلقت على التلال والأودية. ولكنّهما سرعان ما كانا يعودان إلى واقعٍ قاسٍ رهيب خرجا منه إلى الحافّة.

بكى ياسين عمّه الشيخ أحمد كما كان يقول له، بكى بحزنٍ رائق، وترحّم عليه، وسأل أصحابه إن قرؤوا له "الختمة".

***

ارتفعت الشمس قليلًا، وملأ الدفء أنحاء البيت، أخذ الملّا الراديو من جانب المخدّة وأداره، كانت نشرة أخبار السابعة والربع أنهت الموجز، فأعاد الشيخ إقفال الراديو، لا شيء يستحقّ متابعة النشرة، ولم يفلح في استنطاق إذاعتي لندن ومونتكارلو لأنّ البث يضعف مع أوّل النهار. أغلق الملّا المذياع ثانية ونظر إلى السماء وتذكّر الصور التي ازدحمت في البال حين خرج من المسجد؛ خطبته في العزاء، وطفولته البعيدة، وأحفاده في المدينة. لم تكن قراءة قرآن وحسب يومذاك، بل آلة العربية، ومتون النحو والفقه، وهزّ الملّا رأسه يقتنص صوتًا من البعيد، صوت شيخه الفصيح يصارع عجمة الأولاد في ذلك الكتّاب:

"ترفع كان المبتدا اسمًا والخبر تنصبه ككان سيّدًا عمر"*

ولكنّ العصفور الذي نقّر فوق الشبّاك أعاده إلى شتاء الصفرة. كان الشبّاك الصغير، مؤطّرًا بدرفتين من خشبٍ قديم، وقد امّحى الدهان الأخضر بفعل الشموس والأمطار، ولكنّه ما زال يحمي الزجاج الشفّاف، منذ سنتين بدّل الملّا بالزجاج المخرّم السميك هذا الزجاج، فليس من أحدٍ يدخل الحوش دون استئذان، ثم إنّ الأولاد قد تزوّجوا ولم يبق إلّا هو والعجوز. يحب الملّا أن يرى الدنيا من وراء نافذته، مملكته الصغيرة في هذا العمُر؛ شمس الضحى المواربة، والظهيرة التي تسقط في مربع صغير وسط الغرفة، والدالية .. الدالية التي صارت تطعم منذ خمس سنوات، والمساء المتدرّج منذ أن يعود من صلاة العصر، يتابع ألوان المساء بعينين تستعينان بنظّارة ذات إطارٍ سميك، وقبل أن تغطس الشمس ينهض ليؤذّن المغرب، ويضبط ساعته على توقيت الثانية عشرة في التوقيت العربيّ، كما تعلّم في مدرسة الشيخ.

قفز العصفور ورفرف قليلًا ثمّ حطّ على الدالية، كان الربيع قد حطّ في قلب الملّا أيضًا، وتذكّر عصفورًا في نشيدٍ قديم[٣]:

نَوايَا مُطْرِبُ وچنگی فِغانْ آڤِيتَهٔ خَرْچِنْکی*

وأحسّ بعنادل وطيور تغرّد في تلك القرية البعيدة، هناك حيث سعيد، سعيد وحسب، وراء العصافير، يسمع النشيد يتجدّد:

٣- نصّ شعري مشهور للملّا الجزيري، يمزج فيه أبياتًا من الشعر الكردي الصوفي بالشعر العربي، كالمخمّسات والمسمّطات. وترجمة المقطع:

"إنّ صوت المطرب مع الأوتار وغناء الطيور قد علا وارتفع حتى وصل إلى أعالي السماء، فتعال أيها الساقي واسقنا من خمرك الابدي وأحيِ قلوبنا الميتة بالعشق الرباني، فإلى متى لانغسل هذه القلوب من الصدأ فلا بدّ من مناداة الساقي بأن يناولنا كأسا من ذاك الشراب".

نَوايَا مُطْرِبْ وچنگی فِغانْ آڤِيتَهْ خَرْچِنْکی*

وهزّ رأسه هزّاتٍ خفيفات، واستنجد بالذاكرة يريد تكملة النشيد، وأعاد الكَرّة:

نَوايَا مُطْرِبْ وچنگی فِغانْ آڤِيتَهْ خَرْچِنْکی*

واحتدم الإيقاع، ولاحت صورة الملّا الجزيري، وبساتين جزيرة ابن عمرو، والثلوج تغطّي رؤوس الجبال، وممّ وزين، وعاد العصفور ثانية إلى الشبّاك، ولم يوقظ الشيخ هذه المرّة بل أمدّه بباقي النشيد:

وَرَا سَاقِی حَتَا كنْگی نَشُوينْ دِلْ ژِڤِی ژَنْکی*

حَيَاتا دِلْ مَيَا باقِي بِنُوشِينْ دَا بِمُشْتَاقِی*

ألا يا أيُّها السّاقي أدِرْ كأساً وناوِلْها*

وتذلّلت له المعاني، نغمةً بعد نغمة، وكلمةً بعد كلمة، فإذا هو الآن في تلك الحضرة بين يدي الشيخ، يرى المجاذيب والدراويش، والشيخ يقف أمامهم واحدًا واحدًا، قارئًا بيت شعر، أو قولًا مأثورًا. وأحسّ الشيخ بنشوة الانتصار وهو ينظر إلى العصفور الذي أوصله إلى الكنز، وخفّف من إيقاع النشيد، ورقّق صوته، وهو ينشد "حياتا دل، ميا باقي" وكرّرها، وهو يطلّ على الصور التي لم تغادره هذا الصباح. وكانت العجوز تخبز على التنّور، فلما فرغت، جاءت برغيفين ساخنين ملفوفين بقماشة، داعيةً الملّا إلى الطعام:

- وا ملّا .. وره نان بخوا[٤]

---

[٤] - تعال يا شيخ لتأكل الخبز.

ولم يردّ الملّا ، وأعادت العجوز النداء، وهي تأتي بالشاي واللبن، ولكن عبثًا، فهزّت رأسها مستكينةً:

- بخودي.. ملّا هيمان[٥].

***

طووا بيت العزاء بحزن وافر، أناخوا البيت بهدوء وكأنّه جمل، لفّوا الحبال والأوتاد، وجاءت "تريلّا" سعيد المحسن، وحملت البيت إلى مستودعٍ كبير خلف مضافة الشيخ أحمد. كانت العاشرة تقريبًا، ودعاهم إبراهيم الشيخ أحمد إلى المضافة ليجلسوا، ولكنّ أكثرهم اعتذر للاستعداد لصلاة الجمعة في الصفرة، ونظر إبراهيم إلى ياسين:

- وانت يا ياسين..؟ شـ وراك؟ تعال نگعد شْوَيّ.

ولم يجب ياسين، ومشى الرجلان نحو المضافة، ووجدها ياسين فرصةً ليزور بيت فواز المشعل، فلم يطل المقام في المضافة، بل اكتفى بـ"كاسة" الشاي الأولى، وودّع إبراهيم، وغادر. وهو يحضّر كلامًا، فيحذف منه، ويضيف، ويمحو، ثم يكتب. ولا يدري كيف سيمهّد للأمر، يخطبها هكذا؟ أم يحدّثها أوّلًا.. ولكنّه حين وصل، وجد دحّام أمامه، يتفّق مع فوّاز المشعل على زراعة أرضه المرويّة. فوجد الوقت غير مناسب، واستأذن، وقبل أن يغادر الحوش، سمع صوتًا رقيقًا:

- ياسين؟

٥- والله إنَ الملاّ هائم .

- **الشكر موصول للأصدقاء: حيدر هوري ومُحَمَّد سليمان و عمر كوجري (عمر مُحَمَّد إسماعيل)، لمساهمتهم في الترجمة من الكردية والعربية (الكاتب)**

"جنّا رفاگة وربع* والعشب طالع زين

سرحان لمّا حصد* طرد دواب حسين"

(٢٦)

نظرت عدلة الشوّاخ إلى مطبخها الصغير، تحتال لغداء اليوم، وتحيّرت ماذا تطبخ، فقد قَلَت آخر حبّة بطاطا لابنها الصغير في الأمس، وقد زهد الجميع في وجبات العدس، ولم يبق من الكشك غير وجبتين أو ثلاث، وفكّرت أن تذهب إلى البريّة تبحث عن الخبّازى ولكنّ الجوّ بارد. قامت أمّ حسنة إلى مؤونتها ونظرت إلى الأكياس والمرطّبات، تفقّدتها، واكتشفت بقايا من "شجيج" الباذنجان ففرحت بلُقيتها، ولكنّ الأولاد لا يحبّون شجيج الباذنجان، فتركته، غير أنّها وجدت في كيس صغير شجيج الباميا، ملء حفنةِ يديها، بل أكثر قليلًا، وتذكّرت حين يبّست "حوشة" يومين متاليين. كان فواز يريد أن يبيع الباميا في السوق، وقال لها إن الباميا غالية هذه الأيّام، ويمكن أن تؤجّل "التشجيج" إلى أن يرخص، ولكنّها رفضت، وقالت له إنّ المونة أهم من كلّ شيء، وحين تذكرت عبارتها الأخيرة أحسّت بانتصار وبهجة.

حين "تطيح" الخضرة، تتحوّل العائلة إلى خليّة نحل، آخر أيّار "يطرح" الخيار والكوسا، ويُباعان بأسعار مرتفعة أسبوعًا أو أسبوعين، ثم تلحق البندورة يبيعونها عجرًا "خضراء" أوّل الوقت، وبعد أقل من شهر تصاب البندورة بالجنون، "تحمل من عيونها" ولا تجد تصريفًا، في المواسم التي تكثر فيه زراعتها، غير أن الهواء الذي دفع باب المطبخ الصغير أعاد أمّ حسنة إلى المنفى البعيد؛ إذ بيعت الأرض بثمن بخس، الأرض ذات السواقي التي نبتت فوقها شجيرات الباميا الطويلة، ولم يبق منها غير حفنةٍ أو حفنتين، في بلادٍ بعيدة.

- من أنت يا ياسين؟ وماذا تريد؟

كان الطلّاب غادروا إلى باحة المدرسة الصغيرة، بينما هو يرتشف كأس شاي مع زميله الجديد الذي تعيّن قبيل انقطاعه عن المدرسة أيّام إضابته، تعاطف الموجّه معه، ولم يكتب له "كتاب انفكاك" حتى أهل القرية لم يشتكوا غيابه حين عرفوا السبب، وحين أتى فرح طلابه كثيرًا، حتى إنّ البنت هنوف بكت حينما رأته. ولكن من أنت يا ياسين؟ وكاد يستعيد صورة غربته وحيرته أمام سؤال هدى، وجدال أولاد خاله، ولكنّ الأولاد العابثين بدؤوا يردّدون مقدمة المسلسل الذي أوقفته الحرب:

- *"جي واهر بنت الحميدي* حبّيج بگلبي يزيدي* لو ربّطوني بحديدي* غرامج ما احيّد عنّه".*

وضحك ياسين متذكّرًا "متعب وجواهر" وقارن بينهما وبينه وبين حسنة من جهة أخرى، هو لم يعترف لحسنة بشيء، وهي لم تقل له شيئًا أيضًا، ولكنّها عاتبته بقوّة حين أحسّت أنّ قريبته الجديدة ستخطفه منها، وابتسم ياسين، وفغر فاه مستعذبًا ذكرياته، واستغرب زميله:

- شبيك ياسين، احنا هين.

وضحك ياسين، وكاد يعترف لزميله، ولكنّ الطلّاب الذين فرغوا من النشيد البدويّ، انشغلوا بما يشبه نشيدًا حماسيًا، يتكرّر في التلفزيون العراقيّ: "ها اخوتي ها.. ها ها..."

وصرخ بهم ياسين خائفًا من تبعات سماع نشيدٍ يمكن أن يتسبّب له بمساءلة أمنيّة، فارتدع الأولاد، ولم يجد حلًّا غير أن يقرع الجرس.

***

حين فرغت من طعامها كانت عائلة فواز المشعل، تستعدّ للرحيل إلى الصفرة، للأرض التي ستشهد صيفهم المقبل، وضع دحام ٥٠٠ بلوكة على عجل، وجاء إسماعيل المحمد المحسن وصفّ البلوك في يومين، ثمّ سُقِفت الغرفتان الصغيرتان بألواح التوتياء، وثبّتوا الصفيح الرقيق بأسلاك معدنية، وصفّ كامل من البلوك فوق الألواح المتماوجة، ولم يستطع إبراهيم الشيخ أحمد ثني العائلة عن الرحيل، ووجدها إخوة فواز فرصة للرحيل إلى القامشلي، للعمل في تربية الماشية في الحارات المجاورة لسوق الغنم.

- باچر نشيل.

- خلّيها لبعد الجمعة يا بو عاصي.. الجماعة لسّع ما شالم بيت العزا.

- لا يا مرة.. الشغلة بضلعنا، ولازم نخلص.

ولم تُحْرِ المرأة جوابًا، ونظرت إلى ابنتها التي رفعت فضلة الطعام، ووضعت إبريق الشاي على النار، وزاد تجهّمها، وفي الأثناء جاء طفلٌ صغير، يخبرهم أنّ وفدًا من أقاربهم جاء معزّيًا. وارتبكت العائلة، واتجه الأب إلى الفرش المنضودة، ليستخرج مسدسه، وخافت المرأة وصرخت بهمس:

- ما حدا قاصدكم، خلّيكم هين.. الله يمضّي ها النهار على خير.

وهدأ الرجل قليلًا، وفكّر في الأمر جيّدًا، وقد غاب عنه أنّ خصومه مدينون لمضيفيه بمحاولة قتل ولدهم "ياسين" وأنّهم يبحثون في إسقاط ياسين لحقّه، ليتسنّى لهم إطلاق سراح ابنهم السجين، وأوعز إلى أولاده أن يبقوا مكانهم ريثما يرحل الضيوف، مخافة أن تلتقي العين بالعين، فركن الجميع، ومدّ الأب يده إلى "صفط التتن"، وفتحه بهدوء وتكاسل، ونظر إلى ابنته:

- ول يمّا وين چايكم؟

ولم تكن حسنة لتفطن إلى نداء أبيها، فقد كانت تعيش الحوار الأخير مع ياسين، عند باب الحوش، حين عاتبته، وعاتبها:

- شـ يسوّي عندكم هذا؟ دحّام شـ جاعد يسوّي؟

- شـ علاقتي؟ وزاد غيظ ياسين.

- لا تعطينو وجه.. تفهمين؟

- يا سلام، انت ليش اعطيت وجه لگرابتك المعصفرة، أم سنون صفر.

وضحك ياسين، وزاد ذلك من غيظها، ولكنه استعجل الوداع، بحجّة الذهاب إلى دوامه في الصباح الباكر.

- الخميس راح أرجع، وراح نزوركم.. ها شـ گلتيِ؟

- أهلًا وسهلًا.. وأدارت وجهها من الخجل، ولكنّها سرعان ما استعادت رشدها حين غادر ياسين، ولم تعد ترى غير كتفيه يذوبان في الطريق.

- ولّ يمّا وين الشاي.

- هاااا؟ يا الله يالله.

***

كانت مفاجأة، وأوّل ما فكّر فيه إبراهيم أن يحمي اللاجئين، بإرسال رجل واعٍ يطلب منهم الحيطة، والابتعاد عن مرمى العين، ثم أرسل إلى بيت الحاج عبد اللطيف، وإلى وجوه القبيلة، وفكّر أيضًا أن يصنع عشاءً يليق بضيوف قادمين من مكانٍ بعيد.

هبط الضيوف من سيارتين، سبعة رجال، أرسلوا قبلهم محمد المحسن، ليتيح لخصومهم أن يتركوا المكان، نزلوا بهدوء وحذر، وتلقّاهم إبراهيم الشيخ أحمد بوجه "ثجيل":

- ترى جايين نعزّيكم.

- الله محييكم.

وزالت الرهبة بين المستقبلين والضيوف، بعدما اطمأنّ الطرفان، وفتح رجلان صندوقي السيّارتين وأنزلا منها أكياس سكّر ورزّ، تلقّاها شباب العائلة، ولحقهم بيكاب تويوتا أنزل منه السائق سبع ذبائح، وأحسّ إبراهيم بسرور خالطته حيرة، وأدرك أنّهم يريدون التصالح معهم.

***

- يا حجّ عبد اللطيف، والكلام للحاضرين، احنا جايين نعزّي باخونا وچبيرنا الشيخ احمد، وبنفس الوگت طمعانين بكرمكم، انّو تسقطون عن ابنّا، لأنّو ما كان قاصدكم.

- والله يا ابن اخوي، ياسين ابنكم، بس بنفس الوگت، ليش ما نكمل المرضوي، وتعفون عن جماعتكم، ما دام ساعة الرحمن حاضرة.

واغتنم الملا سعيد الفرصة كي يتحدّث عن الحكمة من الصلح، في آيات وأحاديث، واسترق النظر إلى الضيوف وهو يتحدّث حتى إذا أدرك أنهم لانوا، روى لهم حديثًا عن أحد حكماء العرب وقد عرف أنّ ابن أخيه قتل ابنه، فأسقط حقّه، ودفع الدية إلى زوجته أمّ الشابّ المغدور.

وارتبك الضيوف، ونظروا إلى بعضهم، وهم يعرفون أنّ عائلة البيطار لن تسمح للمحامي أن يحتال ليخرج ابنهم، وهم يدركون قوّة القبيلة التي أوقعتها الأقدار في طريقهم. وأدرك إبراهيم أنّهم اقتربوا من الهدف.

- احنا نعرف أنّو هين ما يصير تعفون.. بس احنا انشالله وياسين جايينكم الجمعة الجاية؟

حين استأذن الضيوف، كانت الساعة قد بلغت العاشرة، وعبثًا حاول إبراهيم استبقاءهم، وحين مشت السيارتان نحو الطريق العام، خفّ محمد المحسن نحو بيت الفوّاز مبشّرًا، فأشعلوا ضوء الكهرباء، وضوء الحوش، وكادت المرأة "تهلهل"، لولا مأتم الجيران. دعا فواز محمد المحسن إلى الشاي، لكنه اعتذر، غير أن الشاي جاء، وأعادت المرأة عبارة "عفية ياربّي" أكثر من مرّة، وضحكت، ثمّ بكت، وبادلها زوجها الحالة ذاتها، غير حسنة التي سكبت الشاي بصمت للعجوزين، وحين مدّ أخوها الكبير يده إلى الشاي، كانت قد رفعت الصينيّة، فارتطمت يده بحافّتها، وسقطت الكأس في الصينيّة، فصرخت حسنة:

- أعمى ما تشوف؟

- انكبّ الشرّ .. انكبّ الشرّ، شبيج يا بنتي؟

"وناي الـ چتلني وناي الـ غيّر ألواني

وناي لفراگ الولف بالظنّ خلّاني"

(٢٧)

كان التلفزيون السوري يعرض مباراة للمنتخب، وجاء أولاد الجيران ليشاهدوا المباراة. كان تلفزيون السيرونيكس الضخم جاثمًا على طاولة الفورميكا المزهّرة، مربوطًا بكبل أبيض يخرج من الشبّاك تجاه عمود نحيل، يحمل في رأسه مشطين من الألمنيوم، للحصول على بثّ التلفزيون السوري والعراقي.

- فريءنا عَمِ يهاجِم، كيفورك.. كيفورك.. أنور عبد القادر.. أنور.. كيفووورك.. يا خسارة.

وتدافع الأولاد نحو التلفزيون أكثر، وكادت طاولة الفورميكا الخفيفة أن تسقط، وصرخت بهم الأمّ كي يتراجعوا، وأحسّ الأولاد الضيوف بالذنب، وتراجعوا قليلًا. وهمس بهم أخوهم الكبير أن يهدؤوا. ضجّ الأولاد بعد هدفٍ ضدّ منتخب البلاد، وتكرّر أسف المذيع:

- فريءنا عمّ بيهاجم، بسّ يا حرام..

- عيد بيرقدار تعبان.

- لا.. الدفاع ميّت.

وعلا الصراخ مع محاولات كيفورك مارديكيان ومروان مدراتي وأنور عبد القادر ومحمد جزائري، وتقدّمت كتيبة المشجعين نحو طاولة الفورميكا الهشّة، وأحسّت المرأة بخطرٍ يتهدّد الطاولة التي "زنّت" من أجلها فوق رأس دحّام، حتى اشتراها،

وضاقت بضيوف صغار لا يغادرون البيت تقريبًا، وقامت إلى التلفزيون وأغلقته؛ فعادت الكتيبة الصغيرة إلى الوراء قليلًا، ونظروا في وجوه بعضهم، فأشار الأخ الكبير بهزّة من رأسه، فقاموا يتلمّسون أحذيتهم عند العتبة.

حين غادر الأولاد وضعت المرأة أمام أطفالها مقليّ القرنبيط، وصحن خاثر، وشغّل الولد الأوسط المشاكس التلفزيون ولكنّها لم تعترض، وصرخ المذيع بالأولاد وهم يتعشّون:

- إلى هنا سيّداتي سادتي ينتهي لقاء اليوم من ملعب العباسيّين، ونعود بكم إلى استوديو التلفزيون العربي السوري من دمشق، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

وصرخت الطفلة الصغيرة وهم يلفّون بخبز الصاج قطعًا من زهرة القرنبيط المقليّة، مضيفين إليها الملح:

- افتح ياسمسم.

وأكملت مع النشيد الذي يظهر على الشاشة: افتح يا سمسم أبوابك نحن الأطفال، افتح واستقبل زوّارك نحن الزوّار، فنهرتها الأمّ وقد انتابتها مويجة أسف خفيفة لطردها أولاد الجيران:

- اسكتي ولا چ.

منذ أن رحلت عائلة الفوّاز، أحسّت صبحة بالخطر يتهدّدها، وبخاصّة بعد وظيفة دحّام في رميلان، وظيفة من دون عمل متعب؛ يذهب في الصباح ويعود في المساء، يلبس بدلة عمل نظيفة ويبخّ وجهه الحليق بعطر الكولونيا الليمون، والأهمّ من ذلك أنّه لم يعد يكلّمها كما كان يفعل، فيطلب منها أن تصنع له البرغل بشعيرية أو الكبّة، وشعرت أنّ طعام الرميلان هو السبب، وفكّرت أن تبادر غير مرّة: "دحّام

أسوّي لك شوربة عدس؟ مشتهي كبّة؟" وعبثًا أجابها، وأحسّت أن الوظيفة أنقذت دحّام، ولكنّها وضعت العائلة الصغيرة في دائرة الخطر، وبخاصّة عندما جاء الفلاليح وسكنوا "العزبة" فما إن يصل البيت حتى يستقلّ "موتور الدولابين" قاصدًا الحقل، ولا يعود إلّا متأخّرًا، فإن سألته عن سبب تأخّره نهرها، وذهب إلى فراشه.

- يمّاا سوّي نّا چاي.

- روحم نامم يا الله، تشربون چاي بها البرد، والصبح الفرش مرطرطة؟.

ما زال آذار باردًا رغم أن غدًا أوّل الربيع. اعتذر دحّام عن مرافقة إبراهيم الشيخ ومنصور العبد اللطيف ووجوه القبيلة مع ياسين إلى الدير، قال لهم إنّ الغياب في وظيفته الجديدة ممنوع، ولكنّ دحّام لم يرد أن يفوّت يوم النيروز مع شيرگو، فغدًا ستخرج عائلات الكرد إلى الحقول.

في الصباح الباكر جاءت سيّارة من الخربة، تبعتها سيّارة من الصفرة، واتّجهتا نحو الطريق الرئيس نحو القامشلي فالحسكة فالدير، حين وصلوا تلّ براك، كانت الشمس قد ارتفعت قليلًا، وأكمل الركّاب غفوتهم الخفيفة، واستبدّ بهم الدفء، فتخلّى محمد المحسن عن فروته، ووضعها في حضنه:

- والله طگّينا من الحرّ.. ول يا با نزّل البلّور شويّة.

ولم يلتفت الشوفير الذي يفكّر بتجاوز التريلّة التي أمامه منتظرًا مرور السيارة القادمة في الطريق ذي المسار الواحد، وبعدما تجاوزها تنفّس الصعداء، وضغط بإبهام يسراه زرًّا فانخفض زجاج نوافذ السيارة شيئًا قليلًا.

- الله يوفقك.. والله فطسنا.

- معليش يا حجّي.. الجوّ بارد كتير برّة، كان نزّلت البلّور ع الأخير.

- يعطيك العافية.. شـ گد ظلّ ع الحسكة.

- شي ثلث ساعة.

- زين.. زين.. لازم ننزل بالحسكة، نفطر ونكمّل.

- ليش ما نأجّلها للدير؟

- خلينا نسافر واحنا مصحصحين يا استاز... ألّا مشتاگ لخوالك.

وضحك الحشد الصغير في العربة التي وضعت جبل كوكب على يسارها، وعبرت قرية الصفيّا ومصنع السينالكو.

- وصلنا يا شباب.. خذونا على مطعم فول وحمّص.. نفطر ونرتاح شويّ.

***

- احفري زين بالفاس.

- يمّا لسّع ما نسيت شغل الخضرة.

- الگاع هين ماهي مثل گاعتنا.

وعلى طرف الخط العميق الذي يفصل بين صفوف الأشجار الذي يسمونه "البران" حفرت حسنة بهدوء، ووضعت بعض الروث اليابس في الحفرة الصغيرة قبل أن تضع شتلة البندورة الصغيرة وتردم الجذر الغضّ التراب. وجاء أخوها اليافع فيّاض بالشتول الجديدة ملء طشت نايلون، وأشفقت عليه الأمّ:

- خاف تبهظلك.. لا تكثّر.

وأحسّ فيّاض بنشوة عابرة، وراح يملأ الطشت بالشتول المتبقيّة، وينظر إلى خطوط خضراء بخصلات صغيرة تهتزّ أمام الهواء الخفيف، وابتسم، ولكنّ الأمّ صاحت به:

- روح جيب ميّ.

- خلّينا نفطر، وبعدين نكمّل.

- يا الله.. هات الفطور.

وخفّ فيّاض إلى زوادةٍ ملفوفة بثفال الخبز، وسطل اللبن الصغير، وكيسًا فيه بضع حبات بطاطا مسلوقة:

- تعالن يا بنات.. لاحگين ع الشغل.

وتداعت الفتيات الصغيرات إلى نداء عمّتهنّ، وتحلّقن حول السفرة بعدما غسلن أياديهنّ من أثر التراب والروث.

ومرّت صبحة العايد تسوق دوابّها العشرة نحو "الچاير" ولم تنظر إلى الفريق المتحلّق حول الطعام، ودعتها العجوز إلى الطعام، ولم تردّ المرأة، ولم تلتفت:

- يمكنها ما سمعت. قالت حسنة.

- لا والله يا بنيتي سمعت. بس سوّت حالها ما سمعت، الله كريم نردّ لاهلنا، وما نعيش بمانيّة حدا. وهمهمت: "*لا تفلح عند من چان فلّاح*" فأكمل فيّاض مقهقهًا: "*ولا تسرح عند من چان راعي*" ونظرت حسنة إلى أخيها الذي كبر فجأة.

ولم تكن النار التي اشتعلت للتوّ في صدر صبحة لتنطفئ بين عشيّة وضحاها، وأحبّت أن تملأ عينيها من حسنة، ولكنّ طريقتها في التعامل معهنّ قبل قليل، جعلتها تمضي في التحدّي والتجاهل، ونظرت إلى أغنامها التي تناثرت في الحقل الصغير الذي يخصصونه للرعي، وفكّرت فيما فعلته، وما الذي سيفعله دحّام إن علم بما فعلته "هو يدوّر على حِجّة"، وما أدراها أنّ غريمتها هي حسنة، ربّما كانت أخت صديقه الكردي شيرگو، وربّما من بنات عمّته في القامشلي، بنات دارسات ومتمدنات.. وأحسّت ببردٍ مفاجئ عندما هبّت نسمة شماليّة خفيفة، فلفّت ذراعيها بكفّيها، وتمنّت لو ارتدت كنزتها قبل أن تسوق أغنامها، سيقول لها دحّام "شـ مودّيـچ عالگاع"؟ فماذا ستقول له؟

في العادة يأخذ الأولاد الماشية وقد يرافقهم جدّهم أحيانًا، ولا تدري كيف خرجت بها اليوم حين غادر دحّام، وقد أحسّت بضيق شديد، فلم تجد غير أن تغادر البيت كما يفعل الكرد هذا اليوم، وأدركها دهاء المرأة، وما إن بركت الأغنام بعدما شبعت، حتّى اتّجهت إلى النسوة المنهمكات في العمل:

- الگوّة الگوّة.

- الله يگوّينا ويگوّيچ.

"نسمة جَاتْني ذبّلت ريجي

علّمتني عدوّي من صديجي"

(٢٨)

غصّت أوضة الشيخ عبدالله بالحاضرين. جلس الضيوف مقابل الشيخ، وجلس في الصدر قاضي العرب. لم يكن ثمّة خصومة إلّا في الشكل، وقد هدأت النفوس بعد زيارة الخربة، وكان الجميع ينتظر الغداء الذي تأخّر، واقترح الشيخ عبد الله أن يصلّوا العصر أوّلًا خوفًا من الغروب المبكّر في مثل هذا الوقت من السنة. جاءت مناسف الرزّ والثريد في صفّين متوازيين، اتّسعت لهما الأوضة الواسعة، وجلس الشيخ عبد الله بجانب ضيوفه، وفتّ لهم اللحم بيده، ولم يردّ على اعتراض إبراهيم الشيخ أحمد، ومدّ يده إلى الرأس، وفكّكه بخبرة، ووضع اللحم والنخاع أمام الجميع، ثمّ استلّ اللسان، بقليل من الجهد، وقال لضيفه:

- اللسان للشاعر.

- شاعرنا ياسين.

حركّت الدعابة الحاضرين، واعترض ياسين.

- هذا الكلام من زمان، الدراسة ما خلّت لي مجال للشعر.

- انتَ تدرس محاماة، والمحامي لسان.

وضحك الجميع، واستسلم ياسين لاقتراح أصحابه، فلاك اللسان، ولم يستسغه، ولكنّه مضغه بهدوء متصبّرًا على طعمه الغريب، وتذكّر قصائده التي كتبها صغيرًا وعرضها على مدرّس اللغة العربيّة، وأنّه شجّعه، وأوصاه بقراءة الشعر

العربي. كان ياسين قد أغرم بقصائد المتنبّي والبحتري في منهاج اللغة العربيّة، واشترى المعلّقات السبع من مكتبة اللواء، وقرأ قصائدها، ولكّنه لم يفهمها تمامًا، وعندما نال الثانويّة انشغل بكتب الحقوق الصعبة التي أدخلته في عوالم الجريمة والعقاب، والتشريعات والقوانين. ولم يكن يجد المتعة إلّا في الكتاب المخصّص للغة العربية فيهرب إلى نصوصه ودروس قواعده السهلة التي مرّت به في المرحلة الإعداديّة.

بعد صلاة المغرب، جلس الجميع بعدما تقاضى الفريقان، وفصل قاضي العرب بما يعرفه، إذ إنّ قتل الشابّ بطلقة مسدس كان "زلّة" غير مقصودة، ويلزم منها الديّة، واستكمال "الجلوة" مدّة عامين، وبإمكانهم أن يسعوا في إطلاق سراح ابنهم. ولم يشأ إبراهيم الشيخ أن يزجّ قضية "تقطيع الوجه" في تعرض ابنهم لياسين، كي يتيح للمصالحة أن تستتمّ تفاصيلها. أقرّ الشيخ عبد الله بقرار القاضي، وطلب أن يؤجّل فوّاز المشعل السلام على أولاد عمّه إلى عيد الأضحى كي تهدأ النفوس تمامًا، ولم يكن القرار محبطًا تمامًا، ولكنّهم كانوا يأملون أن يتصالح الفريقان فورًا.

في الطريق إلى الدير، مرّ القوم ببيت البيطار، مُسْتَبْقِين ياسين عندهم لاستكمال إجراءات التنازل وإسقاط الحقّ الشخصي في اليوم التالي، ورغم محاولة عادل البيطار استبقاءهم، إلّا أنّهم تعلّلوا بطول الطريق. في الثامنة مساء كانت السيارتان تتّجهان شمالًا، فيما حضن الخال الكهل ياسين، وأدخله البيت، وتداعى شباب العائلة للقاء ابن الأخت "الجديد"، وقد أدخل إلى حياتهم لونًا من الفرح والحيوية. وطالت السهرة حتى الثانية، شربوا فيها شايًا وقهوةً، وتعشّوا قبل انفضاض السهرة، وحضرت عجائز البيطار، وبناتها، وبدا "ياسينهم" الولد المدلّل، وقال له إسماعيل:

- هاي لقيت خوالك، لازم تدوّر على عمامك.

ولم يكن إسماعيل البيطار مازحًا، كأولاد البيطار الآخرين، بل كان الشابّ الملتحي جادًّا تمامًا. وأكمل:

-جذورك الحقيقية انّو تعرف مين أهل أبوك. أبوك الأستاذ عبد العليم ياسين، وبعدين؟.. مين همّ أهلك؟

وصمت الجميع، وأحسّ ياسين أن إسماعيل يكرهه، وفكّر أنّه غار منه حين لاطفته هدى، وربّما لأنّه لم يوافقه في آرائه المتشدّدة، وظلّ ساكتًا، وغيّر ابن خاله الأصغر الموضوع.

- بكرة رجلي على رجلك، نقضّي شغلنا في المحكمة، بوجهنا ع الملعب، في مباراة للفتوّة بالدوري.

- بالزّور بالگوّة، رَحْ يربح الفتوّة.

وضحك الجميع، وانفضّ السامر، واستعاد ياسين حديث إسماعيل، وتذكّر شيئًا يتعلّق بالجذور، في مسلسل مترجم، يحكي قصّة طفل اختطفته عصابات تجارة الرقيق في أفريقيا الغربية في القرن الثامن عشر، وأخذته إلى أميركا، وحين كبر بدأ يبحث عن جذوره. كان أصدقاؤه الشباب من قدّور بك، يحدّثونه عن "كونتا كنتي" بطلهم المظلوم، ولم ير منه غير لقطة عابرة عرضها مروان الصوّاف في برنامج أسبوعي، حين تأتي الفتاة البيضاء بعربتها إلى حيّ الزنوج، فتفرح صديقتها أيّام الطفولة بها، وتعرّفها الفتاة السوداء بنفسها، وكيف كانتا صديقتين متحابّتين، إلّا أن البيضاء تعاملت معها ببرود وقد طوت عشرة الأمس، بل أمرتها أن تجلب لها الماء، فاستجابت الشابّة المحبطة، وملأت الكوب المعدني ماءً، ثمّ بصقت فيه، وجاءت به إلى صديقتها.

تذكّر ياسين أنّه شاهد الكتاب في فاترينة مكتبة الحريّة، ولم يفكّر في شرائه، وقرّر في سرّه إن كان موجودًا، فسيشتريه. حين ارتدى بيجامة النوم التي جاء بها فهمي، قام يقرأ عناوين مكتبة خاله، وفاجأه الكتاب الذي أراد شراءه، استلّه بهدوء، وتصفّحه باحثًا عن كونتا الجديد، وقلّب صفحاتٍ بعد صفحات، وحين وصل الجزء الرابع والخمسين، جذبته المقدّمة: "مرّت سنة أخرى بسرعة لدرجة أنّ "كونتا" كان من الصعب أن يصدّق ذلك، وقد أخبرته الحصوات في قرعة التاريخ أنّه بلغ سنّه العشرين. عادَ الجوّ إلى البرودة ثانية، ولاح الكريسماس ثانية في الجوّ" وأحسّ ياسين ببردٍ خفيف، لم يكن يحسّ فيه قبل قراءته، ولكنّه أيضًا أحس بالسنوات العشرين، وفكّر: لا بدّ أن أبي ترك وراءه شيئًا مكتوبًا، ولا بدّ أن هناك شيئًا ما في أوراق جدّي.

***

في نيسان تخرج النساء بحثًا عن الخبّازى والجنّيبرة والدُّردار، ويكثر الفول الأخضر في الأسواق، وتمتلئ ضروع الماشية بالحليب، وتمخض العجائز اللبن في الأصابيح المنعشة، وفي نيسان ينقطع طلاب التاسع والبكالوريا عن المدارس، فيخرجون إلى الدروب يقرؤون في كتبٍ مليئة بالتعليقات والشروح، تراقبهم عيون الأهل القلقة. ولم يتسنّ لياسين أن يزور الصفرة في العطلة، فقد غاب أكثر من مرّة عن دوامه، ولم يبق إلّا القليل لينتهي العام الدراسي في قريته النائية، وانشغلت حسنة أيضًا عن قلقها بمتاعب "الخضرة" التي شغلت العائلة الفرحة بموسمها، وبابنها الذي سيفرج عنه بعد شهرين، وبالصلح الذي سيمكّنهم من العودة إلى أهلهم و"ناسهم". قرأ ياسين "الجذور" وكان يحسّ بالذنب أنّ هذا الوقت مستقطع من وقت دراسته، وأنّ الناس لا يرحمون الراسب، حتّى وإن كان في الجامعة، ولكنّ المخرز الذي وخزه به إسماعيل البيطار، ظلّ يؤلمه، وتساءل: ماذا لو كان أبي من أصل وضيع؟ ماذا لو هرب من قريته من أجل قضيّة شرف، أو قضية ثأر؟ وإن كان

هذا حقًّا، فهل سيجد طالبو دمه ثأرهم في ابنه الذي جاء يبحث عنه؟ وأين قريته الآن في دائرة جغرافية ملتهبة بالنار منذ عامين؟ كيف يمكنني أن أزور إدلب في مثل هذا الوقت؟ وعاد ياسين إلى كتب العقوبات والقوانين والتشريعات لتُسكت الأسئلة الغشيمة.

***

في الصباح الباكر، جاء الحاج عبد اللطيف.. دخل الحوش، ووقف أمام البيت، صاح:

- يا عراااب گاعدين؟

- تفضّل تفضّل. قال أبو دحّام الملتفّ بفروته، وقام دحّام المتأنّق مرحّبًا

- حيّ الله بالحجّي.

- ول يابا هذا ياسين صار لو جمعتين ما جا، خاف الولد بي شي.

- ياسين زْلمة، ولسّعكم خايفين عليه؟

- ما لو بالعادة يغيب أسبوعين، والله خايفين عليه، من روحتو التاليّة ع الدير والولد ما هو عاجبني.

- خاف خوالو لعبم بعگلو؟ قال أبو دحّام، وأردف ابنه المتأهّب للخروج:

- يا حجي اني شايف ياسين اغلى من ولدك!

- ياسين ابني يا دحّام.

- استهدي بالله يا حجّي.. عندي ورديّة أربعةْ يّام، وبعدين أتعنّى لو.

- يا حجّي تعال أكعد. عدنا خاثرادن طيبات، وبنت اخوك جاعد تخبز.

- عجل خلّيها تسوّي لْنا تالي.

- آني ما اگدر استنّى.. رايح اشغّل الماتور للجماعة، لازم نسگي الخضرة.

- الله يستر وما ترخص الخضرة على سعدك.

- الأمل بالله يا حجّي.

وحين جاءت صبحة بالخبز لمحت دحّام خارجًا، فأصابتها نوبة الغيرة المتجدّدة، ودخلت ولم تسلّم، وعاتبها عمّها:

- عجل ما انتي شايفة عمّج الحجّي.

فارتبكت صبحة، وسلّمت معتذرةً، ولكنها لم تستطع مغالبة نوبة البكاء التي شرحت كلّ شيء.

"يا زارع البزرنكوش* ازرع لنا حنّة

وجمالنا لـ غرّبن* ع الشام ما جنّا"

(٢٩)

- احزر مين عدنا؟

- مين؟

- لا .. احزر.

وتقدّم ياسين قليلًا، واشرأبّ فوق كتف أمّه لعلّه يرى الضيف، ولكنّ أمّه منعته مازحةً، فتطاول أكثر حتى لمح كرة رأس الضيف محفوفةً بشعرٍ مفلفل قصير، فصرخ فرحًا:

- جاسـ ي ي ي ي ـم.

وعانق ياسين ضيفه ملهوفًا.

- وينك يا رجل؟ الحمد لله اني شفتك.

لم يكن جاسم المصطفى صديقًا وحسب، عرفه ياسين أيّام الطفولة، بل يمكن القول إنّه النصف الثاني من حكاية ياسين، حكاية التشرّد واليتم. لم يكن جاسم يتيمًا بالمعنى الذي عاناه ياسين، بل إنّ أبويه كانا وما زالا على قيد الحياة، ولكنّهما افترقا مبكّرًا، مخلّفين طفلًا، ثمّ تزوّج الأبوان المطلّقان، وكوّن كلّ منهما عائلة، واحتضنت جاسم عائلة ثالثة.

***

كان هذا أيّام الوحدة بالـ ٥٩ بالـ٦٠ تقريبًا، حين أحبّ علي المحسن فتاة من قرية الهازع، في موسم ربيع تجاور محسن العلّاص ونهار المصيطف، وتخالطا، بقيا شهرًا معًا، يتناوبان الرعي، ويتقارضان الحليب، وبدت الألفة بين العائلتين كبيرة، إلى أن تقدّم محسن لخطبة ابنة نهار لابنه عليّ، مقترحًا أن يتبادلا، وكان لمحسن فتاة في الرابعة عشرة في عمر ابنه مصطفى. حين عادا إلى قريتيهما تمّ الاتفاق: زيجتان، من دون مهر، وكلّ يجهز لابنته بالتساوي.

في اليوم الثاني نزلا إلى السوق، وحضّرا قماشًا وذهبًا وصندوقين متشابهين. وبين الصفرة والهازع التقى "الزفّافة" القادمون من القريتين، وعاد كلّ منهما بعروسه.

ولم يكن في زواج علي ومهيّة مشكلة. كانت البنت في الثامنة عشرة، تصغر عليًّا بسنتين تقريبًا، وقد ألفا معًّا حياة المسؤولية، والعمل في رعاية الدوابّ، ولكنّ المشكلة كانت في العروسين الصغيرين.

لم تكن جازية المحسن قد غسلت صحنًا، أو خبزت رغيفًا: كانت طفلةً بمعنى ما، تركض إلى عربات "البيابيع الدوّاجين" كلّما أتوا القرية، حاملةً عذق صوف، أو بضع بيضات، لتشتري علك البطم أو الكعك الأحمر. ولم يكن عودها الفارع يخدع أهلها. ولكنّهم توسّموا في عائلة نهار المصيطف المكان الدافئ لابنتهم المدلّلة. ولم تكن عائلة نهار إلّا عند حسن الظنّ، ولكن مصطفى النهار الابن النزق وقد فوجئ بتبعات الزواج قرّر في الشهر الثاني أن "يعيف".

لم يتلقّ مصطفى أيّ تعليم، ولم تكن المدارس منتشرة عندما كان في السادسة، ولكنّه درس عند الشيخ، بقي في حلقات التعليم نحو شهر، لم يتعلّم شيئًا يذكر، وحين وصل زملاؤه إلى أوّل جزء عمّ، كان مصطفى ما زال لا يفرّق بين الباء والتاء، فأخرجه أبوه من حلقات الدرس واستبقاه في البيت يشاركه الرعي، ولكنّ مصطفى كبير الأولاد على رأس ثلاث بنات لم يبدِ أيّ اهتمامٍ بالماشية، ولم تكن له ميزة سوى

أنه الولد الذكر الوحيد لعائلة من البنات اللاتي صرن أربعًا، وبعد سنتين صرن خمسًا. وكلّما جاءت بنت أخرى كان مصطفى يكسب نقاطًا جديدة، باهتمام أخواته به، محتملاتٍ سخط الأبوين، وإهاناتهما، ودلال الأخ الأكبر.

في ذلك الربيع، آنس مصطفى حياة جديدة خارج إطار "أخو البنات" والقرية والأتراب الذين يعيّرونه، في عائلة جديدة تحترمه على الأقلّ، كونه مصطفى وحسب، ولم تكن أيّام الربيع القصيرة الخدّاعة قادرة على كشف "طينة" مصطفى التي ساهمت فيها الثقافة الذكورية الطاغية في مجتمع قبليّ صرف. ولم يكن ابن الخامسة عشرة ليرفض الزواج من فتاة في ميعة الصبا، ولكنّ "جيزات الگيظ تعاليل الشتا"، فلم تكن جازية تشبه واحدةً من أخواته اللاتي يتسابقن إلى خدمته بمحبة وخوف. ولم تكن ليّنة العريكة تسكت على إهانة، أو لطمة، أو شدّ شعر، بل كانت تُبادِل جاسمًا الفعل نفسه، فإن لم تستطع فإنّها كانت تشتمه. بعد أسبوعين "حردت" جازية، فغضب آل المحسن، وطردت العجوز بديلتها على الفور.

- تضربون بنتنا؟ يالله على اهلج.. ما تشوفج عيني.

بعد عشرة أيّام جاء المرضّون، وعادت البديلتان إلى مواقع الزوجيّة الجديدة، ولم يكد مصطفى يقضي أسبوعًا، حتى اختلفا من جديد.

- گومي افرشي مع البنيّات.

- ما اگدر اشيل الفراش.

- خلاص يا مصطفى، احنا نفرش.

- لا والله.. ألّا هيّ.

- لا والله .. ماني گايمة.

ولم تدرِ جازية كيف جاءت الصفعة، فحاولت أن تصفعه، لكنّ صفعتها جاءت في يده، وتدخّلت العائلة الصغيرة في فضّ اشتباك المراهقين الصغيرين، وبكت جازية وحلفت ألّا تبقى في بيتهم لحظة واحدة.

كان الوقت ليلًا، حين قرّرت الهروب، وعندما تخطّت حوش الجيران نبحت عليها الكلاب فصرخت من الفزع، وهربت، فرأت عمّها والد زوجها مصطفى وهو عائدٌ من "التعليلة" وقرّر أن يأخذها بنفسه إلى أهلها خوفًا من هروبٍ له عواقبه. في الصباح خرج نهار مع كنّته الغضبانة إلى الصفرة، وفي المساء عاد وابنته البديلة إلى البيت. وحاول المُرَضّون ثانيةً، ونجحوا بعد مفاوضات شاقّة، ولكن سرعان ما اختلفا. وكانت اللكمات هذه المرّة أشدّ وطأة وأوضح أثرًا، وبدا للجميع أنّ زواج جازية ومصطفى لن يكتب له الاستمرار.

حين جلس الفريقان للـ"مخالصة" ناشدهما العقلاء ألّا يفسدوا الزيجة الناجحة، مادام علي ومهيّة متّفقَيْن، فوافق الفريقان على مضض. بعد أسبوع أخبرت عائلة المحسن عائلة النهار أنّ جازية حامل، ففرحت العائلة قليلًا، واقترحوا أن يعود الزوجان إلى سابق عهدهما لكنّ جازية رفضت، وتحسّست آثار الكدمات على وجهها. وحين أنجبت جاءت عائلة النهار مباركةً ومجدّدة عرضها، لكنّ مصطفى ابن السادسة عشرة كان قد سافر إلى لبنان للعمل، ولم يكن هناك أيّ معنى لعودة الزوجة، ولم يعد لنهار أيّ دور غير منح حفيده اسم جاسم.

بعد ثلاث سنوات، جاء خطّابة من أقارب محسن من الموصل، ظلّوا ثلاثة أيّام، أكلوا وشربوا وغنّوا، ثم عادوا مع جازية في سيارة جديدة بلوحة مكتوب عليها "نينوى"، وبكت جازية فراق البلاد، وفراق ابنها. بعدها بسنة عاد مصطفى من لبنان بشاربين عريضين، وسحنة أكثر سمرةً، وبزوجة فلسطينية شابّة وفي حضنها ولد، ولم تكن المرأة لترفض احتضان ابن زوجها، لولا أنّ مهيّة وعلي اللذين أحسّا بالذنب

أنّ جاسم ثمرة زيجة فاشلة كانت ثمن حبّهما في ذلك الربيع. احتضنت مهيّة النهار ابن أخيها، وصار ابنها، وفضّلته على أولادها كثيرًا، وفي السادسة وجد في ياسين أخًا وصديقًا، ورفيقًا نحو الخربة ليشتريا معًا من دكّان عمّه.

***

- حيّ الله.. وين ها الغيبة يا رجل؟

- كلّها سنتين.. سويتها قصّة؟

- اي يا عمّي الكويت غير شي.

- الله لا يشوفك الغربة... الـ يدري يدري.

كان جاسم قد افترق وياسين منذ أن تركا مدرسة القرية، حين غادر جاسم إلى بيت جدّه نهار، وأكمل الإعدادية في مركز الناحية، ثمّ التحق بالثانوية الصناعية في الحسكة. حين جاءت أمّه آخر مرّة وذلك قبل أن تغلق الحدود بين سوريّة والعراق، ذكرت له بعض أقارب زوجها الجديد الذين غادروا إلى الكويت، وأنّ في استطاعتهم مساعدته في إرسال "فيزا" باسمه تطلب استقدامه هناك. قبل صيفين كان جاسم ظفر بالثانوية الصناعية، وطار إلى تلك البلاد البعيدة، بفيزا اشتراها بمبلغ كبير دفعه له أبوه.

- وين الفطور خالة؟ ترى اني جعت.

- يخسا الجوع.. جاعد نستنّى التالي.. اليوم جايتنا طعمة لبن وزبدة.

- منين؟

- من المنصور.. وجانا خيار؟

- منين؟

- من فلاليح دحّام -وابتسمت أمّ ياسين- من الفوّاز

وارتبك ياسين، وانتبه جاسم إلى صديقه الذي ابتسم ابتسامة عريضة.

- ما زال جاسم هين، خلّينا نروح نخطب لك اليوم.

وضحك جاسم ضحكة غريبة، قدّر ياسين أنّ جاسمًا اكتسبها في غربته

- لو انّي أعرف أهلها چان هلهلت.

(٣٠)

- اليوم نهائي أبطال أوروبّا.. ليفربول وريال مدريد

- لسّعك متابع الرياضة؟

- ما تركتها، وأشار بيده إلى جريدة الموقف الرياضي، المطويّة فوق أرضيّة الشبّاك.

يستثمر أهل القرى النوافذ في بيوتهم الطينيّة ذات اللّبِن العريض، فيطلون أرضيتها بالإسمنت ويجعلون منها عتبة صغيرة لغسيل الأيدي بعد الطعام، أو مستودعًا صغيرًا، لوضع إبريق الشاي وصينيّة الكاسات.

- البارحة مرّيت ع المكتبة واشتريت الموقف الرياضي.

- آني شايفك مسوّي مكتبة ما شاء الله.

- شويّة كتب مع كتب الجامعة.. وقام ياسين إلى النافذة مكتبته الصغيرة، وجلبها في دفعتين بين يدي صديقه جاسم، فتصفّحها جاسم باهتمام، وقرأ عناوين لكتبٍ في القانون ذات طبعات متقشّفة، وبإخراجٍ، واحد تحمل شعار الجامعة، وأخرى ملوّنة تحمل أسماء غريبة (أحدب نوتردام- الكونت دي مونت كريستو) وأخرى بعناوين عربيّة (أحاديث في آسيا لمحمد حسنين هيكل- المذنبون لفارس زرزور- الشمس في يوم غائم لحنّا مينة، قلوب على الأسلاك لعبد السلام العجيلي، والمعلقات السبع) وأعداد من مجلّة العربي والمعرفة، وكتاب ضخم يحمل عنوان الجذور.

- وكلّ هذي الكتب گريتها؟

- لا طبعًا.. لكن تصفّحتها على الأقلّ.. لا تنس ربعكم بالكويت عندهم أكثر من مجلة أو كتاب في الشهر: العربي، المسرح العالمي، عالم المعرفة.

- أعرف بسّ مجلة العربي، مرّات أشتريها.. بس اتركنا من الثقافة، شو قصتك مع حسنة؟

- والله ما عرف يا جاسم، شي مثل النّفَس، يخنگني إذا راح، ويحييني إذا حضر.

- اوووف لـ هالدرجة؟

- أي والله..

- عجل يا خوي تعال.. يا الله يالله.. نلحّگ نخطبها لك، اليوم قبل باچر

- اي عفيه يا ابني..

- طيب خلّيني أروح أكمل واجباتي وأمرّ على خوالي، والمسا نزور أهل الأوكسجين.

وضحكا معًا، ولم تفهم العجوز ما أضحك الشابّان من هذه الكلمة الغريبة، ولكنّها تخصّ حسنة، فضحكت معهما.

- خاف نضيّع المباراة؟ خلّينا نأجّلها لـ باچر

- لا لا لا باچر اني رايح لاهلي.. جدّي مرضان ولازم اخذو ع الدكتور.

- سلامتو والله.

- ما يستاهل الزلمة الزين... شبي جدّك خيي؟

- ضغط.. ضغطو جاعد يطلع.

- ما چنا نعرف هذي الأمراض.. گرّب خراب الدنيا.

ولم يعلّق أحد، واستأذن جاسم، وبقي ياسين يلملم كتبه، ويضع كتبه الجامعية جانبًا كي ينطلق بعد يومين إلى حلب لاختبارات الفصل الثاني، بعدما حصل على دفعةٍ من راتبه وكيلًا عامًا دراسيًّا كاملًا، وتذكّر اليوم الأخير حين ودّعه أهل القرية بهدايا المعلمين التقليدية في الأرياف آخر العام "جزّة الصوف" فقد عاد ياسين بشلّ فيه نحو ثلاثين جزّة، فرحت بها أمّ ياسين، وغسلتها ونفشتها، وهي الآن تصنع فراش عرسه كما قرّرت، بعدما جلب لها ياسين "الشلت" و"الوجه" أمس، من المدينة مع جريدته التي ألفتها، وقد ألفت صور شباب يركضون وراء كرة في ورقاتها السمراء.

كان فواز المحسن ينظر إلى حواصيد العدس بقليل من القلق، فبعد أيّام ينتهي الحصاد، ويبدأ الرجاد، وتهرع أغنام القرية إلى أراضي الفراز الجديدة، ولا بدّ من حراسة خضرته من سفاهة بعض الرعاة أو غفلتهم، وقد تحدث مشاجرة تنتهي إلى إشهار السلاح.. وأكمل فوّاز السيناريو المتشائم، وهو يتابع الحواصيد ينشدون أناشيد الحصاد:

" والطارود شـ ودّك منّو

عينك ع الحارج بالتالي

عينك ع الـ مثلي وامثالي..."

وتجهّم فواز، وقال باقتضاب:

- عويذ الله من شرهم.

- شبيك فوّاز؟ عسى ما شرّ.

- خايف بعد الحصاد والرجاد، من جيّة الرعيان، وخايف يهدّون بالخضرة.. تعب شهرين، يروح ع الفاضي.

- توكّل بالله يا رجّال، أهل الرزق ما راح يتركونو.

وهدأ فوّاز قليلًا، وتناقشت العائلة في أسعار الخيار البارحة واليوم، وفرحوا بالمبلغ الذي دُوِّن في السطر الأخير من فاتورة الدلّال، وتمنّت العجوز أن تظلّ الأسعار هكذا أسبوعًا آخر.

- شافتني گبل ما أجي أم ياسين، وقالت لي: اليوم جايين نتعلّل عندْكم.

وانقبضت حسنة، واحمرّ وجهها، ونظرت إلى الأرض، والتفتت إليها أمّها، وخمّنت سبب التعليلة، فعبست، ونظرت إلى الحواصيد، الذين شقّوا وجهًا جديدًا في مساحة العدس الواقف، في فريقين متقابلين ينشدن بحماسة: ***"لا تذلّون احنا نعاونكم، شايبنا يطگع شايبكم"*** وكتمت ابتسامة عابرة، وقالت:

- عويذ الله من شرّهم.

ولم يعلّق فوّاز، وأحسّت حسنة بجواب أمّها، وأدركت أنّ زيارة المرأة الغريبة بعد عودتهم من الدير قد آتت أكلها، بعدما نفضت أمامها سيرة ياسين، من زيجة أبوين مهمّشين، إلى تبنّي عائلة العبد اللطيف للولد الرضيع، إلى مستقبل غامض، فقد أرضعته أمّهات القرية بطلب من الآباء، خوفًا من إحراج في المستقبل بزواج ياسين ذي الأصل الغامض من بنات العشيرة، وابتلعت العجوز الغريبة الطعم الذي دبّرته سعدة المحمد التي أرادته لابنتها، زواجًا مريحًا ومكانًا دافئًا لابنتها عليا، وفشلت عندما عرضت الأمر على أمّ ياسين، لكنّها صدّتها بقسوة وجفاء.

- ياسين وينو .. ووين الجيزة؟ لسّع وراه حصبة وجدري.. دراستو صعبة.. الله واعلم أيمتى يخلّص.

وجدت المرأة في "هروش" الخيار بعض الثمار الصغيرة التي لم يروِها جيدًا في الغبشة، ولكنها تركتها، لتزيد من كميّة الخضار في "حوشة" الغد، وفكّرت فيما ستقوله هذا المساء، وسمعت فواز يشجّعها على قول شيء، بعدما طال سكوتها.

- طِيب ها الجماعة ما نلحگ لهم على جزا

- اي والله.. بس تا نعرف شـ يريدون؟

- انتِ تعرفين.. وبنتچ تعرف.

- الله يبعث الـ بي الـ خير.

وحار الرجل في أمره، وقد تبدّلت سحنة زوجه التي كانت متفائلة بأسعار الخضرة العالية. ونفض يديه في نزق، ونظر إلى شتلات البندورة وقد كبرت قليلًا، فنادى ابنه:

- فياض.. جيب البغَلة تا نشدّها ع الفدّان، لازم نحرّك ظهور البرانات فوگ البندورة.

وانطلق فيّاض نحو البغلة الراتعة تقضم عشبًا في حوش البيت، وتفرّق شمل العائلة السعيدة، ومن بعيد بدا دحّام على ظهر "الموتور".

***

- احنا جايين نخطب حسنة لياسين على سنة الله ورسولو.. جايين نربّط كلام، گبل ما تجي الجاهة.

- الله محيّيكم من هين لهناك.. والله ياسين ابنّا. ولم يكمل فوّاز، خشية أن تعارض زوجته، وقد توجّس من ذلك في الصباح، فترك الجواب مفتوحًا لأكثر من احتمال، وبدا الكلام مريحًا لياسين، لولا استقبال حسنة المرتبك.

- الولد بعد يومين رايح ع الجامعة، عندو فحص، وعلى ما يجي نكون جهّزنا.

- على مهلچ يا خيتي.. لسّع ما گلنا موافقين.

- موافقين؟

وضربت أمّ ياسين كفًّا بكفّ.

- اي يا خيتي.. عجل الشغلة هيچذ.. انتم غبّيتم عنّا أصل ياسين... ياسين ما هو ابنكم.

- ما هو ابنّا؟

- اي ما هو ابنكم.. الحگّ ما يزعّل.

وساد صمتٌ غريب وثقيل، ومضى الوقت بطيئًا، وبحث فوّاز عن كلمة ليقولها، بحث طويلًا، فكّر في البداية أن يقوم إلى زوجته فيصفعها، ولكنّه تردّد، وفكّر أن يشتمها ويشتم أهلها جميعًا.. وما طاوعه لسانه.

- شا الحچي هذا يا مرة.. أعوذ بالله منچن.. أعوذ بالله.. ياسين النشمي أخير من كلّ عريچ.

- هذي بنتنا.. وين نرميها؟ خلّي يجيب عمامو يخطبو لو.

نهض ياسين وتبعه جاسم، ولحقتهما أم ياسين لا تستقرّ على حال، وعندما أدركت أم حسنة أنّهم وصلوا باب الحوش، أطلقت رصاصة الرحمة.

- اي والله، واحد ما نعرف گرعة أبوه منين.. نعطيه بنتنا؟.

(٣١)

حين مشى ياسين أحسّ بقوّة غريبة تدفعه، لم يكن الطريق طريقًا، ولا الخطوات خطوات، وكأنّه يندفع بـ"بسكليته" القديم من أعلى التلّة، هناك حين ينزلون بدرّاجاتهم بين الصفرة والخربة، وعبثًا حاول جاسم اللحاق به، لولا أن ناداه راجيًا الإبطاء رحمة بالعجوز أمّ ياسين، ولم يكن السامر قد انعقد أصلًا؛ فثمّة شباب يسهرون في بيت دحّام لرؤية المباراة، وهناك شباب مراهقون من طلاب التاسع ساهرون يدرسون قبل الامتحان. بالأمس كان امتحان الاجتماعيات السهل الذي تبدأ به الاختبارات، ليشجّع الطلاب على إكمال الاختبار في أمل. غير أنّ ياسين سقط اليوم في الاختبار، ولكن "قرعة أبيه" معروفة، الأستاذ عبد العليم ياسين على سنّ ورمح، المعلّم المهيوب المحبوب، هكذا كانوا يقولون. نعم، سمع الكلمة مرّتين، مرّة في مشاجرة حين كان في الثانية عشرة، وقد غلب مهيدي في الشجار، وأوسعه ضربًا، وجاءت أمّ الفتى غاضبة، وصرخت أمام الحوش بعبارة تشبه هذه العبارة، وتعرّضت على الفور لهجوم من الحاضرين، ولم تكن حساسية ياسين يومها ولا فهمه يُحدثان مثل هذا الأثر، فنسي الموضوع، حتى إنّه لم يسأل عن معنى "قرعة الأب". بعد ذلك بثلاث سنوات وفي مثل هذه الأيّام كان في الصفّ التاسع، وقد نجح بمجموع جيّد ١٩٢ درجة، وسمع من أحد الشيّاب يلوم أولاد القرية، أنّ هذا الولد الذي لا يعرفون "قرعة أبوه" تفوّق ونجح، وهم رسبوا، ويومها أيضًا ردّ الحاج عبد اللطيف بعنف، واتّهم العجوز بالخرف والحقد والحسد، ولعلّ قسوة الردّ خفّفت من طعم المرارة في فم ياسين. فيما بعد سمع ياسين العبارة غير مرّة في سياقات قبلية، فكانت شوكة تخز المكان الذي شتمته منه العجوز، فيتذكرها تمامًا تمسك يد ابنها المدلّل، وكلّما رأى الأطفال الصغار يحلقون على الصفر تذكّر القرعة

المجهولة التي اسمها عبد العليم ياسين، ولكنّ طعم المرارة اليوم كان مركّزًا، سقته إياها بمهارة فائقة تلك المرأة، حتّى إنّها لم تترك مجالًا للردّ، وأحسّ لوهلة وهم يمشون أنّ من حسنات هذه الشتيمة أنّها أنسته صفعة الرفض الخفيفة اللطيفة، وحاول أن يبتسم، ولكنّه التفت إلى جاسم:

- اليوم تشوف معاي المباراة؟

- طبعًا طبعًا

ولم يكن جاسم يتوقّع مثل هذا الطلب، وكانوا قد وصلوا البيت، وكرّرت أمّ ياسين من جاسم طلب ابنها بنبرة تمنٍّ مؤسية:

- اليوم ما ندشّرك.. غلّگ الليل، نام عدنا وباچر من الصبح تروح على اهلك.

- ان شالله يا خالة، احنا اليوم ضيوف ياسين.

وابتسم ياسين، مداريًّا، براكين صغيرة تعبث في صدره، وتحرق وجوهًا، وأمنيات.

- شـ رايك نطالع التلفزيون برّه.

- لسّع الدنيا ربيع..

- حاسّ حالي مشوّب

وأدرك جاسم أن ذلك سيخفّف من غضب ياسين المكتوم، فاستجاب لاقتراحه.

- طيب على كيفك.. خلّيني أساعدك.

نقل الشّابّان التلفزيون، ووصل ياسين "كبل الأنتين" الأبيض بالتلفزيون، وجاء بشريط كهرباء طويل، ونظر جاسم إلى مشطي الألمنيوم المتعامدين فوق، وسأل ياسين.

- المباراة منقولة على سوريا ألا العراق؟

- أظنّ ع الاثنين، بس ع العراق خاف يگطعون البث ويطلع بيان عسكري.

- ايييييييه ذكرتني. احنا بالكويت عايشين الحرب مثلكم.. يوم بيوم.

- يمّااااا جوعانين.

- يخسا الجوع.. عفية ابني، ايه الحز أجيب لكم الأچل.

ولم يكن ياسين جائعًا، ولا متلهّفًا لرؤية المباراة، ولكنّه أراد أن يوهم أمّه وجاسم أنّه بخير، ثمّ إن طعم المرارة المركّز في فمه بدأ يتلاشى.

***

- الله يسوّد وجهچ.. سوّدت وجوهنا، وين اودّي وجهي من الناس، ياسين راد يروح بيها وينچتل كرمى لابنّا، والجماعة ما گصّرم معانا، أبوه شايب عمرو مية سنة، وجانا، وعزمنا، وأرسل ياسين، ولو ما الحجّي ما تصالحنا مع گرايبنا.

- الـ يدري يدري.

- شعندچ يا مرة... گولي.

- ش ا گول.. ش ا گول.. كلام ما ينگال.

- انا ابوك يا عناد.. گولي.. ألّا والله العظيم أدجّج ع الجبلة وأذبحچ ذبحية النعجة.

- ياسين مو مخلّي.. يسولف للنّاس كلها أنّو عشگان البنيّة، وانّو يريد يتجوّزها تا يستر عليها.

- انا اخو امّي.

وركض فوّاز إلى مسدسه، وخرج من دون أن يلبس حذاءه، وصرخت المرأة الحكوني.. راح نضيّع الزلمة، واجتمع حوله الأولاد، وحاولوا أن يمنعوه ولكن عبثًا، ولكنّ جيرانهم في الحقل المجاور فزعوا، وأمسكوا بالرجل.

***

لم يكن ياسين يشاهد المباراة، قمصان بيضاء وحمراء تتبادل كرة، في ملعب مسوّر بدعايات كاميرا الـ canon وأجهزة الـ JVC وشفرات الحلاقة.

- والله الريال مو سهل.

ولم يردّ ياسين، فأدرك جاسم أن صديقه يجترّ حديث المساء، فسكت قليلًا، ولكنّه قرّر أن يشاغله.

- شفت فريق الكويت العام الماضي؟ بأولمبياد موسكو.

- هاااا؟

- فريق الكويت، شفت هدف جاسم يعگوب على الاتحاد السوفياتي؟

- ايي.

-ياسين؟؟ تراني أگوم أروح هاا. شبيك.

- يا رجل والله شفت الهدف، هدف حلو.

كانت الكاميرا تمرّ بأقدام وجماهير ووجوه وإعلانات، ولم تعد الكرة تعني أيّ شيء.. شتيلكة.. ديل بوسكي.. دالغليش.. جماهير حمراء وبيضاء تتناوب الصراخ والفرح والهتاف، ولكنّ النمل يأكل جسد ياسين، نمل صغير، لا سبيل إلى قتله، يسعى في صدره، وفي جلده، ورمى ياسين قميصه الذي كان يلبسه، لعلّ النمل ينام، وقال لجاسم:

- جافرك تدخّن.

- إي إبشر.. بس يجي الچاي

- هسّع سكارة ومع الچاي سكارة.

- على عيني.

ومدّ يده إلى علبة "الكنت" وحاول ياسين أن يداري صدمته مرّة أخرى، فيمازح على صديقه.

- طبعًا يا عمّ صاير خليجي وما تشرب ألّا الكنت.. نسيت الحمراء، والشرق؟ تتذكّر لما شربنا "ناعورة"؟

- ههههههه اشتريناها بـ ٦ فرنكات، وغبّيناها، وشربناها لمّا خذينا الدواب نسرح، وربّك ستر لمّا زرزورة السكارة علقت بثوبي. وومضت صورة الحادثة التي مرّ عليها عشر سنوات أمام ياسين وكأنها الآن.

- هههههه.. كأنّو الجوّ بارد.

- غووووووووول يا رجل ضيّعت علينا الهدف.

- أي والله.. شوف الإنكليز عنيدين.. شوف الدفاع شلون تقدّم وشاط.

- أي والله، وبالدقائق الأخيرة، صعب التعويض.

وأحسّ ياسين أن النمل فعلًا توقّف، وتاهت عيناه في الشاشة بين الوجوه والإعلانات وصخب الجمهور الإنكليزي. حمل دالغليش ورفاقه كأسًا فضيّة بيضويّة، بأذنين كبيرتين، وأحسّ بأنّ شيئًا ما يلتهم النمل، شيئًا يشبه غيمة كبيرة.

- كأنّو بي صوت جاي من مغرّب.

- تلگاهم الشباب بعد المباراة

- لا لا

- صوت نسوان وزلم.

- الله يستر؟

ومن بعيد كان صوت فواز المشعل يقترب، والنساء تصرخ، ولم يكن في مقدور الرجال الحجر عليه، أو حبسه في البيت، وكان اقتراح علي الفاضل أن يواجهوا ياسين بالتهمة، ولكنّهم خافوا من ساعة الغضب، ولم يجدوا أفضل من التوجّه إلى "أبو دحّام"، وهناك اندغم صوت عائلة فوّاز بأصوات الشباب الساهرين، ولم يطل الأمر بأبو دحّام حتى وجد الخيط.

لم يكن ذلك من عادة أبو دحّام في شؤون بيته، ولكنّه عندما يكون حكمًا بين اثنين، يتروّى قليلًا، ويبحث في خبايا الأمور. ولم يكن العجوز قد خبر عن ياسين التهمة التي ألصقت به في هذه الليلة، وكاد يقول للرجل أن يصبر حتّى الغد، ولكن ما أدراه ما يفعل "الدّم الفاير" برجلٍ وجد نفسه فجأة لاجئًا بسبب حادثة مجانية. إنّه الآن ينساق وراء عاطفته وحسب، وكيف لهذه المرأة أن تتصرّف هكذا بـ "غشَام" دون أن تحسب حساب ردّة فعل زوجها.

- انت سمعت كلمتين وصدّگت يا بو عناد؟ وين عگلك.. وانت چبير ربعك؟ ياسين ابنّا.. ابن الصفرة كلّها، وما يوم طلعت منّو العيبة.. والله آني اگلّك، لو گلت لي دحّام، اگول يمچن، بس ياسين.. لأ

وغصّ دحّام بريقه، وقد نال منه أبوه أمام فلّاحيه، وسكت على مضض.

- والله يا حجّي.. كل شي يمشي على رجليه.. ما ينحلف عليه.

- يا أبو عناد.. سالفة بالعگل.. الشابّ ما شاف البنت ألّا لمّا سافر مع أهلك؟ يوم واحد.. وبعدين انصاب، وراد ينچتل، وبعدها من الدير على مدرستو.. يا حجّي وين عگلك.. وانتِ يا أمّ عناد منين جبت السالفة... مين خبّرچ؟

- سعدة المحمّد.

- ايوااااااااااااااااااااه .. لگيناها يا أبو عناد

- ما فهمت.

ونظر أبو دحّام حوله ليتأكّد أن الشباب الذين كانوا يشاهدون المباراة قد انفضّوا فعلًا، ثم قال همسًا: سعدة چانت رايدة ياسين لبنتها عطنة.

أحسّ فوّاز بوهن في كتفيه، وبالشوك في قدميه الحافيتين، وأطرق قليلًا، وقال لدحّام: اعطيني سيكارة.

- روح على بيتك، والصباح رباح.. نجيب ياسين وسعدة المحمد جدّامك.. تا تعرف أصل السالفة.

ولم يقل فوّاز شيئًا، وفكّر كيف يعود إلى بيته حافيًا، ولكّنه قام متثاقلًا، وصرخت امرأة في الجوار.

- يبوووووووووووووووه

فوقفوا جميعًا يسألون عن الخبر.

- جيبوا لو بيكام المحسن.

- يا ولم شبي؟

- ياسين.. ياسين.. ما نعرف شـ صار لو.. يمچنّو مات.

"مريش مريش ما انتِ من عربنا

يلعن أبوچ خرّبتِ ولدنا"

(٣٢)

- خير يا دكتور!

- الحمد لله نفد منها، بس لازم يرتاح.

- الحمد لله، الله يجازي الـ كان السبب.

- توكّلي بالله يا حجّة

قال جاسم، الذي شكر الطبيب، وهدّأ من روع العجوز، وأمام المستشفى الخاص، كان الرجال قبالة البيك آب الذي جاؤوا به، بين جالسين وواقفين ينتظرون أن يصحو ياسين، بعدما اطمأنّوا أنّه استفاق من غيبوبته، وشرب ماء، ثمّ نام، وقالت البنت الصغرى لأمّ ياسين.

- مالك شنص بالدنيا يا ياسين. ونظرت إلى فواز المشعل نظرة ذات معنى، وأكملت:

- مصخّم يا خوي.

وأطرق فواز من جديد، ولعن في سرّه ابنه الذي حمل مسدسًا في عرس كي يقتل ويرحّل أهله، وزوجته التي عيّرت ياسين ردًا على نميمة، وسعدة المحمد التي أشعلت كلّ هذه النار، وعزم على الرحيل فور سلامة ياسين، ولكنّ ذلك سيُعدّ تخلّيًا عن الموسم، وضياع رزق عائلتين كلّفهم كثيرًا، ثمّ إنّ مدّة الجلاء لم تنقضِ بعد.. ستكون الشهور المتبقيّة جمرات متوقّدة، سيمشي فوقها كلّما رأى ياسين، أو الحاجّ

عبد اللطيف. "والعمل يا فوّاز؟ يا فينة السعد يا فوّاز.. يا فينة السعد" وأيقظه إبراهيم الشيخ أحمد من تداعياته، حين طلب شايًا من المقهى الملاصق للمستشفى، وقدّم له سيكارة حمراء.

- والله ما لي نفس.

- توكّل بالله.. ان شالله ياسين ما بي شي.

- خلّينا نمشي بالسوگ شوي.

- طيّب اشرب كاستك.

كانت شمس الضحى قد ارتفعت قليلًا، وقد امتلأت الشوارع بطلاّب شباب يمشون قلقين في اتّجاهات مختلفة، شباب وبنات يحملون كتبًا وأوراقًا، بوجوه صفراء يملؤها الخوف، متّجهين نحو مراكز الامتحانات في قلب المدينة وحاراتها المتناثرة. وعلى جوانب الشارع ثمّة عربات صغيرة مكشوفة بثلاث عجلات كبيرة، عرض فوقها باعةٌ جائلون شدّات الحمّص، والعقّابية (اللوز الأخضر)، والخيار، والكوسا، ونظر فوّاز إلى الخيار، فربّما يكون من إنتاج خضرته، وتساءل: كم يصل ثمن خضرته حين تصل إلى الناس؟، وفكّر أن يستأجر دكّانًا في المدينة ويبيع الخضرة، فذلك أفضل له من التعب في قرية بعيدة عرّضته للبهدلة.

- وين بدّك نروح؟

- كان بدّي أروح ع الدلّال؟ ليش ما نروح عند ربعنا بالحارة، نفطر ونرجع، ما زال ياسين طيّب والحمد لله؟

- خاف الجماعة يستعوگونّا.. لا لا.. خلّينا نفطر بالسوق.

- طيب ليش ما ناخذ فطور للربع، ونفطر سوى؟

- خايف حدا يگول كلمة، وتگوم عن الفطور، خلينا نفطر هين، وناخذ لهم فطور.

- مثل ما بدّك.

كان مطعم الگيمر ما يزال يعدّ وجبة المدينة الأشهى، وجد الرجلان طاولة شاغرة أوّل المطعم، فجلسا، منتظرين وجبة المامونية الساخنة في صحنين صغيرين، فوق كلّ صحن قطعة قشطة بيضاء دسمة، تأتي من جنوب المدينة المهتمّ بتربية الجواميس على شاطئ النهر الذي ما زال يعبر المدينة وفير الماء.

لم يكن فوّاز يحبّ المامونيّة، ولكنّه اقتراح إبراهيم الذي عرف طعمه منذ افتتح المطعم قبل سنين، عندما يرافق الشيخ أحمد في رحلاته إلى المدينة أيّام الموسم، أو يحضر لمقابلة مدير المنطقة أو موظفي القضاء الكبار لحلّ مشكلات القبيلة، كانوا يجلسون في مقهى كربيس أكثر الأحيان فيشربون الشاي في كاسات عراقية صغيرة، وقد يفطرون في مطعم الكيمر، أو يغشون مطاعم الكباب، ويعودون آخر اليوم إلى الخربة.

- الحمد لله.. وقام فوّاز ليدفع، فاعترضه إبراهيم.

- شد تسوّي؟ والله ما انت دافع.

- كلّها فطور مامونية، ما هي مستاهلة يا بو أحمد.

- بالحرام ما انت دافع، عليّ الطلاگ ما انت دافع.. انت ضيفنا يا بو عناد... ثم صرخ بالكهل:

- واصل حجّي .. حسابك واصل، هين عندي

واستسلم فواز أمام يمين المختار، فهو يعرف أنّ يمين الطلاق لا يمكن كسره، ولكنه أخفى امتعاضه، في صدّ رغبته بالدفع بهذه القسوة، فمن واجبه، ومن حقّه أيضًا أن يعزم رفيق السفر والطريق. حمل إبراهيم كيسًا يحمل صحون كرتون موضّبة، تحمل المامونيّة بالكيمر، وعادا نحو المستشفى، وبدأ الطلاب يخرجون من المدارس نحو شوارع المدينة، وقد ذهب ما بهم من قلق، وتقافز بعضهم في الشوارع، وأقبل آخرون على عربات العقابيّة والحمّص، يحمل بعضهم ورقة الأسئلة، يتبادلون سؤالًا يتكرّر: شـ لون الاختبار اليوم؟

***

كانت نسمات شمالية خفيفة، قلّبت هروش الخيار، رفعت منسوب القلق في صدري المرأتين الواقفتين بين الشتول، لا يعرفن ما يصنعن، لم تكلّم أمّ حسنة ابنتها في شيء، بل لم تنظر إليها، ولم تكن البنت قادرة على اتّخاذ موقفٍ ما، ولم تكن الاثنتان قادرتين على فتح حوار بينهما، وقد صارتا بعيدتين عن سمع الصغار، أو الجيران. وكان في جعبة العجوز أكثر من سؤال مؤجّل عن علاقة البنت بهذا الشابّ المدلّل، وكيف لهذه المرأة الشريرة أن ترمي ابنتها بالـ"شينة" بكلّ هذه السهولة؟ ألأنّهم غرباء؟ وكان في خاطر البنت أن تلوم الأمّ التي صدّقت أن علاقتها بياسين تعدّت حدود العيب والحرام، وهي شاهدة أنّ حواريّاتها مع ياسين لم تتعدّ بضع عبارات مختطفة من جيوب وقت شحيح. ولكنّ ما صار صار.

- شـ نسوّي بالهروش؟ الهوا ما وگف.

- ما اعرف.

وسكتت الأمّ أمام نبرة البنت القاسية، وإجابتها النافية المقتضبة، وفكّرت أن تحتال للأمر، وتُسايِس البنت، التي وافقت أباها في مشاعره الجيّاشة، وقد

استطاعت أن تفسد زواجه من البدويّة حسنة قبل عشرين سنة، وها هي الآن تواجه "حسنة" أخرى من لحمها ودمها، وفكّرت أن تحدثها عن تلك الحادثة القديمة، ولكنّها تراجعت كي لا تبدو مذنبة في قصّة يعرفها الجميع.

- خلّينا نروح نحرّك ع البندورة.

ولم تقل البنت شيئًا، وتوجّهتا نحو خطوط البندورة، وضاعت بين الشتول ضربات فؤوس حادّة، ولكنّ الأمّ أحسّت فجأة بعجز غريب، فرمت الفأس جانبًا، ثم قعدت في الأخدود الطريّ بترابه الناعم، ثمّ بكت.

***

كان أصيلًا مثاليًّا، هدأت النسائم الشماليّة، وتناثرت أغنام القرية في حقول العدس المحصودة، وسرت بين المرأتين أحاديث خفيفة بعدما اطمأنّتا أن الشاب على قيد الحياة، صنعت حسنة غداءً بسيطًا حين طبخت الرزّ باللبن الرائب "الشنينة". حرّكت الشوربة بعض الوقت بالمعصادة، حركّته إلى أن بقبقت حبّات السائل الأبيض، وصار مزيجًا كثيفًا، صبّت حسنة الشوربة في قصعة كبيرة بعيدة القعر، وسألت الأمّ فيّاض: "وال.. ما ظلّ بصل اخَضَرْ؟ روح شوف... ايييه على ايام ما چان بي تمر"

وأقبل فوّاز من بعيد، حاملًا خبز الفرن، وكيسًا فيه قرصٌ من المشبّك، وقبل أن يسلّم سألته الأمّ:

- ها بشّر.

- الحمد لله.. الولد بخير.. ما بي شي.. رجع معانا.

هذه المرّة حسنة هي التي بكت.

- ياسين.. جيت؟ الحمد لله.. ألف الحمد لله.

تقدّم ياسين بخطواته الواهنة نحو الحاج عبد اللطيف، الذي "هبط عن حيله" منذ توفّي المختار الشيخ أحمد، وقد أحسّ بذئبٍ يكمن له وراء التلّ، يراه في مناماته كثيرًا، فيلتهمه مرّة، ويفلت منه مرّة أخرى. ولكنّ حاجة ياسين إليه كما يظنّ هي التي منحته شحنة حيوية جعلته يقاوم الذئب.

- شلونك يا با.. سامحني عذّبتك.

- شـ هالحجي... تعال تعال.

واحتضن العجوز وصرخ باكيًا:

- يا يابا.. يا وليدي..

وانصرف الذئب من أمامه، فأحسّ بنشوة الظفر، ونظر إلى ياسين مبتسمًا:

- شـ صار عليك، كلّ شوي تنطخّ؟

واغتنم جاسم المزاح، فأكمل:

- گوم گوم .. جوّاك زبيب.

وضحك الجميع، حتى ياسين ضحك باستغراق.

"محيّرني ساعات الصبح* شو چنّك مودّعني

وساعات بغياب الشمس* ملهوف ومضيّعني"

(٣٣)

- يا بو أحمد داخلة عليك.

- وصلتِ يا خالة.. وصلتِ

وتقدّمت سعدة المحمد حتى قبّلت كتف إبراهيم الشيخ أحمد، ثم عقدت طرف غترته البيضاء، ثم قعدت قبالته في المضافة وبكت.

- وهاي عجدة محرمتك، وين اروح بحالي؟

- انتِ تعرفين شـ سوّيتِ؟ اتّهمتِ البنت بشرفها، واتّهمتِ ياسين.. ليش يا أمّي ليش؟

- الله يلعن الشيطان يا شيخ.. الله يلعن الشيطان.. هذا الـ صار.

- ان شالله يصير خير.

ومن خارج البيت كان صوت منّاع العلي يصل الأسماع، مهدّدًا متوعّدًا، فقد لحق زوجته إلى بيت الشيخ أحمد، بعدما قيل له إنّها قصدته في هذا الصباح. كان منّاع مُسافرًا ليحصد أرضه التي استأجرها في تلّ ناصر، وقد رأى فيها منّاع خيرًا وبركة، وتحسّنت أحواله، فصار يبحث عن أراضٍ جديدة في قرى أخرى، وقد عادَ بالأمس متعبًا، فاستقبلته زوجته مرتبكة خائفة، فسألها عن السبب، فلم تقل شيئًا. صنعت له الطعام، وقدّمت له الشاي، وحسب. لم تقترب منه، ولم تلاطفه، وكان منّاع متعبًا، فنام مع كأس الشاي الأولى، وحين استيقظ سأل عنها، فلم يجدها، ثم

قفز ابنه الصغير إلى حضنه، فقبله، واحتضنه، ففرح الولد وأخبره ما سمع عن موت ياسين لأنّ "امّي گالت انّو يريد بنيّة اسمها حسنة" ولم يفهم الرجل عبارات الطفل ابن الخامسة، فنادى ابنته العزباء، فحدّثته بالأمر، ولم يطق الرجل صبرًا، فنهض لا يدري ما يفعل، وفي الطريق قالت له عجوز جالسة أمام بيتها إنها شاهدتها تتجه نحو بيت الشيخ.

- الفاعلة التاركة.. وينها؟

- الوجه.. الوجه يا بو سالم.

- هذي فُتَنَت العرب يا شيخ .. روحي وانتِ..

- سايم عليك الله لا تگولها.

- لا حول ولا قوة إلا بالله.

- يا بو سالم.. المرة غلطت، بس الـ بدّك تسويه أبغض الحلال عند الله.

- بس يظلّ حلال.

وانفجرت المرأة بالبكاء، وتدخّلت زوجة إبراهيم وأمّه العجوز، وهدأ منّاع قليلًا، فأجلسه الشيخ إبراهيم إلى جانبه، ثمّ نادى على زوجته أن تحضّر لهم الفطور. كانت الشمس قد ارتفعت بمقدار رمح، وبدأت أسراب الأطفال الذين عطّلوا عطلة الصيف في الانتشار بين البيوت، أو المراعي يسوقون مجموعات صغيرة من الخراف أو الأغنام، ثمّ تجمّعوا في أرض البيادر، وكانت نسمات الربيع نشيطة في ذلك الصباح، وقد لعبت في أوضة الشيخ أحمد مع الستائر لعبة الموج والسفينة.

- ما گلت لي شلون العدس السنة؟

- الحمد لله... الموسم زين، بس السنة تخسّرنا چثير، الحصاد چان غالي.. والرجاد، والمطرة التالية أثّرت ع العدس.

- بلچي التبن يعدّل..

- والله يا شيخ ما هو طمعة.. بس أحسن من اللاش.

- هسّع احنا جدام مشكلة.. سعدة غلطت، ولازم نفكّر شلون نصلح الغلط، وعلينا حگّين، حگّ ضيوفنا الفوّاز، وحگّ ياسين.

- حاضرين للحگّ يا شيخ.

***

- يا اِبني .. والله الوضع مو زين بحلب... ان شالله تعوّضها.. السنة الجاية ان شالله.. عمرك جدّامك.

- ما أگدر يا حجّي.. ربعي صارم جدّامي، وجاعد يستنوني... ولو ما الـ صار چان ألحز آني بحلب.

- ما راح شي ان شالله... أهمّ شي اِنّك تنسى كلّ شي صار.. دراستك وبسّ.

- منهم لله يا بنيّي.. هذول وهذول.

- توكّلي بالله يا يمّة.. هذا الـ كاتبو ربنا.

كانت أمّ ياسين قد جاءت متأخرة تحمل الفطور، وفطور الحجّي الخاصّ، وطلبت من ياسين أن يأتي بالشاي الذي تركته على النار. نظر ياسين إلى ساعته وقد تجاوزت العاشرة والنصف.. خفّت النسائم قليلًا، وكان حنين الشمس لأيّام

الصيف باديًا على الصغار الذين عادوا إلى البيوت، يركضون وراء الظلال التي تصنعها الغيوم البيضاء التي تتجمّع وتتناثر، وتهرول نحو الشرق، فتمرّ تحت الشمس، وتغطّي بظلالها العابرة البيوت والشجر والدوابّ.

- كأنّا بنيسان يا حجّة.. ما شالله ع الجوّ.

- هذا شهر گصيّر يا حجّي يعدّي بساع.

- اييه يا حجّة رجب خلّص.. يا هلا بشْعَبان.

- اي والله زين.. أقدّم الفحص قبل الصيام.

- ول يابا ما صارت الظهر؟

- إن شالله بعد ما نفطر تكون الظهر صارت..

- سوّيت لك زهورات..

- مشتهي عيش اللبن يا أمّ ياسين.

- ان شالله اليوم ع العشا.. أسوّي لك عيش لبن.

لم يكن ياسين راغبًا في الفطور، ولا الشيخ الطاعن، ولكنّهما لم يدّخرا جهدًا في تناول اللبن والجبنة الطريّة التي جاءتهم "طعمة" من حفيده الأكبر الشابّ عبد اللطيف، الذي عَزَل عن أهله منذ سنوات، واستقلّ بأسرةٍ صغيرة، فتخلّى له أبوه عن بيته الصغير جوار الأوضة، وسكن مع عائلته في "راس الگاعة" زارعًا نواةً لحيٍّ صغير، بدأ يمتدّ نحو القرية. شارك عبد اللطيف ياسين في أمر الاهتمام بالشيخين.. وقال الحاج في سرّه: "الفطور المتأخّر نصف غداء" ولم يكن الحاج عبد اللطيف يفضّل الفطور المتأخّر قبل هذا الشتاء، فلمّا توفّي صاحبه الشيخ أحمد

خرجت الدنيا من عينه، وشجّعه برد شباط على هذا الشعور، فخفّت شهية فطور السادسة، الفطور المتزامن مع نشرة أخبار الصباح في لندن، الساعة الرابعة بتوقيت غرينتش، قبل أن يضعف الإرسال في "الضحى العالية"، ويحدث أن يسمع المذيع يردّد بصوتٍ أغنّ أجشّ "قولٌ على قول" والحاجّ يمدّ كأسه الفارغة نحو العجوز يريد الاستزادة من الشاي، أو يسمع عبارة "السياسة بين السائل والمجيب" يسرد نبذةً قصيرة عن زعيم سيّاسيّ أو بلادٍ بعيدة، وهو يقول: "دايمة.. يعطيج العافية يا حجّة... ولكنّي ما تهنّيت بالزاد بعدك يا شيخ احمد". حتّى الملاّ سعيد صديق العمر الطويل لم يعد يزوره مثلما كان يفعل، وحين عاتبه شكا له الملّا من وجع مستجدّ في ظهره، ومزح معه قبل أن يغادر: "صافّين ع الدور يا حجّي"، ولم يكن الشيخ المعمّر محتاجًا إلى مثل هذه العبارة القاسية وإن كانت مزحة ليوقن باقترابه من النهاية، الذئاب ذاتها تطارده في ليالٍ شاتية لم يصل إليها الربيع بعد، ولكنّ ما جرى لياسين طرد الذئاب إلى حين.

- يا عروووووب.. وينكم؟

- هلا بالشيخ إبراهيم. وقام ياسين مرحّبًا ورأى الملّا سعيد معه، فأسرع إليهما مصافحًا وقبّل يد الملّا، ثم عانقه.

- الحمد لله على سلامتك يا إبني.

- الله يسلّمك عمّي الملّا.. شلونك؟

- الحمد لله، الله يعزّك ويكبّر قدرك.

واقترب الرجلان من الحاج عبد اللطيف، ودنوا منه، وقبّلاه، فأشرق وجه العجوز، وأحسّ بنشاطٍ مفاجئ، وكان قد صلّى الظهر جالسًا، ثمّ تمدّد في فراشه،

متخلّيًا عن لحافه السميك، مكتفيًا بالـ "جودل" ذلك الحِرَام الخفيف الذي صنعته له ابنة أخيه من مستبدلة بحشوة القطن أو الصوف بضع قطع قماش.

- وينك يا خوي.. أشوفك ما عاد تجي؟

- والله يا حجّي لسّع وجع الظهر ما هو تاركني.. الحمد لله على كلّ حال.

- أي يا عمّي الحجّي، من شان ما نطوّل عليك، بي جماعة حابّين يجون يسلمون عليكم.. شـ نگولِ لهم؟

ونظر الحاج إلى ياسين، فهزّ رأسه موافقًا، فتشجّع الحاجّ لقول شيءٍ ما، وكأن الغيم الأبيض قد ألهمه شيئًا، وكانت الشمس قد انحدرت قليلًا عن كبد السماء، وتسلّلت نسائم خفيفة إلى عظام العجوز جعلت من الزهورات الساخنة مسعفًا عاجلًا، ولذيذًا.

- ما عاش الـ يرجّعك خايب.

- جعل الله لكم ذلك في ميزان حسناتكم.

- شـ نسوّي الشيخ والملّا.

وأشار الحاج إلى ضيفيه، وضحك ضحكة بتراء، ولكنّها انفجرت بثلاث ضحكات مديدة انطلقت من الرجال المحيطين بالعجوز الذي كان في الصباح يرى ذئابًا تطارده في نومه. ونهض الشيخ إبراهيم واتّجه نحو باب الحوش، وأشار إلى الفتى المنتظر تحت شجرة التوت الضخمة، وحين عاد كان ياسين يصلح أثاث الأوضة، ويضع كتبًا متشابهة في حقيبة السفر: ايمتى انشالله السفر؟

- انشالله اليوم بالليل.

(٣٤)

فاته أن يكتب لها إنّه وحيد مثل هذا القطار، يمرّ بقرًى ومزارع مثل عابر سبيل. أنا غريب يا حسنة، وها أنت تشهدين كيف تلقّيت طعنةً غادرة مباغتة، تلقيّتها من أجل فريةٍ لم تثبت عليّ "ما نعرف گرعة ابوه منين"؟

كان قطار العاشرة مساءً مزدحمًا بالطلاب والجنود من ذوي القرعات التي يعرف آباء أصحابها، والمسافرين، وعمّا قليل سيصل الحسكة، فيأتي ركّاب العربة السادسة الشاغرة، ثمّ ينطلق إلى الدير. تلاسن مفتّش التذاكر مع بعض المراهقين الذين فتحوا النوافذ ومدّوا رؤوسهم وأياديهم خارجها، ونام بعض الركّاب، وهدأت حركة الجنود المراهقين وركنوا إلى الجلوس في مقاعدهم. فتح ياسين كتاب القانون الجزائي أمامه، وقلّب صفحاته، وحاول أن يقرأ شيئًا، ولكنّ صداعًا خفيفًا وتعب اليوم الأخير منعاه من ذلك، فمدّ يده إلى الجريدة وحاول أن يقرأ عناوين الصفحة الأولى، وانتقل إلى صفحة الرياضة في الداخل، وبقيت الجريدة في يده بضع دقائق وهو يحدّق في الفراغ، وحين استأذنه الشابّ الصغير في أن يقرأ الجريدة، دفعها إليه على الفور، وقرّر أن ينام.

حضرت صور الساعات الأخيرة في البيت، حين وصلت العائلتان تطلبان المسامحة لما بدر منهما في حقّه.. كان بين قريتين وأمّين، واحدة تريده لابنتها، والأخرى تصدّه وترفضه، أمّ وجدت سعادة طفلتها الكبيرة، في مكانٍ دافئ، بيت عبد اللطيف رجل الصفرة الأوّل، البيت الذي لا تخمد ناره، ولا ينقطع عنه الضيوف، وأمّ وجدت فيه من يشاركها في ابنتها حسنة. ربّما كانت الغيرة، وربّما كانت تريدها زوجة لأحد أقاربهم هناك عندما يعودون، فلا تفارقها ابنتها، وتظلّ جانبها وتهتمّ بها في شيخوختها إن

جارت عليها "الكنائن". ولم يكن ياسين ليردّ كلمة للعجوز الطّيّب الحاج عبد اللطيف، ومرّ فصل التراضي سريعًا، ومن دون معاتبة تقريبًا، واعتذر ياسين من الحاضرين لينصرف بسرعة، ويحزم أغراضه كي يلحق بالقطار، وأحسّ الضيوف أنهم غير مرغوب فيهم، وأنّ الشابّ لم يشفَ من طعنةِ أمّ حسنة في نسبه، وتساءل كيف سجّلت المرأة هدفها في الوقت الضائع.. عند خروجه من باب الحوش، وفكّر وهو يتذكّر مباراة بطولة أوربا، ويبتسم.. حين قرأ في الجريدة التي صارت ثلاثة أجزاء، يمين الشابّ الصغير، أنّ هدف ليفربول جاء في الدقيقة ٨٢: كان أمام ريال مدريد ثماني دقائق ليردّ، ولكنّ أمّ حسنة اختارت التوقيت القاتل.

وداهمته غفوة سرعان ما استجاب لها، وتمنّى أن يطول به النوم، ليمحو آثار يومه الثقيلة، ولكنّ موظف التذاكر المتجهّم مرّ وفي يده حديدة، يضرب بها مساند الكراسي المعدنية، محدثًا رنينًا مزعجًا، لتنبيه الركّاب الذين سينزلون في المحطّة المقبلة. قام الرجل المرتدي فيلدًا عسكريًّا باهت اللون، يحمل على ظهره كيس خام أبيض، وخمّن ياسين أنّ أولاد الرجل ينتظرون الآن ما يخفيه الكيس؛ ربّما كان خبزًا وخضرةً، وربّما أضيف إليه قرصٌ من المشبّك، أو علبة ناشد أخوان صغيرة، تخطّاه الرجل ثقيل الخطا، مترنّحًا بفعل التعب وحركة القطار، فاصطدم بالجنديّ الشابّ الواقف قبالة النافذة، فعلا صوت الجندي، وصرخ بالرجل الأربعينيّ المسكين:

- أعَمى ما تشوف؟

- لا تواخذني يا بن اخوي.

ولم يردّ الشاب، ولكنه ركل الكرسيّ بنزق، وهمهم بكلمات غير مفهومة، ثمّ ضبط هندامه واقفًا أمام النافذة المفتوحة متحدّيًا الهواء والقطار وجمهور الركّاب، وحين عرف أنّ المستيقظين أولوه اهتمامًا، جلس في مكانه، وثبّت نظره في نقطة بعيدة

تخترق زجاج النافذة، وكأنّه يتابع في العتم قمرًا ما، تخيّله ياسين زوجةً أو حبيبةً أو أمًّا، فأحبّ أن يخرجه من حالته، وفي الحقيقة فإنّ ياسين كان يبحث عمّا يخرجه من بركانه الصغير الذي يكبر مثل كرةٍ من نار.

- يا رجل .. نص الألف خمسميّة.. الزلمة ما شافك.

والتفت الجنديّ إلى ياسين متجهّمًا، وحسب الساهرون أن فصلًا جديدًا من غضب الجندي سيبدأ مع الشابّ الأنيق، ونهض الجنديّ متّجهًا إلى ياسين.

- تعال يا زلمة، ما هي حلوة ترجع من مازونيتك زعلان.

- عندك دخّان؟

- واللهِ يمكن.

وجلس الجنديّ قرب ياسين، وتناول سيكارة الأوغاريت من يد مضيفه، وأخرج من جيبه قدّاحةً بيضاء شفّافة، ثمّ أدار رحاها المعدنية الصغيرة، بحركة من إبهامه، فخرجت نارٌ طويلة من فمها، وقرّب النار من لفافته حتى إذا أومض رأسها، أخذ نفسًا قصيرًا حتّى تجمّر رأس السيكارة. أعاد القدّاحة، وأخذ نفسًا عميقًا، ثمّ التفت إلى ياسين وقد هدأ قليلًا.

- تسلم.

- خذ الباكيت معاك، آني ما أدخّن، أنفّخ كلّ فترة وفترة.

ومدّ ياسين علبة الكرتون الأنيقة إلى الجنديّ، فتلقّاها الشابّ ممتنًّا، ودسّها في جيب سترته، ونظر إلى الفراغ وكأنّ القمر الذي تركه قبل قليل ينتظره هناك في نقطةٍ ما في ليل الجزيرة الطويل.

- يمكن آني غلطت وتسرّعت، بس انت تعرف شلون وضع العسكريّ آخر الإجازة.

- ما عليش، يا بن عمّي، غمّض عين، فتّح عين، تلگى العسكريّة خلّصت. متْجوّز؟

- لا والله، بس ناوي.

- ايييييييييه ودّعت البنيّة؟

- مو هذا هو السبب، يعني مو بس هذا هوّ السبب. الواحد يجي على اهلو فرحان، يگضّي يوم يومين، وعلى ما يتعوّد ع الحياة مع الناس، تخلص الإجازة، مرّات أگول ما أرجع حتى أخلّص، بس لمّا أرجع ع القطعة وبعد چم يوم أشتاگ لاهلي، واستنّى دوري بالإجازة. آني ما أدخّن، بس بالإجازة هاي دخّنت، تفاجأت انّ خالي توفّى واني غايب، وزعلت، زعلت چثير، ولمّا رحت اسلّم عليهم، ما گدرت اسكت، وبچيت. جاري اللي جنبي ناوشني سيكارة، شكرتو، گلت لو.. شكرًا ما أشرب، بس لمّا أصرّ عليّ.. شربت، جاري الثاني استنّى لما خلصت سيكارتي، وضيّفني سيكارة ثانية.. ما گمت إلّا دخنت شي عشر سيكارات. حسّيت بطعم غريب، لمّا رجعت البيت بعثت اخوي جاب باكيت حمراء، يمكنّي صرت شرّاب دخّان مزبوط.

- يا سيدي الله يرحمو.. يسلم الدّين.

- الله يسلمك.. يا اخي من ساعة گاعدين، وما تعرّفنا على بعضنا.

- أخوك ياسين -وكاد أن يقول العبد اللطيف، ولكنّه استدرك- ياسين العبد العليم، من الصّفرة.

- والنعم منّك، ومن الصفرة وأهلها، واني اخوك عبد الأحمد الشاتي، من خربة المنصور.

- والنعم والله.. درس معاي واحد من الشاتي أيّام الإعدادي، صبحي.. صبحي الشاتي، صبحي إسماعيل الشاتي.. شـ يصير لك؟

- أي والله، احنا ولد ولد العمّ.

- احچي لي عنّو .. شـ اخبارو، ما شفتو بعد التاسع.

- اووووووووو صبحي صار وتصوّر، سيّارة وتجارة وزراعة.

- الله يزيدو.. شـ صار معاه.

- اشتغل بالزراعة، نجح معاه العدس، وراح خذا مشاريع بالجنوب، وربّك گال لو ... خذ.

- الله يزيدو.. بس الجنوب ما تجيب كلّ هذا المربح، خصوصًا آخر سنتين، يا الله ويا الله البذار واخوه.

- ناس يگولون لگى ذهب، وناس يگولون لگى آثار، بس الولد شاطر.

- يا سيدي الله يزيدو ويبارك لو.. چان لحيح وضعيف.. لسعتو؟

- اوووووه علمك بالغدير لمّن چان بي ميّ، لاااا! صبحي مليان، أربعة ما يشيلونو، وتجوّز اثنين، ويقولون ناوي ع الثالثة.

- يا رجل!!

- أي والله

اقتربت دير الزور، كان الليل قد غادر منتصفه، وتجلّت ليالي حزيران في [illegible] الليلة والقطار يحاذي وادي الفرات، فتقطرت برودة فائقة ال[illegible]

يعزّي ياسين، وكان الجنديّ قد نام، فرأى ياسين في ملامحه وجهًا معذَّبًا، وتمنّى لو يتاح له بعض الوقت ليمرّ بآل البيطار، يتعرّف أخبارهم، ويتنسّم رائحة شيء من أهله، وجدها، ولم يجدها، إذ لم يتّسع له المجال لذلك. مشى القطار من جديد، وعاد مفتش القطار يسأل عن التذاكر، ويضرب بالحديدة المزعجة على المساند المعدنية، وحين تعدّى القطار ضواحي الدّير كان ياسين قد استسلم لنومٍ عميق.

***

"حرامات.. حرامات حرامات حرامات"

كانت حسنة تسمع الأغنية التي هربت من أناشيد المعركة، وهوساتها، وبياناتها العسكرية، وخرجت من الغُريفة الصغيرة إلى الظلّ الصغير الذي طبعته الشمس الخارجة من كفّ الضحى إلى كبد السماء. جلست شمال البيت، ووضعت أمامها حبّات الكوسا الطريّة لتفرمها، ولكنّها اختارت الظلّ المهجور لتسمع أغنيتها الأثيرة "نجوى" وكأنها تسمع الأغنية لأوّل مرّة، وكادت الصبيّة تجرح يدها حين انتقل الغناء إلى المقطع الثاني، واحتدم الإيقاع:

" أثاريها المحبة والعشگ لوم يا نجوى .. والعشگ لوم يا نجوى .. وأيا عيني المحبة شتحمل أهموم يا نجوى .. شتحمل أهموم يا نجوى" .

ولكنّها انتبهت إلى يدها.. ولكن ما ذنبها هي؟ هي أيضًا تفاجأت، ثمّ حين عرفت السبب تفهّمت موقف أمّها، ولكن.. ياسين لا يفعل هذا، لا يمكن أن يكون كما صوّرته تلك المرأة الغريبة، وها هي الحقيقة ظهرت، وتبيّن أنّ سعدة قد وضعت كذبتها على نار هادئة، وخثّرتها بحكايات الورّادات. وكانت حبّات الكوسا المسكينة تتلقّى مزاج حسنة السّيّئ باضطراب شديد، وقد انفرمت فرمًا ناعمًا، وفجأةً توقّفت اليد العصبية حين خفّ إيقاع الأغنية في المقطع الثاني:

"أدري اللي يدليني الهلال أبو ليلة .. أبو ليلة .. وكل يوم يكثر شوگي وكل ليلة .. وكل ليلة"

وتركت حسنة السكين قليلًا وابتسمت، ثمّ اتّسعت ابتسامها، وهي ترى ياسين وسط الدبكة العامرة في ذلك المساء البعيد، أوّل ما رأته، الشاب الوسيم، الواثق من نفسه، ثم اتسعت ابتسامتها وكادت أن تتحول إلى ضحكة، ولكنّها لمّتها، متوجّسة من عابر أو أحد إخوتها. واستطال المقطع، وكرّر المغنّي *"كل يوم يكبر شوگي وكلّ ليلة"* . وكرّرت معه تقليب الكوسا المفرومة، واطمأنّت أنها ملأت الصحن الكبير. تترك الأسرة حبّات الكوسا الكبيرة لأنّ ثمنها زهيد في السوق، وقد لا تباع، وتأتي بها إلى البيت لتصنع وجبة الكوسا والبيض التي يحبها والدها وأخوها الصغير، وتحبها هي جانب الخاثر. عمر الكوسا قصير، ولا يكاد ينتصف حزيران حتى يلحق الباذنجان ثمّ الفاصوليا مع البندورة، ويكون "المطبّق" عشاء الريف السوريّ كلّ ذلك الصيف.

همّت حسنة أن تقوم، ولكنّ المقطع الجديد أجلسها، وكأنّ المغنّي يقول حسنة وليس نجوى: *"نجوانا گمرة وتضوي بليالي اليحبون"* وأسبلت أجفانها خجلًا، وقالت: أكيد هذا ياسين في هذه اللحظة يرسل لي هذه الكلمات، وربّما كان يسمع الراديو في الوقت نفسه.. ولكنّ الأغنية ذهبت إلى الحزن مرّة أخرى، حين غنّى "حرامات":

"حراماااات: حرامات حرامات حرامات

حرامات العمر من ينگضي بساع.. حرامات حرامات

يضيع الهوا وساعات الْوداع حرامات حرامات"

وذرفت الصبية دمعتين، ثم ضبطت انفعالها، وعاد المغنّي يكرر "يضيع الهوا وساعات الوداع" فتذكّرت يوم تلقّى ياسين رصاصات قريبها في المحكمة، ونزلت دموعها دون أن تجهش، وأبعدت الصحن من أمامها خشية ضبط وجبة الغداء

مُمَلّحةً بدموعها حين يجتمعون على المائدة. ولكنّ المغنّي تخلّى عن الإيقاع ومدّ صوته يغنّي حرامات، وكادت الصبية أن تصرخ، حين أقفل المقطع بالقفلة العراقية الأليفة:

"يا با يا با يا عيوووووووني".

ولكنّ أمّها نادت عليها من الغريفة الصغيرة:

- ولّ يمّا شـ صار بالكوسا؟

"يا رايح صوب مشرّگ* مشرّگ ما بو ربيعي

راحو يرعو غنمهنّ* والعشب فوگ ضلوعي"

(٣٥)

يتعثّر الليل بأضواء المدينة الذاهلة، وكأنّ الصيف والمصابيح تواطأت على محو النجوم، وتركت الشباب الذين فتحوا الشبابيك في شقّتهم الصغيرة في الطابق الرابع، يقرؤون بنهم وخوف وقلق في كتب سميكة، وأوراق محاضرات. لم يكن ياسين قد ارتاح تمامًا من امتحان اليوم في مادّة حَمَلَها من الفصل الأوّل، وكان قد كتب جيّدًا كما يرى، فجلب معه طبق البوظة الهيطلية احتفالًا بمادّته الأولى، وتلقّاه الزملاء بفرحٍ وتلمّظوا بشفاههم، وأفرغوا له باقي الطنجرة من طبيخ الكوسا والبندورة، ومازحه ناصر:

- الجلي على آخر واحد.

- آني آخر واحد؟ آني ضيفكم يا الـ ما تخافون الله، بسيطة.

- عمومًا بما إنّك طالب شاطر، وجايب "حلوان" النجاح المتوقّع، أفكّر أجلي عنّك.

- لا تصدْگو .. ناصر آخر واحد گام عن السّفرة.

- هذول همّ التجارة والاقتصاد.. يعطونك من چيسك.

- على طاري التجارة والاقتصاد.. الصندوگ يشكو من الإفلاس.

- تراك وزير اقتصاد سيّئ، وبالحكومة الجاية راح تطير.

وضحكت الكتيبة الصغيرة، وهيمنت وداعة غريبة في ذلك المساء، وقال ناصر:

- اللهمّ اعطينا خير ها الضحكة.

ونهض ياسين يريد أن يصنع الشاي، "مرمح الكاسات"، ووضع ماء من الحنفية في الإبريق، ووضعه على "ببّور" الغاز الصغير، وملء قبضة يده من الشاي السيلاني الخشن، ولكنّ إسماعيل صرخ به:

- لا .. لا لا لا خلّي الچاي لمّا تغلي الميّ، ولا تحطّ سكّر.

- يا سيدي.. خلّي "دردو ببطنو". والله الچاي ما لو طْعمة إذا ما تفاعل السكّر والچاي في الشرطين النظاميين، وانطلق بخارٌ من خشّة الچيدان، حجمه... حجمه.. والله نسيت.

- أصلًا أنتَ چنت كسلان بالكيميا، وما انتَ حافظ غير الشرطيين النظاميين.

- يا ناس خلّونا نگرا والله الشعر الأندلسي صعب، والدكتور ما يرحم.

- مو مثل دكتورنا.. يگولون انّو مو متندّم بحياتو غير مرتين، مرّة لمّا تجوّز، ومرّة لمّا أعطى طالب ٦٠.

وضحك الجميع، فيما كان ياسين، يصبّ شايه في كؤوس صغيرة، ويضعها وسط حلقة الدرس التي عادت إلى المذاكرة، ونهض ناصر حاملًا الصينيّة، مستأذنًا أن يأخذ كأسين إلى جيرانهم الجدد، في الغرفة المجاورة.

- شباب اثنين من إدلب، استأجروا اليوم.

- أكيد لك مصلحة، واحد منهم تجارة واقتصاد تا يعلّمك.

- "إنّ بعض الظنّ إثم".. هاي عليها حگّ عرب، وين المختار؟

وتنحنح إسماعيل، وهو يقرأ بصوت عالٍ:

أَلَمْ تعلَمِي أَن الثَّواءَ هو الثَّوى وأَنَّ بيوتَ العاجِزينَ قُبورُ*

- يا ولّم خلّوني أكرا، شوفوا هذا المفارگ مرتو من ألف سنة، جدّي ابن درّاج.. والله يوجع الگلب.

- يمكن مرّت معانا بالثانوي. قال ياسين

- اي صحيح.. الشعر الأندلسي رائع، بسّ منين أحفظ ٢٠٠ بيت، والامتحان بكرا؟

- گول باچر.. شبيك صرت حلبي.

وعاد الشباب إلى الضحك، وطال غياب ناصر، فعرفوا أنّه "يجُرّ عِرْفة" مع الضيوف، وقال ناصر: الله يعين أهل إدلب بها الأحداث.

وأيقظت كلمة "إدلب" في ذاكرة ياسين حكاية الـ "ما نعرف گرعة أبوه جاية منين؟"، وفكّر أن يزور الشابّين، ويسألهما عن أبيه، ولكن ماذا سيقول؟ تعرفون عبد العليم ياسين؟ المعلّم الذي ترك أهله قبل ثلاثين سنة؟ وهل إدلب "قرية و قريتين" حتى يعرف الناس بعضهم؟ ثمّ لماذا يكتفي بسؤال هذين الجارين؟ لماذا لا يسأل في الجامعة حين يتجمّع الطلاب قبل الامتحان، ويتعارفون على عجل؟ وتذكّر أنّه يجب أن يقدّم مادّة الغد بتحضيرٍ كافٍ، فأجّل هذه الفكرة.. ثمّ فجأة تذكّر أنّ المادة التالية لمادّة الغد بعد أسبوع كامل، فلماذا لا يعود إلى القرية، ويأخذ من أبويه اللذين تبنّياه بعض المعلومات الممكنة عن أبيه، الأستاذ عبد العليم، ومنها يزور الحاج عبد اللطيف، وقد تركه يعاني قلق الموت، وزيارة الذئاب الضارية في أحلامه. نعم، سيقدّم مادة الغد، وسيسافر يومين اثنين، نعم، ليعود من جديد، ويحضّر لمادّة العقوبات. ولمع شيء غريب في عينيه، ونادى إسماعيل، وهو يمدّ كأسه:

- خلّصتم الچاي، ولا لسّع بيه شخايل.

- بيت السبع ما يخلى من العظام.

وهزّ ياسين الإبريق، وسكب قطرات الشاي المتبقيّة، وقد ملأت نصف كأسه الفرنسية الصغيرة، ثمّ هزّه من جديد، ولامس الشاي الأقواس الصغيرة، وهو يبتسم: بركة.. بركة.

***

- ول يابا.. والله البندورات عطشانات. ليش ما رحت سگيتهن.

- الماتور خربان، شغّلتو الصبح وما ااشتغل، ضربتو منويل أكثر من خمس مرّات. ما عرف شبي، وخبّرت أهل دحّام... دحّام بالشغل.

- خاف من البرد ما اشتغل.. خاف ما بي مازوط.

- شفت المازوط والزيت.. ما بي شي.. بس اليوم ما عرف شبي "حارن".

- تعال نروح نعاونك، آني وحسنة من الگشاط، وانت من المنويل.

وتبرّم الشّابّ الصغير، وأدرك أن أمّه أفسدت عليه خطّته أن يستريح اليوم من أعباء السقي وال"عفيش" ويلعب الكرة مع أترابه عند التلّة الكبيرة بين الصفرة وخربة الشيخ، هناك حيث يلعب الشباب الصغار في أماسي حزيران، حتى إذا اختلط الظلام، عادوا إلى بيوتهم، وقد ملّ فياض وتعب، من عمل يوميّ متواصل، لا جمعة ولا خميس.. شغل .. شغل.. شغل، والله الخضرة موت، موت احمر.

حرّك فيّاض المنويل بهدوء وبطء، وجرّت معه المرأتان حبلي البلاستيك الدائريّين، الواصلين بين رأس "طرمبة" الماء وماكينة الديزل الجاثمة قبالة البئر، وأسرع الجميع، وأسرعوا من دون فائدة.

- يا يمّا گلتِ لّچ.. والله مو من المنويل.. انتِ ليش تعاندين.

- عجل ما انتَ شايف الخضرة عطشانة.. يا الله يا الله.. هالمرّة.

وثبّت فيّاض دائرة ساعد المنويل في جسم الماكينة المتحرّك، وانحنت المرأتان على الحبلين تجذبانه بقوة وسرعة، وصرخ فيّاض.

- دي دي .. يا الله.. يا الله

وانطلق دخانٌ أبيض، ولكنّ الموتور ظلّ هادئًا، وجلس الجميع يدارون إحباطهم، وكادت أم حسنة أن تعود إلى البيت، ولكنّها نظرت إلى شجيرات البندورة وقد أثمرت حبيات زرقاء تستجدي الماء.

- آخر مرّة.. وكلّ الزبدة لكّ.. الخاثر بالشچوة، عفية ابني.

- آخر مرّة ها؟

- والشيخ عبد القادر.

- لا تحلفين بالشيخ حرام.

- اووووووووو عاد انتم.. منّا زغار نحلف بالشيخ

- يا الله

وجرّت المرأتان، وجرّت حسنة وكأنها تجرّ الأيّام والحظّ والمرأة الشرّيرة التي لقّقت لها "الشينة" وكادت أن تودي بحياتها، وجرّت وجرّت، ولم تنظر إلى الموتور كما كانت تراقبه كي يشتغل، كما كانوا من قبل، ولكنّها ظلّت تجرّ ولم يبق منها غير يدين وذاكرة.

- اوووووووووووووه اشتغل.

- عفية السبع.

- حسنة وخْري.. حسنا!!!!!!!!!!!!!!!!!!

- يا يمّة راحت العجيّة.

"كلّ من ذِلُولهْ عبرت* واني حْرجتْ بيَّه"

(٣٦)

حين وصل القطار دير الزور مدّ رأسه من نافذة القطار لعلّه يرى أحدًا من تلك الوجوه التي رآها منذ أشهر قليلة، ولم يكن هناك غير صراخ أصحاب السيّارات الخاصّة ودرّاجات الياماها: "ساحة .. ساحة.. غسّان عبّود.. غسّان عبّود" ومشى القطار، وتلاشت صرخات الشوفيريّة، وداعبته نسائم منعشة والقطار يعبر وادي الفرات قبيل الفجر، وحاول ياسين أن يغفو قليلًا، ولكنّ منظر الخضرة والماء أيقظه تمامًا. وفكّر أنّ هذه بلاد حسنة، وربّما سيرى قريتها، أو أحد أقاربها من نافذة القطار، وتسلّلت إلى حنجرته أغنية قديمة لداخل حسن:

"أمرّ على الأبواب من غير حاجةٍ لعلّي أراكم أو أرى من يراكمُ".*

وهزّ ياسين رأسه هزّاتٍ متكرّرة وكأنّ هّزات رأسه اندغمت بهزّات القطار وهو يهدر في اتجاه الشمال يردّد نشيد الحياة والموت، وأخذ الفتى المكلوم قرارًا صعبًا في تلك اللحظة، وتعجّب كيف أنّه أجّل هذا الأمر كلّ هذه الفترة: "وداعًا للحبّ، لا حسنة بعد اليوم، ولا مكان لأيّ فتاة أخرى، ومرحبًا بالنجاح في الدراسة والعمل"، وقد شجّعه في ذلك أنّه أبلى بلاءً حسنًا في الموادّ الأخيرة، وكأنّ "الطاسة" التي فوق جسده، لم تمرّ بها الفصول الأخيرة في الصفرة، ولكن.. والحقّ يقال إنّ لزملائه في شقّة الطابق الرابع في الجميليّة الفضل الأكبر في ذلك. وسرعان ما نسي عزمه الذي عزمه حين مرّت بالمقصورة عائلة صغيرة.. زوجان شابّان يريدان النزول في محطّة تالية، وكانا قد تشبّثا بمقابض القطار وهو يتهادى، خوفًا من توقّفه المفاجئ.. سبحان الله .. فيها شبه كبير من حسنة، وقاوم ياسين النظر إلى الفتاة، ولكنه نظر إليها مرّة أخرى.. سبحان الله، ربّما كانت ابنة خالتها، أو ابنة عمّتها، أو هكذا "تراوى

لُهْ".. ونزل الشابّان، يحملان أغراضًا خفيفة، وغادرهما القطار، ولام ياسين نفسه، وأخرج كتاب المادّة التالية وقرأ عشر صفحاتٍ متوالية غير أنّه لم يفهم شيئًا.. فنظر في الفراغ البعيد، وقرّر أن ينام.

***

- الله ستر يا حجّي لو لافّة صايتها ع الگشاط چان صارت ١٠٠ كشمة.

- الله يخفّف مصابهم.. ويكفينا شرّ ما صابهم.

- حكمتك يا ربّ... والله الصار بينا من وراهم مو هيّن.. الله لا يجعلنا من الشامتين.

- لاه يا حجّة.. باطل عليچ باطل.. هذي إرادة ربُّنا.. ولا اعتراض على حكمو.

- والله يا حجّي ما أگدر أنسى.. عجل شفت شلون راح الوليد؟ لا سلام ولا كلام.. تگول انّو رايح ع العسكريّة.

- باچر يجي مثل السبع، ناجح بإذن الله، ونسيان كلّ شي.

- إن شالله.. عجل ما تفطر؟

- والله يا حجّة ما لي نفس. .. سوّي لي چاي.. بس چاي.

- چاي ع الريج؟ خلّيني اسوّي لك لگيمة مع الچاي.

وهزّ الحاج عبد اللطيف رأسه راضيًا، دون أن يخفي ملامح كآبته، وكان راديو دمشق يعلن العاشرة والربع موعد موجز الأخبار، قبل أن تنسلّ أغنية عصام رجّي "هزّي يا نواعم" فغيّر الحاج الموجة نحو أقصى اليمين حيث إذاعتا مونتكارلو

وصوت أميركا ولكنّ الراديو لم يلتقط البثّ، فأغلق الحاجّ الراديو محبطًا، وتمدّد على فراشه، ولكنّ خوفه من الذئاب أيقظه، وصرخ في العجوز:

- وين الچاي؟

- بدال الچاي تعال شوف مين جاينا؟

ودنا ياسين من فراش أبيه، وانحنى عليه وقبّل وجهه ورأسه ويده، وتعلّق العجوز بالفتى، وقبّله، ثمّ بكى.

- يا حبيبي.. گربان الدرب الـ جابك.. يا حبيبي

- وين الچاي يمّاااا

وضحك الثلاثة، وجاء أولاد الحارة الصغار يسلّمون على ياسين، فأعطاهم "صفط الكرميلا" فخطفوه وهربوا به بعيدًا، وأكمل الثلاثة ضحكتهم الصافية، وقال الحاج عبد اللطيف

- ترانا جوعانين يا امّ ياسين. لَلْحَز ما أفطرنا.

- يخسا الجوع.

***

- يا يمّا الحمد لله.. ان شالله بالريش.

- كل شي من الله زين ويا مَ حلاه.

- فشخ زغيّر وشويّة رضوض.. الحمد لله .. لو لافّة صايتها ع الگشاط، چان صار اسمها المرحومة حسنة.

كانت الفتاة نائمة تحت تأثير البنج، وعلى الرغم من نجاتها من الكسر، إلّا أن الرضوض تسبّبت لها بألم شديد. كما أن الجرح الغائر في رأسها احتاج إلى ستّ قطب كي يلتئم. تضايقت الأمّ وابنتها من الحبس في غرفة صغيرة أوّل هذا الصيف القائظ، فاستعجلت الأب أن يعود إلى المزرعة، هناك حيث الأرض المسقية والهواء الذي يردّ الروح في الأماسي. ولكنّ الدكتور تأخّر في قراره، وكان يشكّ في ارتجاجٍ في المخّ، لم تفصح عنه الصورة تمامًا، وحين صحت حسنة، سألها بعض الأسئلة، ورجّح الطبيب أن الإصابة لا تستدعي المكوث في الغرفة التي تحارب حرّ الصيف بمروحةٍ واحدة.

ولم يكن الليل قد تمكّن من الحرّ بعد، حين توقّفت سيّارة صفراء، أمام بيت المزرعة البسيط، وقالت الأمّ في سرّها "باچر إذا جانا حدا.... ألّا يتكشّف حسبنا"، ولكنّها تجاوزت قلقها، وهي تسند ابنتها بيدها:

- على مْهَلچ.. شويّية شويّة.. الحمد لله، هاي ولا غيرها. وفيما كان الأب يحاسب سائق السيّارة، كانت الأمّ رفقة قريباتها اللاتي أتين من المدينة يجهّزن فراشًا لحسنة، التي صحت في الطريق، بعدما زال أثر البنج، وخفّ ألم الرضّ في الكتف اليمنى.

- تعرفين تعطينها الدوا؟

- ما بي غير البرهم.. والسبيرتا، وهاذنّ الحبّات بعد الأچل.. حبوب الاستلهاب.

- مدّوا لْنا برّة .. يجوز يزورنا حدا.

- ان شالله .. خلينا نعشّي حسنة، ونعطيها الدوا.. عفية بنتي أُكْلِي لچْ لُگْمة، تا نعطيچ الدوا.

ومن بعيد كان فيّاض الصغير يحمل بطيخة حمراء، بعدما أطفأ محرّك الديزل، وقد أكمل سقاية الخضرة، وكان يراقب البطيخة الأولى في الحقل منذ أيّام، وقالت له أمّه إنّها ما زالت طرحة (بيضاء) لكنه حين علم بمجيء حسنة من المستشفى اليوم، قرّر أن يقطفها، فقطفها قبيل المساء ووضعها في الحوض الذي تنسكب فيه ماء البئر المتدفّقة، وحين جاءت السيّارة لم يبق أمامه غيرُ ثلاثة خطوط خيارٍ، وكانت "هروش" الخيار قد ذبلت تقريبًا، لكنّ أمّه قالت إنّ أسعار الخيار سترتفع هذا الأسبوع، ويجب ألّا نعجّل في إتلاف "الهروش". وحين أطفأ المحرّك لم ينسَ أن يأخذ بطيخته المنتظرة المبرّدة، لتكون مفاجأة السهرة، وبعدما سلّم على أخته المتعبة، قال لها ممازحًا:

- الدبشيّة بسعَد مييين؟

وضحكت حسنة، للمرّة الأولى ضحكت منذ شهر تقريبًا، وآنسها منظر البطيخة التي كانت بالأمس القريب بيضة صغيرة، فها هو الفرح يكبر أيضًا.. مثلما يكبر الحزن، ونظرت إلى فياض وقد عكس ضوء مصباح الكهرباء المتدلّي وجهه الأسمر بجلاءٍ غريب:

- كل شي ألّا بسعدي.. سعدي وَاعَرْفُو

- لا والله غير بسعدچ.. جيبوا لي السچّينة.

وضحكت النسوة المتحلّقات بحسنة، وجاءت صبيّة صغيرة بسكّين كبيرة، وبصحن كبير، وتوتّرت حسنة، وهي تتابع أخاها يكشف عن حظّها المجهول، وقد أنشد نشيدًا -تعلّمه من زملائه في قريتهم هناك- مع الأولاد في طقسٍ مهيب على الرغم من هيئتهم المرحة: "مدينةٌ حمراء، أبوابُها خضراء، سكّانُها عبيد، مفتاحُها حديد" وأعادوا النشيد مرّتين، مشيرين إلى ذبيحتهم المسكينة، وفي الثالثة مدّ فيّاض

صوته في كلمة "حديد" وهو يحزّ رأس الدبشيّة، فيما عينا حسنة تلمعان، وتراقبان بفضول وتوجّس وقلق، حظّها المعلّق بقلب بطيخة مغدورة:

- حمراااااااا

واستبشرت حسنة، ولم تكن الدبشية حمراء تمامًا، ولا بذورها سوداء، كانت كتلة إسفنجية زهرية، لم يدعْها الأطفال الصغار، وتداركت الأمّ السعيدة بفرح ابنتها تخاطف الأولاد حزوز الدبشية الأولى، صاحت:

- خلّم اللبّة لحسنة.

وهمست ابنة عمتها في أذنها:

- ياسين هين.. اليوم الصبح جا من حلب.

وأشرقت ابتسامة حسنة ملء وجهها، وملء الغريفة الصغيرة، وملء الحوش، وأدركت أنّ الدبشية الصغيرة بشارة خير، ونادت أمّها:

- يمّا جيبي لي شي آكل، تا آخذ الدوا.

(٣٧)

تجلّد ياسين أمام العجوزين، فأكل وشرب، واستقبل إخوته وأولاد أخيه، وسلّم على العجوز التي تأتيهم كلّ صيف وتقعد عندهم أيّامًا يستأنس بها الحاجّ وزوجته، ويتذاكرون معًا أيّام "الغنوميّة" والرحيل المستمرّ وراء الربيع المتنقّل بين الشمال والغرب. ولكنّه تعثّر في الاختبار الأوّل.. أخذت حسنة كلّ تفكيره. بعد الغداء تمدّد في غرفته، وقرأ شيئًا في كتاب قانون الأحوال الشخصية، وقلّب الكتاب مرّتين .. ثلاث مرّات، واصطدمت عيناه بمفردات الطلاق والعدّة والمهر والتفريق والحضانة.. أحسّ بصداعٍ خفيف، وقال لنفسه لعلّه السفر، وحين رمى الكتاب جانبًا، حاول أن يغفو، ولكنّ حسنة هناك في المستشفى.. هل كان السبب في الحادثة؟ ربما.. واستبعد الفكرة، ولكنّ إحساسًا بالذنب تسرّب إليه.. فاستغفر الله، وفتح عينيه، وتقلّب على البساط، وفاجأته أمّه التي جاءت تتفقّده:

- شبيك ياسين؟ لسّع ما جيّلت؟ نامْ لَكْ شوَي يا إبني.

- حرّ.. الجوّ حارّ ما جاعد أگدر أنام.

- هسّع ابخّ الگاع.. بلچي تبرد الدار.. هذا لسّع تمّوز ما جا.. الله يحمينا من نار جهنّم.

- آمين.. لا لا آني گايم أجيب بريج ميّ.

- البرگان معبّيات جوّا الشّجَرة... خلّيك انتَ..

ونادت حفيدها الصغير أن يجلب إبريق الماء، فركض الصغير ملبّيًا. وقف ياسين ووضع يده تحت فوّهة الإبريق وصبّ الماء على قفا يده فانتثر الماء على القاع الترابيّة، وقد رفض ياسين أكثر من مرّة أن يصبّوها بالإسمنت، لتكون باردة في الصيف، وباردة في الشتاء.

- ما جيب لك كاسة چاي؟

- لا والله.. خلّيني أبعث ابراهيم يجيب لْنا داندرمة من دكّان العلّاص.

- أريد أروح أشوف الحجّي، وبعدين أجيك.

وتحيّر ياسين كيف يبدأ مع أمّه الحديث عمّا جاء من أجله، وترك الجامعة أيّام الاختبارات، وفكّر لو أنّه كلّم الحاج لكان هذا أفضل، ولكنّه خاف، ليس خوفًا تمامًا، وإنّما هو خشية من تأثير ذلك في نفسية العجوز الذي يتحسّس النهايات منذ موت المختار، واستبعد فكرة مطارحة الحاجّ بقرار البحث عن أهل أبيه. سيبدأ من أمّه، فربّما تمتلك بعض المعلومات. كان ابن أخيه الصغير قد جلب علبة الدوندرما الملوّنة فأعطاه ياسين خمس ليرات ليشتري بها لنفسه، ففرح بها الصغير، وعاد إلى الدكّان ثانيةً، وجاءت العجوز تحمل إبريق ماء زجاجيّ وكأس، كانت قد اشترتها من بائع الزجاج المصري الذي مرّ بقريتهم السنة الفائتة.

- عندك شي.. آني أمّك واعرْفك.

- إي والله.. بس هذا بيني وبينچ.

- گول.. يا إبني.. تراك خوّفتني.

- لالا ما بي شي يخوّف.. أريد اعْرف أهل ابوي الاستاز عبد العليم ياسين. اعْرفهم بس.. يعني باچر إذا خطبت أي وحدة.. راح أهلْها يگولون نفس الكلام.

- والله يا إبني حكّ بإيدك.. بسّ هذي السالفة بعيدة.. وما عَادْ أتَفَطّن.

- معقول.. تنسين؟ استاز المدرسة عبد العليم ياسين؟ أنْتُم جوّزتوه، وكان مثل ابنكم. وانْتم تبنّيتم إبنو، لا أهلو .. ولا خوالو.

- لمّا ارتحم أبوك وامّك.. لمّينا اغراضهم.. شويّة صحون، وفراشين، وشويّة مدّات، وكتب واوراگ. وأعطيناهم لجدّك.. ولمّا توفّى جدّك... أعطينا اغراضهم للفقَرا في سبيل الله.. بس الاوراگ يمكن ظلّن عند عبد الله.. اي عند عبد الله.. اوراق وكتب بسحّارة چبيرة..

- هسّع عبد الله بالقامشلي.. وبعدين لمّا هدّ البيت يمكن أحرق الأوراگ..

- عبد الله حريص.. ما يضيّع شي.. باچر أو بعد باچر يجي يشوف الحجّي.. هوّ كل يوم خميس يجي ع الجرية. يشوف الحجّي ويردّ تالي النهار، ومرّات يبات هين.

- طيّب ما تعرفين من أي بلد .. من أي جرية.

- يمكن منِ حارم.. الله العليم انّو من حارم.

- حارم هذي بلد.. ما هي بيت وبيتين.

- ال اعرفو .. انّ رحمة الاستاز ابن ناس، وچان مبيّن عليه.. وبعد چم سنة.. جانا شايب، يريد ياخذك معاه، لانّ خالك الله يسامحو حاول ياخذك لمّن عرفّ انّو باسمك گاع. وبعد ما رجع خايب، دزّ شايب من عمامك.. درب اهللك تلگاه عند خالك إذا ما لگيت شي بالاوراگ الـ عند عبد الله.

وهزّ ياسين رأسه، متحمّسًا، ونظر إلى أمّه بامتنان، ونظر الاثنان إلى صحن الداندرما الذي ذاب تقريبًا.

- أبووووووووه الداندرمة ماعت يا ياسين.

- أجيب وحدة ثانية الحز.

- لا يا ابني .. احطها بالبراد شويّ ونردّ ناكلها.

- طيّب.. بس ها الكلام بيني وبينچ.. خايف ع الحجي يروح بيها.

- لا تخاف ع الحجيّ.. مرّت عليه مصايب كثار وسلم منها.. بس ما راح نگولْ لُو.

***

- الله يصبحكم بالخير.

- الله يصبحچ بانوار النبي.. يا هلا يا هلا..

- غزال غزال.

- عنّا وعنكم الهمّ زال.

- الحمد لله.. هاي ولا غيرها.. والله يمّا ردّيتِ من الموت.

- الحمد لله.. حوّلي هين ع الهوا.

وجلست أمّ دحام، وحاولت حسنة أن تنهض قليلًا احترامًا للعجوز، فحلفت عليها الضيفة أن ترتاح، ووضعت تحت مخدّتها شيئًا، خمّنت الفتاة أنه مبلغ من المال، فخجلت، ولم تستطع أن تقول حتى بعض عبارات المجاملة التي تقال في هذا الموقف، من قَبيل "والله ما يصير" أو "باطل عليچ يا خالة". كانت العجوز أمًّا لياسين بالرضاعة؛ فحين توفّيت أمّ ياسين، كانت ترضع ابنتها الگُعدة (آخر العنقود)، وقال لها أبو دحام مازحًا، حميتِ الجبهة الجنوبيّة. وكان ياسين يتردّد إليهم كثيرًا، ويرعى

أغنامهم القليلة مع أغنام الحاجّ عندما كان صغيرًا، فتؤثره بدرم الزبدة، وقد يلعب مع دحّام الكرة في الحوش على الرغم من فرق السنّ بينهم، فتثور ثائرة المرأة ثمّ تستدرك عواقب غضبها، فتطيّب خاطر ياسين بليرةٍ أو ليرتين يشتري بها من الدكّان. وبالأمس حين زارها ياسين، أخبرته أن حسنة غادرت المستشفى، وأنّها الآن في بيت المزرعة، لم يقل شيئًا، ولكنّها أحسّت بحزنٍ في عينيه، وعندما استأذن للعودة: قال لها: "إذا شفتيها سلّمي لي عليها".

لم يزد الشابّ ولم ينقص، وقام كسيرًا، وأحسّت العجوز بثقل الأمانة، وبجرح ياسين الغائر.

- ان شالله أگول لْ ها.. لا تزعل يا ابني.. الخَلَگْ ها .. خَلَگْ الف وحدة غيرها.

ومشى ياسين دون أن يسلّم، وتابعته العجوز وكنّتها بأسًى وإشفاق، وذرفت العجوز بعض الدمع، ولامتها زوجة دحام على قسوتها. في الصباح الباكر وضعت في يدها ورقة من ذات المائة ليرة، واتجهت إلى المزرعة منذ الصباح، وقالت لكنّتها:

- عندنا خضرة ونشتري خضرة؟ رايح أحوش شويّة كوسا وخيار.. إذا گعد الحجّي فطّريه واعطيه الدوا.

- ان شالله يا عمّة.. لا تعوّگين.. ترى الدنيا حارّة.

وهزّت رأسها وهي تغادر الحوش.

- انشالله ما اتعوّگ

حين خرجت أم حسنة لتصنع الشاي لضيفتها؛ استغلّت أمّ دحّام الفرصة ووضعت يدها تحت المخدّة، وهمست في أذن حسنة: ياسين يسلّم عليج.

ولم تستطع الصبيّة أن تحبس فرحتها، فنهضت قليلًا لتقبّل رأس العجوز:

- شلونو هوّ.. خلّص فحص وجا؟

- لا والله.. گال راح اليوم يرجع.

وهزّت الفتاة رأسها حزينة، ولكنّها اكتفت برسالته، وعرفت أنّه ما زال يحبّها، وحمدت الله أنّها نجت من الحادثة، ليبلغها سلام ياسين. وحين جاءت أمّها بالشاي لاحظت فرح حسنة الطافح فاستغربت، وفهمت الأمر، ولم تتركها ضيفتها العجوز تكمل شكوكها.

- جاي أريد شوّية خضرة.. بلچي تعطونا شوية كوسا وخيارات.

- باطل عليچ يا حجّة.. هذي خضرتكم.

- الله يكرمچ يا خيتي.. لا والله خضرتكم.

- چنت محضّرةِ لْكم حوشة بندورة، البارحة بي چمّ عجرة ملوّحة.

- ما شالله.. بلچي تلَحْگون السعر الزين.

ونهضت العجوزان، وتقدّمت أمّ دحّام، وتبعتها أمّ حسنة، فاستدركت الضيفة، ونظرت إلى حسنة:

- نسلّم عليچ يا بنيتي.. ما عليچ الاّ العافية... وعادت إليها لتقبلها.

- سلمي لي عليه.. سلمي عليه چثير.

(٣٨)

- ما عُمْرو تعوّگ.. الله يستر.

- لا تفاوْلون عليه.. الغايب وحجْتو.

- غريبة.. كلّ مرّة عبد الله يجي بوگت غير.. بس عجيبة جاعد تنطرونو اليوم؟

- لا والله.. بسّ لَأنّي مسافر.. وحابّ اشوفو.

- ان شالله يجي.. عبد الله كْبِرْ.. ما هو الأوَلّي، مرّات أشوفو صار أكبر منّي.

- جيلكم ما راحْ يجي مثلو يا حجّي.. جيل سمن الغنم، وخبز الصاج، ودبس عينتاب.

- والله يا ابنْي من يوم ما گعدنا بذروة الحيطان، وتركنا بيوت الشَّعر، ما ظلّ بينا عزم، واحدنا چان على ظهر فْرسُو يوم كامل ولا يهمّو... نمشي ورا الغنم الليلة والليلتين، وايّام الگصاص نظلّ الايّام.. اجْتِف النعجة، وفُكّ النعجة.. ايدينا تبَس (تيبس)... هسّع التركتور يفلح والكهربا تورّد.. اييه الله يهنّيكم.

- زاد حواصيد العدس يظلّون ايّام يحصدون، واهل الخضرة والگطن من اوّل آذار لآخر تشرين.. أعمال شاقّة.. احنا اهل شگا أوّل وتالي يا حجّي.

- شگاكم مو مثل شگانا.. انتم مشتگين بس ما انتم راضين، احنا اشتگينا رضيانين بالشگا، وحبّينا الشگا... وصار الشگا بدمنا.

- ها هاااا جا عبد الله.. هذي سيّارتو.

- اي والله.. الله حيّو.

- غريبة اليوم مهتمّين بعبدالله!!

ونهض ياسين، والعجوز يستقبلون الدكتور، فسلّم عليهما، وقبّلهما، وعند العتبة خلع حذاءه، وانحنى على أبيه الممدّد فقبّله وقبّل يده، وسأله عن صحّته أسئلة دقيقة توحي بفهمه حالة أبيه، ثمّ أعطى ياسين المفاتيح وطلب إليه أن يُحضر الأغراض التي جلبها للحجّي، وخفّ ياسين بمحبّة إلى سيّارة أخيه البيك آب الزرقاء.

عام ١٩٧٦ و١٩٧٧ نزلت إلى السوق بيكابات التويوتا الصغيرة، بأسعار معقولة، وانتشرت في الريف الشرقي بكثرة، ولم تكن تخلو قرية من سيارة أو اثنتين، وعلى الرغم من أنّ مقتنيها اتّخذوها وسيلة لكسب الرزق، أو وسيلة لنقل "المازوط" في مصلحة الحصاد أو الفلاحة؛ إلّا أنّ عبدالله اشتراها لخدمته الشخصيّة، ولم يقبل أن يشتري سيّارة صالون، لأنّه يحتاج إلى صندوقها عندما يذهب إلى السوق، أو ليركب أفراد عائلته الكثيرة في الصندوق عند الذهاب إلى عزاء.

- شـ جايبنّا؟ قالت العجوز وهي تبتسم.

- شغلات خفيفة.

- تعيش وتجيب.

- يا ابني ليش معذّب حالك، انتَ الله يعينك، ربّ عيلة، ومصاريفك چثيرة.

- من فضلة خيرك يا حجّي، اليوم نزّلوا لْنا مكافأة، ولـ هالشي تأخّرت.

- يعني جيبك دفيان؟

- ابشر يا محامينا.

ولكنّ ياسين سارع إلى يد عبد الله الممدودة إلى جيبه، يمنعه من إخراج المال:

- استغفر الله.. أمزح معاك بسّ.

- آني أخوك يا ياسين.. لا تزعّلني منّك.

- والله ما انتَ دافع.. ولكنّ يد عبد الله خرجت بورقةٍ فضيّة كبيرة مهيبة من ذات الـ ٥٠٠ ليرة سوريّة.

- عليّ الطلاگ ألّا تاخذها.

- بس آني حلفت؟

- تصوم ثلاثّةْ يّام ولا أطلگ المرة؟

وتحيّر ياسين، وبدرت منه ابتسامة خفيفة، فرحًا بنصف راتب موظّف دخل جيبه بمزحة بسيطة، ونظرت إليهما العجوز بفرح.

_ إذا چانت الرخمة أمّ الخمسميّة، لا بالله عجل صوم ثلاثّ ايَام.

- انتم مستهونين بالحْلِفان؟ تحلفون ع الطالعة وع النازلة.. ما يصير يا إبني ما يصير.

- خذا لسانْنا عليها، شـ نسوّي. بس اليوم طلعت ما عرف شلون، بحياتي ما حلفت بالطلاگ.. ياسين هوّ السبب. وغمز أخاه الصغير.

وتنهّد العجوز، ونفض يديه في الهواء، ومرّت لحظاتٌ لم يعلّق فيها أحد، وكان الغروب يكمل مشهد الصمت، ولم يفطن أحد أن يضغط زرّ "النيون" ليعلن فصلًا جديدًا من حواريّة الليل والنهار، واستأنس الجميع بالعتم الخفيف الذي محا

"زعل" الحاجّ من ولديه، ولم يفسد المشهد غير قطعان صغيرة عائدة إلى البيوت، ناثرةً غبارًا خفيفًا، وصراخ الرعاة الصغار، وثغاء الماعز، وجاءت أمّ ياسين بعشاء الحاجّ، فأعانته على النهوض من رقدته، وأسندت ظهره إلى وسادة كبيرة، وقدّمت له الرزّ واللبن في صينيّة صغيرة، واغتنم ياسين الفرصة وتقدّم من عبدالله وهمس في أذنه.

- الحجّة گالت لي انّ الاوراگ.. اوراگ ابوي الاستاذ عبد العليم وجدّي أبو نظمي الله يرحمهم .. عندك.

- ايييييييييييييييه والله ذكّرتني.. بس هذا الكلام قديم.

- يعني ما تّذكّر؟

- ما اعرف.. لمّا رحلت ع القامشلي، چانن مع الكتب، لا... چانن مع أوراگي الخاصّة. هرواح معاي اليوم، نام عدنا وشوف ولد اخوك، من زمان ما شافوك، وتعال ندوّر، بلچي الله نلگاهن.

- اني باچر راجع على حلب.

- تروح من عندي... حضّر غراضك، وودّع الشيّاب، ونكمل التعليلة بالبيت.

- ان شالله خير.

والتفت عبد الله إلى أبيه مستغربًا أنّ العجوز لم تقدّم له شيئًا ممّا جاء به من طيّبات المدينة.

- شـ عجب ما جبتي لو من الكُباب.. جيبي لو صيخين، ترى ما بيهن دهن، يا حجّة لازم يتغذّى.. الرزّ وَحَدو ما يكفّي.

- والله يا عبد الله يا با .. شفتهنّ باردات، گلت الرزّ أدفى على معدتو.

- ما صار شي.. صخّنيهن ع النار.

وتدخّل ياسين بعدما جاء يحمل حقيبته من غرفته

- وين الكباب يمّاا ا، يصير أروح من غير ما نتعشّى سوى؟

- ما شفناك يا ابني.. البارح جيت، واليوم رايح.

- إن شالله عشِرْةِ يَام .. أخلِّص الفحص وارجَع.

- ما شفناك السنة.. من المدرسة على حلب ع الدّير .. جاعد نشتاگ لّك يا إبني.

- لهْ يا حجّي واني؟

- اوووووووووه انت من زماااااااان التبشت بحالك.. ياسين الگُعدة، النشمي، الزين. والغالي، واقترب الشابّ من أبيه وقبّل يده، ورأسه، وأحسّ بندمٍ عابر حين تذكّر كيف عرّف بنفسه للعسكري في القطار "ياسين عبد العليم ياسين" وذرف دمعةً يابسة، وجاءت العجوز بالكباب وقد سخّنته ووضعته في صينيّة صغيرة، وإلى جانبه قطع خيار مقطّعة.

- عجل ما عدكم لبن؟

- لا والله بسّ أشنّ لكم شوية خاثر.

لم يكن دحّام قد ارتاح تمامًا حين فاجأته زوجته بسؤاله عن سرّ غيابه ثلاثة الأيّام الفائتة. تعرف الزوجة زوجها حين يتغيّر، ولا يحتاج الأمر إلى حدّة ذكاء، ولا أدلة وقرائن، وقد صبرت صبحة العايد على دحّام.. صبرت على غيابه المتكرّر في ورديات المناوبة، وحين تأتي إجازته يقضيها في "تعاليل" خارج البيت، وأيّام البيكام لم تبق قرية لم "يتعلّل" فيها، بحجّة ومن دون حجّة.. عزا .. فرح.. إفراج.. مرض.. نجاح.. أقارب وأقارب من يستنجد به، وحين كانت الخضرة تجود بالمال، لم يكن ليقبل أجرًا، كان البنزين رخيصًا كما يقول، ولكنّه في الموسم الأخير صار يقبل تقاضي الأجر مقابل النقل. على أنّ انكساره الأخير كان انتصارًا، صحيح أنّ جيبه خلا من المصاري الملفوفة في جيبه المموارب عند خاصرته، ولكنّه بدا نظيفًا، يزور بيت عمّته وبعض أقاربه في المدينة، وقد وجد في سهام ما ينقصه في حياته مع صبحة: القهوة التركية بفناجين من خزف، كأس البلّور الشفّاف مُلِئ نصفه ماءً، قبضة المكسرات في صحن فنجان. ابنة عمّته العزباء وقد أشرفت على الخامسة والثلاثين ولم يأتِها النصيب. تقول عمّتها بافتخار إنّ سهام رفضت جميع الخاطبين. وتقول أمّ دحّام: "چذّابة" ولعلّ هذا حدث عندما كانت البنت في أواخر الـ"طعش" وبدايات العشرين، ولكن بعدما مرضت بتيفوئيد مزمن تراجع خطّابها وكبرت أعمارهم تدريجيًّا. ظلت الفتاة "معلولة" زمنًا، ثمّ تعافت ووجدت أن شجرة العمر كبرت قليلًا وأنّ العصافير هجرتها إلى شجرٍ آخر، ولم تجد الأمّ المغترّة بحوادث الأمس إلّا أن تنزل إلى الواقع. فأخرجتها إلى سوق العمل، بحثت لها عن عمل يناسب دراستها الإعداديّة، ولكنّها لم تجد وظيفة مرموقة في مدينة تتمتّع فيها فتيات المدينة السريانيات والكرديات بتعليمٍ جيّد، ولم تجد بُدًّا من إكمال تعليمها فآلت إليها كتب أخيها الأصغر، وعادت إلى الدراسة وهي في الخامسة والثلاثين، ولكنّ دحّام كان الكتاب الجديد الذي قرأته باهتمام، واستطاعت أن تنجح في الاختبار.

***

- الله بارك لْنا بالشعير، بس ما حبّيت اگول للحجّي.. عندي شويّة مصاري اسلّفهن للعالم، وطشيت لي شكارة بالجنوب، ربّي لك الحمد، وعشانا اليوم من "دوينة" استافيتها اليوم.

ومسّد ياسين بطنه، متذكّرًا طعم الكباب الذي سخّنته أمّه، ولم يجرؤ على انتقاد أخيه بشأن السلف الذي يتحوّل إلى ربا في كثيرٍ من الأحيان، لاستغلال تجّار السلف حاجة الفقراء وفرض أسعار تبخس الفلاحين مواسمهم، وأشار من بعيد إلى المسألة:

- ان شالله مالك دوم حلال.

ولم يعقّب عبد الله، وصمتا قليلًا قبل أن يسأله عبد الله عن حكايته مع حسنة، وعن شائعات سعدة المحمد، فانتفض ياسين

- اعوذ بالله.. يا رجل شـ تگول، إذا أنت ما تعرف اخوك.. يجون الجناب يحلفون براسي؟

- عفية اخوي.. اني اعرفك ما تسوّي الشينة.

- المهمّ البنت.. الله ييسّر لْها .. آني أريد أدور على أصلي، رغم انكم اهلي، بس إنّي أظل اسمع سالفة "گرعة ابوه" مستحيل، أروح شي نهار أبلش، بلچي ألاگي عندك الاوراگ، بلچي تدلّيني على طريق.. بلچي

- تخيّل انو ما فتحتها..؟ حتى من باب الفضول.. شرايك نروح آني وانتَ، بس اصبر على ما يفضّ الموسم، وألملم "دويناتي".

- خلينا نشوف الأوراگ وبعدين نتفق.

وكان البيكاب قد وصل أمام بيته في ذاك الحيّ الراقي، وكانت القامشلي في تلك الليلة من حزيران تئنّ من وطأة الحرّ، تستنجد بالمراوح أن تخفّف من شدّة الحرّ وهجوم البعوض الذي يتركه الوادي الذي يقسم المدينة قسمين، بعدما نشف تقريبًا. ولكنّ مجيء الأب والعمّ معًا شغل الأولاد الصغار الذين كانوا يرطنون بماردلّية لم تخفِ شاويّتهم.

- عمّو ياسين.. اشتقتو لك.

- حبيبتي ندى.. شلونچ.

- بألف خير عمّو.. ياو .. اش متغيّر .. من زمااان ما شفتوك.

ونظر ياسين إلى عبد الله يستعجله في البحث عن الأوراق.

- خلنا ناخذ نفسنا.. ذبحنا الطريق.

وقامت ندى إلى المطبخ، فاستدرك ياسين:

- خيتي.. ترانا متعشّين، سوّي لْنا گهوة سكّرها خفيف.

- تكرم عيونك عمّو

وفتحت زوجة عبد الله رفقة ابنها البكر ثائر باب الحوش، كان ياسين يظنّ أنّهما نائمان لم يشأ عبد الله إيقاظهما، فتقدم نحوها وقبّل يدها، قبّلته وطفة الحسين بفرح غامر، ولم تكن وطفه أخته في الرضاعة، بل كانت أمّه حين أرضعته أخًا لابنتها البكر خاتون، ولكنّ خاتون ماتت صغيرةً لارتفاع مفاجئ في حرارتها، وعلى الرغم من خبرة أبيها الواسعة في التمريض والطبّ لكنّه لم يستطع تدارك الأمر، ولعلّه غفل

عن ملاحظتها فلام نفسه كثيرًا، وكان ذلك أحد أسباب انتقاله إلى المدينة ليكون أولاده "المطعطعين" على مقربة من المشافي والأطباء.

- شلونك ياسين.. ترى تهيّرت تا اجي ازوركم لمّا سمعت انك مرضان بس گالم ثاني يوم راح على حلب.

- الحمد لله .. نفذنا منها.

- الله كريم يا ابني.. الله يبعث لك احسن منها.

وصمت ياسين، وخرج عبد الله من المكتبة محبطًا.

- ها جيتم.. شـ گالِ لُكم الدكتور.

- خير ان شالله.. گال لي لازم انام ع الأرض شهر وما أشتغل شي.

-الحمد لله.. هالمرة التزمي بالتعليمات.. وهاي بناتج ما شالله عزبات. الأوراگ والكتب الـ جبناهن معانا من الجرية.. ما ني لاگيهن.

- أي حطّيتهن فوق السقيفة العام الماضي.

- فوق السقيفة ؟ ليش؟ هذن شجيج باميا ولا كتب؟

- لا تخاف .. مصرورات مثل ما هنّ.. بس لمّا جم ربعك يزرونك .. رفعتهن فوق على أساس ارجعهن.. ونسيت.

- الله يسامْحِج يا ام ثائر.. يا الله يالله .. عندنا سلّم؟

- لا والله.

- شلنا بالسلّم .. آني أرگى واطالعهن.

- ما تستهدي بالله ونطالعهن الصبح.

- لا والله.. الحز.

- ثائر.. تعال ساعد عمّك... شوفوا لي وين البيل.

وامسك ثائر برجل عمّه ليرتقي بمساعدته نحو السقيفة الخفيضة، أطلّ برأسه على بقايا المونة، فيما كان عبد الله يسلّط الضوء على البقعة البعيدة، وطال بحث ياسين، والفتى المراهق الصغير يعاني فساعدته ندى، ياسين يخرج بيده أكياس المؤونة وقطرميزات الجبن الجديدة، ويمدّ يده في الفراغ، وطلب منهم أن يرفعه أكثر، ففعل الصبيّان بمشقّة. وسمع الجميع صوت كيس النايلون وخشخشة أوراق خافتة، وصرخ ياسين

- وجدتها.

وهبط الشابّان نحو الأرض مهدودَين، وارتفع صوت ياسين مرّة أخرى، وتذكّر الجميع أرخميدس الذي يعرفه جميع الطلّاب في الصفّ السابع.

وفي غرفة المكتبة حين فرشوا له، لم يشعر ياسين بحرّ المدينة وجدرانها الإسمنتية الكتيمة، وفتح صرّة فيها دفاتر كتب قليلة، أصابها عطنٌ خفيف من أثر الرطوبة. وتحيّر الفتى ماذا يفعل، وفكّر أن يؤجّل قراءة كنزه المنتظر بعد امتحان "الأحوال الشخصيّة" ولكن هيهات.. وقلّب في الدفاتر بسرعة. وقرأ في مقدمة دفتر مربّع سميك "عبد العليم ياسين- إدلب- حارم- قرية الجارمية"

وصرخ ياسين بجنون: وجدتها.

(٣٩)

- يا حيّ الله.. إيمت جيت؟

وتثاءب ياسين الذي استيقظ على صوت مفتاح الشقّة، بعدما وصل صباحًا، فأسرع إلى الشقّة، وحمد الله أنّه لم يجد أحدًا ففتح صرّته وفتح الباب والنافذة المقابلة ليمرّ تيّار هواء، وفتح صفحات دفاتره وقد صبغت حوافّها بلونٍ أخضر باهت، وتمدّدت الخطوط، ولكن ليس إلى الدرجة التي أفسدتها، ولفته صفحة مسطّرة كتبت بخطّين مختلفين، خطّ واحدَ واضح: "عبد العليم صالحة ياسين"، تلاه خطّ متعثّر "عبد العليم صالحة ياسين" يصعد في محاولة ويهبط في محاولة أخرى. وقال لنفسه لا بدّ أن أبي كان يعلّم أمّي الكتابة، ربّما كان هذا في الأيّام الأولى لولادتي، ثم استعاد القراءة، ولامس خطّ أمّه المتعثّر، ووضع سبّابته فوق خطّ أبيه الملمّ بخطّ الرقعة كما كان يمهر فيه جيل الأوائل، وغامت عينا الفتى، ووضع ودفن وجهه في الدفتر، وبكى وأجهش بالبكاء، وكان وحده، ولكنّ خوفه من إفساد الدفتر جعله يضع الدفتر على الكرسيّ الذي ثبّته بين النافذة والباب، ثمّ وضع وجهه في منشفته الشخصية وأكمل البكاء... ولم يدر ما الذي أتعبه بالضبط، السفر الطويل؟ أم أوراق أهله المنسيّة، واستجاب جسده النحيل لنومٍ عميق، لم يدر أنّها الرابعة حين فتح ناصر الباب، ويسأله "متى وصلت؟". فأجابه، وهو يفرك عينيه بإصرار، ويتثاءب:

- الصبح اليوم بس شفت حالي تعبان وما جيت ع الجامعة، على كلّ حال مادتي باچر، وان شالله ألحگ أراجعها.

- شـ هالاوراگ المنثّرة حواليك؟

وانتبه ياسين حوله، فقام كالمفزوع يلّم الأوراق التي أثّرت فيها نسمات الهواء الهاربة من حرّ حزيران إلى نافذة في الطابق الرابع، وراع ناصر ما رآه من فزع ياسين وارتباكه، ولم يعلّق.

***

لم تكن صبحة العايد تظنّ أنّ شباك دحّام منصوبة في القامشلي، وقد أمنت أنّ حسنة وأهلها ليسوا راغبين فيه، ولكن كيف يرضى أهل سهام أن يزوجوها في السرّ من رجل في حيطان الأربعين؟ ومن يدريك يا "مهبولة" أنّه تزوّجها في السرّ؟ بالتأكيد فإنّه أخذ شيركو وبعض زملائه الجدد في حقول رميلان، وشربوا القهوة، وقرؤوا الفاتحة، ولم يشترط عليه أهلها أن يأتي بأهله.. يا حيف، ليس زواجًا بالسرّ بل هو أخو السرّ، ولم يكن دحّام حوّله لتعبّر عن غضبها بشيءٍ يخصّه. ترك البيت، وأمّه وأبوه ساخطان وقد انضمّا إلى المسكينة الوالهة وقد أدركا أنّ المفاجأة شلّتها. وكان دحّام قد استلم موسم الشعير من أرضهم التي في الجنوب قبل يومين ولم يخبر الأب، على الأقل ليوفي باقي دين محمد سراج، وقبل أن يصرف موسم العائلة وتعبها على عائلة "عبيّان"، وكان أبو دحّام يضع في خانة عبيّان كلّ المغضوب عليهم ساعة العاطفة العمياء، وقد اختار لها والد سهام الموظّف الذي ترك الصفرة في الستينات وراء زوجته الحضرية. إسماعيل المحمد الرجب، موظّف البلديّة، وقد أثرى وظهرت عليه النعمة أوّل السبعينات، ثمّ غاب عنهم كثيرًا، حتّى العام الفائت حين استعاد علاقاته، ليشارك فلاحيها زراعة العدس.

كانت حسنة بدأت تمشي للتوّ، وتكثر النظر إلى جرحها في المرآة فتكّدر خاطرها، ولم تفلح محاولات أهلها لتطييب خاطرها، وخرجت لتمشي في الحقل قبل الغروب لتروّح عن نفسها، وتذرّعت أن تأخذ الشاي لفيّاض، وحين وصلت إلى الخضرة فوجئت بصبحة العايد تقطّع عروش البندورة، فصرخت بأهلها في الغريفة

البعيدة، فركضوا نحو البنت المفزوعة، ولم تكن العجوز أوّل الواصلين، فاكتفى فوّاز بتنبيهها

- يا بنت الحلال شـ تسوّين.

- المرة ما هي بوعيها يابا

- عويذ الله من شرّج يا حرمة.. هذا رزقنا.

وتحرّج فواز من إمساك المرأة، ونظر إلى ابنته مستغيثًا، ولكنّ الفتاة الناقهة لم تقوَ إلّا على الصراخ، ونظر الجميع إلى العجوز التي لم تدركهم حتى الآن مستنجدين.

- ولي يا عدلة تعالي.. صايرة مرة وعيب أگوسها.

وكانت صبحة قد انهدّ حيلها تمامًا عندما وصلت أمّ حسنة، فأمسكتها العجوز، واستسلمت المرأة الوالهة للعجوز.. ثمّ بكت، فاحتضنتها المرأة وهي تنظر إلى الكتيبة المندهشة خلفها، نظراتٍ آمرة بالابتعاد..

- ولي صبحاا شبيج؟

- دحّام.. تجوّز عليّ.

- الزلم ما لهم أمان يا بنتي.. بس هذي مي آخر الدنيا.

وعادت الكتيبة أدراجها إلى البيت، وكان الشاي قد برد تمامًا، ونظرت حسنة إلى فيّاض الذي التحق بهم متأخّرًا، وابتسمت وأشرق وجهها:

- ما لك نصيب بالچاي.

- أشربو بارد.

وضحكوا بأصوات خافتة، كي لا تصل أصواتهم أمّهم التي تقدّمتهم أمتارًا، وفي يدها المرأة المسكينة.

***

عاش ياسين أيّامًا يداعب أوراقه ويجفّفها، لا تأخذه منها غير التحضير للامتحانات، وفكّر أن يترك الامتحانات، ويسافر إلى حارم، ولكن ينتابه شعور بالذنب كلّما انصرف عن الدرس والمذاكرة، وقلّ حديثه مع زملاء الأمس، الذين دعوه غير مرّة للخروج معه إلى الحديقة العامّة، أو التسكّع في باب الفرج أو شارع التلل، لشراء قميص جديد، أو مشاهدة فلم سينما، ولكنّه يعتذر بشدّة، ويغتنم فرصة خروجهم للهروب إلى كنزه الصغير وقراءة جذوره البعيدة.

ولم يكن ما يقرؤه مكتوبًا بقصد توثيق أيّام عبد العليم في الصفرة، بقدر ما كان دفتر تمرين، شاركته فيه صالحة، وهوامش على الكتب، ولم يعرف عن جذور الأب غير "الجارمية" القرية الملحقة بحارم، وقد سأل من واجههم من زملائه الأدالبة عن حارم، فعرفوها، ولم يعرف الجارميّة أحد، غير عدنان الحمدو من سلقين.

- بعرفا منيح.. صايرة بينّا وبين حارم.

وخفق قلب الفتى، وهو يستمع إلى الشابّ، الذي وصف له الطريق الذي سيسلكه في الغد.

- تروح الكاراج.. كاراج المنشية تبع باصات الشام، هنيك بتشوف بالزاوية بوسطات طالعة ع إدلِب ونواحيها، وتشوف بوسطات حارِم، وتركب.. شي ساعة

ونصّ .. ساعتين بتوصّل حارِم، ومن هنيك أيّ موتور أبو دولابين يوصّلك.. لا تدفع أكثر من عشرين ليرة ها.. ترى إذا شافوك غريب يغلّو عليك السعر.

- الله يعين.

- طريق حارم حلو كتير، وخصوصًا بها الأيّام، بساتين وشجر وقرى ع الطريق، "خان العسل بعدين أورم الكبرى وبعدين أورم الصغرى وبعدين تجيك الدانا.. وبعدين سرمدا .. وآخر شي راح تضلّون كم راكب، ويمكن الله يبعث لك حدا من الضيعة نفسا".

وانتاب ياسين قلقٌ شديد، وكاد أن يتراجع ويحزم حقائبه إلى القامشلي، ولكنّه تشجّع ليكمل الفصل الأخير، وصرخ صرخة عميقة في داخله: "بدّي أروح وشـ ما يصير يصير". ولم ير زملاؤه في الشقّة غير هزّة قبضته في الفراغ.

(٤٠)

في الطريق إلى المنشية الجديدة وقف قليلًا في باب جنين، وفكّر أن يشتري شيئًا ما، وسرعان ما طرد الفكرة من رأسه؛ إذ إنّه ذاهبٌ إلى مجهول، لا يدري ما السلوك الذي يناسبه، وتخيّل أن عجوزًا واقفًا في بيت أهله القديم، فيسأله: "هين بيت الياسين" لالا: يجب أن يقول "عمّو.. هون بيت الياسين؟".. لالا: "السلام عليكم يا حاجّ.. إذا ممكن.. جاعد ادوّر على بيت الياسين.. لالا عمْ دوّر على بيت الياسين .." اوووووه .. على أيّ حال سيكتشفون شاويتك سريعًا على الرغم من بنطالك الجديد وقميصك الأبيض المكويّ. وحانت منه التفاتة إلى اليمين وهو يقترب من الدكاكين هاربًا من شمس الضحى نحو بائعي الخضرة وقد بدأت البندورة تتسلّل إلى دكاكينهم، وسلال التين، وأكوام "الجانرك" والخوخ، ونظر إلى الشمس ثانيةً وقد رمحت بعيدًا وصارت أكثر قسوةً.

تمنّى أن يرافقه ناصر، ولكنّه تخوّف من عقابيل رحلةٍ مجهولة في أوضاع أمنيّة صعبة في الحرب الدائرة، وخاف أن تسأله دوريّةٌ على الطريق عن هويّته فيردّ عليه ناصر ردًّا يثير غضبه فيعتقله. وتمنّى أن يأخذه عدنان الحمدو معه إلى حارم، ولكنّه لم يستحسن هذا الطلب، وقال لنفسه: "لو أراد أن يرافقني لفهم من تعريضي أنّني أريده رفيقًا، لكنّه اكتفى بوصف الطريق، وكأنّه يقول لي اذهب وحدك.

كان ياسين قد تجاوز باب جنين، واقترب من المنشية وكاراجها الجديد، وكان ثمّة فتيان صغار يبيعون العلكة والسكاكر، ومعاونو الشوفيرية يصرخون إعلانًا عن الرحلة الأخيرة للسيارات الذاهبة إلى حلب وحمص وحماة وإدلب واللاذقية، وخطر

له أن يملأ معدته الخاوية بصحن فول من المطعم في زاوية الكراج، ولكنّ قلقه وفرحه منعاه من ذلك، ولكنّه اشترى "صندويشة فلافل" وكازوزة سينالكو برتقالية، والتهمها مسرعًا، ودفعها بجرعات من مشروبه البارد، ومشى بين الباصات في العمق، ووجد بوسطة صغيرة مكتوب عليها "حلب- حارم".

***

قلقت أمّ دحّام كثيرًا من أجل كنّتها، ونظرت إلى أولادها الصغار مشفقةً عليهم إن حدث للمرأة مكروه، ودعت على ابنها: "ربتك يا بنيّي بالوجع الـ. " وتراجعت في خوف.. "الله لا يجعل" بس تعال شوف شـ سوّيت يا فاين السعد.. من خيبتك.. من الفلاحة ع الجيزة المو مبيّن ليها راس من ساس؟ يَوَلْ.. يااا وَلْ.. والله ما حدا مسخّم بها الدنيا غيري.

ولم تكن الشمس قد استيقظت تمامًا حين قامت المرأة تساعدها حفيدتها الكبرى لوضع الفطور لأحفادها، وكان أبو دحّام قد ذهب إلى الملّا سعيد، لعلّه يرقي المرأة فتهدأ حالتها. جاءت الصبيّة بالشاي والخاثر وخبز الصاج في صينيّة كبيرة، التمّ حولها الأولاد، وسكبت لهم في الكؤوس الفارغة المحيطة بالصحن، ولم يبق لها كأس. بحثت بعينيها وسألت حبّابتها، فلم تجد، وتذكّرت أنّ كثيرًا من الكاسات كانت من ضحايا هوجة كنّتها بالأمس، فصمتت قليلاً، وقالت لحفيدتها:

- تداوري انتِ واخوچْ.. البارح واحْنا نتداور بالخواشيگ والكاسَات.

وتناوب الطفلان على كأس واحدة، يدفعان بالشاي اللقم المتسارعة، ويستزيدان من الخاثر الذي اختلط بلبن الماعز الخفيف، ففقد شكله وطعمه الواخز، وذلك بعدما جفّت ضروع الماشية، ولم يبق إلّا بعض النعاج التي تأخّرت في الولادة، أضيف إليها لبن الماعز الغزير. ومن بعيد كان أبو دحّام يقود الملّا سعيد، وهو يردّد

"خير.. خير.. إن شالله خير" وكانت المرأة المهدودة قد نامت بعمق، إلّا أنّها تهذي في أثناء النوم، بكلامٍ غير مفهوم، وحين سأل الملّا أمّ دحّام عنها، هزّت رأسها بأسى:

- كلّ الليل تهذرب يا ملّاتنا.. خايف المرة انجنّت دحّگ ع الـ ها وبلاد الدُّگْدُگ .. شـ راح يصير بيهم؟

وأجهشت العجوز، ونهرها زوجها الذي رأى الزواج أمرًا لا يستحقّ كلّ هذا السخط واللوم، ونظر الملّا إليهما طالبًا الهدوء بإشارة من يده.. ونظر إلى المرأة الهادئة في نومتها.

- ان شالله خير.. شوي شوي راح ترجع متل ما كانت، ثمّ شرع يقرأ آياتٍ وأذكارًا، ختمها بدعاء: "اللهم ياشافي يامعافي، اشفِ مرضاك شفاء لا يغادر سقمًا".

وقال للعجوز:

- خلّوها نايمة..من إيمت ما أكلت؟

- صار لها يوم كامل ما حطّت الأجل ببطنها.

- كويّس.. بعد شوي راح تصحا.. إذا طلبت أكل .. يعني ما فيها شي.

- وجهك والخير يا شيخي.

***

كانت البوسطة تمشي على مهل، تلتقط ركّابًا إضافيّين على الطريق، وصرخ به أحد الركاب:

- ولك فطّستنا.. خافوا الله.

ولم يردّ الشوفير، وفتح المعاون نوافذ البلّور الصغيرة، فملأ الهواء البارد فضاء البوسطة المخنوق، وملأ الركّاب الجدد كراسي الخشب الصغيرة في الممرّ الضيق، ووقفت البوسطة مرة أخرى لرجل وامرأة يحملان أكياسًا، وصرخ به الركاب:

- ما ضلّ محلّ.. وين بدّك تحطّون؟

- اِنتِ شايلون على كِتفكْ؟

وردّ شابّ في الثلاثين.

- ولك ما بتشبعو؟

ولم يردّ السائق الذي أوقف البوسطة وفتح المعاون الباب للزوجين، وركض الرجل وراء الباص الذي وقف بعد أمتار، ومدّ وجهه حتى امتلأ به الباب الصغير، ونظر إلى الشوفير:

- عَ حارِم؟

- اي.. يا الله طلاع.

وصعد الزوجان وقد ووجها بنظرات الركّاب، فوقفا قليلًا، قبل أن "ينتخي" أحد الجالسين ليقوم عن المرأة، وقام ياسين من كرسيّه مناديًا الزوج:

- يا عمّ .. خلّي الحجة تبرك هين

واستدرك ليقول "هون"، ولكنّه أيقن أنّ شاويته انكشفت، أمام مجتمع البوسطة الصغير، واعتراه قلقٌ خفيف من أن يستثمر أحدهم هفوته الصغيرة، ليسأله: "منين؟" أو "وين رايح؟".

حين جلست المرأة وقف ياسين والرجل متقابلين، وهشّ العجوز في وجه ياسين:

- شكرًا يا ابن الأصول.

- على إيش يا حجّي.. واجبنا.

ولم يكملا الحوار، فقد حدب الرجل الخمسيني على كرسيّ زوجته، وانشغل ياسين برؤية الطريق إلى حارم، وقد علت شمس الظهيرة فوق جبالٍ وأودية وبساتين، تصعد البوسطة وتهبط، وتقف لينزل مغادرون، ويصعد قادمون، ووجد قُبيل الأتارب كرسيًّا صغيرًا فارغًا دعا إليه الرجل الخمسينيّ، فرفض بشدّة، وبعد دقائق توقّفت البوسطة لأربعة ركّاب نزلوا فأوسعوا لهما، وجلسا معًا، وتنفّس الرجل الصعداء، بينما ظلّ ياسين أسير مشاهد متكرّرة في الريف المختلف، ولم يشأ أن يفتح حوارًا مع جاره ليخفي اختلافه ولو موقّتًا، ولكنّ الرجل بادر يسأله ويحدّثه امتنانًا لموقفه النبيل.

- وين رايح يا ابن اخوي؟ كمان حارِم؟

- اي والله.

- من وين حضرتك؟

- والله يا عمّ أنا مو من هون.. من الجزيرة، بس لي جماعة من هون رايح أزورهم.

- من أيّ ضيعة؟

- الجارميّة.

وهزّ الرجل رأسه، ولم يقل شيئًا، وتوجّس ياسين، وسكت قليلًا، ولكنّ شيئًا أكبر من الفضول دفعه ليسأل:

- تندل وين صايرة؟

- إي طبعًا.

وسكت الرجل ثانيةً، ونظر إلى الشجر المحيط بالطريق، وأخرج من جيبه علبة التبغ المعدنية ولفّ سيكارةً وقدّمها لياسين.

- تفضل ابن اخوي.

- عشت... وتناول السيكارة ومدّ رأسه إلى الرجل الذي أشعل له قدّاحة الغاز الصغيرة، فشكره بوضع يده على رأسه، وأخذ نفسًا عميقًا، وهو يتابع الطريق، فيما تباطأت البوسطة، وصرخ المعاون:

- ركّاب سرمدا.. ياالله.. ياالله.

***

لم تفسد صبحة غير خطّين من الشجر؛ لم تقتلعها من جذورها، ولكنّها "عرمطتها". أصلحت أمّ حسنة الشجيرات المكسّرة، وحرّكت حولها بالفأس، ولمّت الخصَل المبعثرة، ونظرت إلى ابنتها وقد علت فوقهما شمس الضّحى، وسال عرقٌ غزيرٌ فوق وجنتهما، وأشارت الأمّ إلى ابنتها أن تجلسا قليلًا، ومن بعيد جاءهما فيّاض ببطّيخةٍ صغيرة، صارخًا من بعيد:

- بسعد مييين؟

وابتسمت حسنة، وقاطعته الأمّ بنبرة لوم:

- يا ولْ خاف انّها حارّة؟

- لا لا مغبّيها جوّا الهروش.

- تعال تانشوف.

وجلس الثلاثة وبينهم بطيخة حمراء حلوة الطعم، وتمنّت الأمّ لو أنّهم جلبوا خبزًا يسكت جوعهم إلى الغداء. ولكنّهم يعرفون أنّهم بعد ساعة أو أقلّ سيغادرون إلى البيت قبل أن تؤذيهم شمس تمّوز. وفي ظلّ شجيرات دوّار الشمس، تذكّرت الأمّ زيارة صُبحة الأولى لهم، وقد طعنتهم بتكبّرها:

- هذي آخرة شوفة الحال.. شفتيها لمّا جتنا؟ عيونها بالسما.. الكُبرة لَـ الله.. هذي تاليتها يا بنتي.

- حرام عليج يمّا.. المرة الله يعينها، ضيّعت عگلها.

- انتِ زاد صرتِ لي شيخة؟ اني اگول هذي تاليةْ شوفة الحال.

- هذول احنا العرب.. بس يصير عند الواحد مصاري يا يشتري سلاح ويبلش، يا يتجوّز على مرتو.

وتذكّرتا معًا عاصي الذي أخذ مسدس أبيه ليطلق به في العرس، نعم .. هم أيضًا دفعوا ثمن الكبرياء الكاذب، وكان لهم نصيبهم من أثر الثروة المفاجئ. ونادى فيّاض.. الدبشية اليوم بسعد عاصي، ولم تقاوم حسنة البكاء، وقد أضمرت أنّ الدبشية "بسعد ياسين".. نعم ياسين أو عاصي .. وما الفرق؟

***

كانت البوسطة تصعد وتنزل وتتلوّى مع الطريق، وتقترب من الحدود التركية وتبتعد، ولم تفارق عينا ياسين مشاهد الجبال والوديان والبساتين، وكان جاره قد أشعل سيكارة أخرى، ولم يبق في البوسطة غير ركّابٍ قليلين سينزلون في كاراج المدينة الصغيرة، والتفت الرجل إلى الشابّ ثانية:

- على بيت مين رايح بالجارمية؟

- الياسين.. بيت الياسين.

- والله سمعان بها العيلة.. اي في عيلات الياسين والسمعو والقدّور ... اي وكمان في بيت الحاج قاسم.. اي في عيلة الياسين.

واضطرب قلب الفتى، حين أكّد الرجل، وكاد أن يعيد صرخته "وجدتها" حين وجد الدفتر والأوراق، ولكنّه تماسك قليلًا، ولاحظ الرجل انفعال الشابّ:

- بسّ اليوم ما انت رايح. انتَ اليوم ضيفي يا بن الاجواد.

- لا والله يا عمّي.. لازم أوَصّلهم على ضو.

- مو على كيفك.. انت ضيفي اليوم.

***

وصل الباص محطّته الأخيرة في الكاراج، واقترب سائقو الدرّاجات الناريّة علّهم يلتقطون راكبًا، وأشار الرجل إلى بيكاب صغير، وقال له:

- ابن اخوي الجارمية قدّيش بدّك؟

"كـــــرج الحمامة* لي أكبل المربوع

انْ ما انطمْ عمامة* لازم حدانا يموت"

(٤١)

لم يعترض ياسين، على الرغم من أنّه ارتبك في البداية، بل شكر الله الذي لم يعرّضه لمحنة السؤال في ساحة حارم عن قرية اسمها "الجارميّة"، فاصَلَ الرّجل سائق البيكاب، وبعد مساومةٍ مرهقة وصلا إلى سعرٍ مناسب، وقبل أن يركب حَشَرَ ياسين بينه وبين الشوفير، وأجلس زوجته النحيفة أقصى اليمين، والتفت إلى الصندوق ليطمئنّ على أغراضهم.

كانت الثانية ظهرًا حين عبر البيك اب شارع حارم الرئيس، مارًّا بالقلعة المهيبة والبيوت القديمة، وبعض العابرين في القيلولة عائدين إلى بيوتهم، وقد أقفلوا الدكاكين. يتّجه الطريق جنوبًا، مغرّبًا تارةً، ومشرّقًا أخرى، شاهدًا تحية الشمس الحارّة تلقيها على الزيتون العجوز في الحقول، وقطعان الحجارة البيضاء المتشبّثة بالسفوح. تحدّث الرجلان عن الحرّ والمواسم وياسين يسمع ولا يسمع، منصرفًا إلى حواريّة الشمس والجبال، متابعًا كلّ مشهد يُحدِثه مسير البيك اب البطيء، لا يريد أن يضيّع أي تفصيلة صغيرة من حجارةٍ مهدّمة، وقرى متناثرة بين أحضان السفوح، وبادل تكتّم الرجل، بتكتّم مقابل، يريد أن يلعب لعبة الشجاعة إلى آخرها. فبعد قليل سيحكي الرجل عن رفيق الرحلة، ولا يريد أن يتسبّب بالخزي لأهله (الجدد)، وبحث عن بديل لـ (الجدد) فيما البيكاب يشخر عند طلعةٍ عنيدة أثارت خوف المرأة فصاحت "يا ستّار". نعم هم الأهل القدماء الجدد المضيَّعون المضيّعون. ولم تكن المعلومات القليلة في أوراق الأستاذ عبد العليم تمنحه الإجابة الصحيحة، ولكنّه حين هبط البيك آب بسلام، فكّر في "كونتا كانتي" من جديد، وتذكّر الجزء الأوّل حين تعرّف أخواله في دير الزور، وشكر لحسنة وأهلها أنّهم

منحوه بزيارةٍ وحيدة، ثروةً طائلة من الحنان، ولم يكلّفه الأمر غير طلقة عاثرة في الكتف، وتوجّس فجأة ونظر إلى الرجل اللاهي في الأحاديث مع الشوفير عن الأحوال والسياسة والحرب والاضطرابات في البلاد، واحتدم بينهما نقاش لم يتطوّر إلى خصومة، حين وصل البيكاب أمام قرية صغيرة في حضن جبل صغير:

- من هون ابن اخوي..

- أمرك عمّو.

- هاي هيّ الجارمية استاز.

ولم يتمالك ياسين نفسه أن يصرخ.

- هاي هيّة؟

وتمالك نفسه، فلعبة الشجاعة لم تنتهِ بعد، وربّما هي الآن في دورها الأكثر دقّةً وصعوبة، فضبط انفعالاته، وبحث عن مبرّرٍ لصرخته المفاجئة:

- تفاجأت.. من كثر ما حكى لي صديقي عنها.

وابتسم وهو يخطف عينه نحو صندوق السيارة، حيث صديقه ذاك الدفتر المطويّ في حقيبته، وقد خصّ الجارميّة بجمل قصيرة، تحدّث فيها عن الجبل، والماعز، وحارة الحاج قاسم.

- يعطيك العافية وابن اخوي.. تفضّل ع البيت.

- تسلم يا حجّي.

ونقده الرجل قراطيس ماليّة قليلة، فأعاد له الشوفير شيئًا من النقود المعدنيّة، وعاد شوفير البيك اب إلى الطريق، ملوّحًا بيده، ونظر ياسين إلى القرية بعين زائر محايد؛ قرية صغيرة ربّما أصغر من الصفرة، بل هي أصغر، تستند إلى ظهر الجبل، وتستقبل الجنوب، ولم تكن الثالثة عصرًا تسمح لزائرٍ جديد أن يقرأ وجوه الناس، ولكنّه نظر إلى السفح وكأنّه يرى أباه عبد العليم يركض وراء الماعز هناك.

- حيّ الله ابن اخوي.. فوت.

- أوّل شي اعطوني بريج ميّ... أروح اتوضّا.

- لا تروح بعيد.

ولم يقف ياسين، كان في يده إبريق الماء النايلون، وصعد السفح قليلًا، ثمّ صعد، وصعد، ومرّت نسماتٌ خفيفات أنعشت قيلولة الشجر المخذول فتحرّكت أوراقها وكأنّها تحيّي الشابّ الغريب. وقال ياسين: لعلّها تحيّي الأستاذ عبد العليم الذي يختفي في ثيابي، وانخنق بكاءٌ في صدره، وكاد أن يجهش، لولا تذكّره أنّ لعبة الشجاعة لم تنتهِ بعد.

***

جُنّت الخضرة في الربع الأوّل من تمّوز، ولم تكفِ الصناديق التي جاء بها فوّاز من الدلّال، وفكّر أن يُبقي شيئًا للدبس، ولكنّ وقت الدبس مبكّر، وضرب كفًّا بكفّ وقد هبطت أسعار البندورة التي تسابق الفلاحون إلى زراعتها، ولم يكن في مقدور المدينة الصغيرة تصريف هذا المنتج. وفكّر الرجل أن يستأجر بيكابًا لبيعها في القرى البعيدة، واستبعد الفكرة، وخطر له أن يشتري لعناد ميزانًا ويجلسه في إحدى حارات المدينة، ولكنّه في حاجة إلى الشابّ في سقي الخضرة، ورعاية البيت في غيابه،

وضرب كفًّا بكفّ.. وأخرج من جيبه علبة التبغ المعدنية، ففتحها ولفّ سيكارة، والتفت إلى ابنته راجيًا

- ول يمّا سوّيْ لْنا چاي.

وسمعته زوجته، فسألته عمّا سيفعل بالثمار التي على الشجر من دون صناديق، ولم يُحرِ الرجل جوابًا، ولكنّه حين نفث النفس الأوّل من سيكارته، هزّ رأسه يائسًا.

- لو جاي عاصي.. چان مشى الحال.

- والله نسينا عاصي بهاالدّوكة.. بي شي جديد؟.

- اي والله .. جاي تا أبشّرچ.. بس وضع الخضرة نسّاني.

- ينعن أبو الخضرة.. شـ بي عاصي؟

- المحامي باعث لي خبر.. ان شالله على أوّل الشهر الجاي، يطلع.

-لولولولوووووش.. عفية ربّي... لولولوووووش.

وهيمنت سعادة عابرة، وكان اختبارًا لكتف حسنة أن تحتمل تصفيقها، وتلويحها بيديها للحياة التي ظلّت تهزمها، وتضع في طريقها اختبارات صعبة، ولكنّ مجيء عاصي سيساعدها على الأقل أن تبتسم رغمًا عنها، وتفتح بابًا صغيرًا للأمل، وتمنّت لو أنّ شيئًا لم يحدث في السنة الأخيرة، لا الهجرة إلى الجزيرة، ولا تعلّقها بياسين، ولا مغامرة الزراعة التي شغلتهم، لو أنّها ظلّت هناك في قريتها الصغيرة على كتف الفرات، وتتعرّف ياسين بشروطها، كأن يكون معلّمًا في مدرستهم، يرى بنفسه حظوة حسنة ودلالها في قرية "التايهة"، واستعجلها أبوها الشاي ففطنت إلى الإبريق وقد كاد يطفئ النار وهو يغلي فيفيض الماء الملوّن المغليّ عن جوانبه.

- هذا الخبر بدّو شراب.. داندرما.. دبشيّة.. ما بدّو چاي يا بو عاصي.

- خلّوني أشرب الچاي گبل ما تخلص السكارة، وبعدين يصير الـ بدكم ايّاه... خذ فيّاض، هاك روح جيبْ لْنا داندرمة من الدكّان، وأخرج من جيبه ورقتين من ذات العشر ليرات.

- لا لا بـ هالحرّ ما هو رايح.. بي دبشيّة بالغرفة الثانية.. باردة، روحم حزّزوا لْنا ايّاها..

وأعاد فواز النقود إلى جيبه، ثمّ أخرج جميع ما في جيبه، وطلب من زوجته أن تأتيه بما عندها من الـ"مصاري" التي وضعتها تحت سجّادة النسيج القديمة المطويّة تحت "النضد" وتحلّقت العائلة الصغيرة حول الأب وهو يفرز أوراق الخمسميّة "الرّخَمَة" عن أوراق المائة الزرقاء، وراح يعدّ بهدوء، والمرأة تعدّ معه في سرّها.

- اثنعش ألف وثلاثميّة.. ألف نعمة.

- وراهن الحصبة والجدري.. الأدوية وابو البيكام وحصّة دحّام.

- والوديّة؟ اشوفك نسيانها.

- لا والله ما ني نسيانها، بس انتِ الـ "نسيانة" الوديّة ع الفخذ كلّو، و يلحگنا مثل ما يلحك أيّ واحد من أهلنا.

وقلبت المرأة شفتيها، وتراجعت دهشتها، وجاءت حسنة بالدبشيّة، وانطفأت حماسة الأمّ فجأة، ولم تجد حسنة وفيّاض من يقاسمهما اللُّبّة، فتناصفاها فرحَين، وقامت الأمّ إلى مخبئها السريّ تضع الـ "مصاري" وقد سمنت قليلًا، ونظر إليها فوّاز وقد أدرك سرّ إحباطها:

- الله كريم.. بس يلحگ البطيخ "الأناناس" يعوّض علينا خسارة البندورة.. يا ولّم خلّوا لْنا شي من الدّبشيّة.. واستعادت الأمّ حماستها، وقالت:

- اليوم المغرب وانت جاي من الدلّال تجيب معاك داندرما.

***

كان الغروب في الجارميّة مختلفًا؛ إذ تختفي الشمس خلف الجبال مبكّرًا، فتسدل على المكان ظلًّا شفيفًا، يمكن تسميته الغروب الأوّل، قبل أن تغرق الشمس في مثل ليرة ذهبية في طاسة بحرٍ بعيد. أحسّ ياسين بصداعٍ خفيف، وبغربة ثقيلة، وببردٍ مفاجئ.

- ما شربت شايك يا بن اخوي.

- راسي يوجعني يا حجّي... ما عندكم.. حبّة وجع راس؟

- عنّا.. شلون ما عنّا.. يا ولاد .. جيبولْنا حبّايات وجع راس.

وشفّ ياسين من كأسه، وتناول من يد مضيفه حبّة الدواء، ودفعها إلى حلقه اليابس، وجرع بعدها قليلًا من الماء، وأغمض عينيه قليلًا. وكان بعض الرجال بدؤوا يتوافدون، ويسلّمون على ياسين. رجال بثياب وببنطلونات ورجل بشروال فضفاض، سلّموا على الضيف، وتبادلوا أحاديث المجاملة، ولم يزد أحدٌ على ذلك، غير معرفة اسمه وبلاده: "ياسين العبد اللطيف، من الحسكة". وارتفع صوت أذان المغرب، فمدّ أولاد صغار سجّادة كبيرة، وأقام الصلاة شابّ ملتحٍ، وقدّمه الرجال للصلاة، فقرأ بصوتٍ خفيض الفاتحة وسورة قريش، وارتاحت نفس ياسين لقراءته، وتمنّى أن تطول قراءته، وهو يسمع بجوارحه "وآمنهم من خوف"، ثمّ قرأ في الركعة الثانية الفاتحة والنّاس.

حين فرغوا من الصلاة أبقى مستضيفه السجّادة ومدّ فوقها سفرتين كبيرتين، وجاءت صينيّتا بطاطا بالدجاج، وأطباق المحشي المختلفة، وصحنا فريكة خضراء. انبهر ياسين بطريقة تقديم السفرة، وانتظر أن يقول المعزّب تفضّلوا ليتقدّم.

نظر ياسين إلى الرجال المنهمكين في العام يتساءل أيٌّ منهم يكون عمّه أو عمّ أبيه، وربّما خاله، قرأ سحناتهم وعيونهم وحركات وجوههم وهم يدسّون حبّات المحشي في أفواههم، أيّهم رعى مع عبد العليم الماعز، أو تسلّق الشجرة التي رآها قبل قليل؟

وكانت الوجوه من التنوّع حيث مدّت له حبال الاحتمالات إلى آخرها، ونظر إليه صاحب البيت، وسط معمعة حقيقيّة.

- ابن اخوي مانك غريب.. الأكل على قدّ المحبِة.

وهزّ ياسين رأسه، والتفت إلى الطعام الطيّب، وأكل.

حين فرغوا من طعامهم وشربوا شايهم، طاب لياسين أن يسأل أسئلةً بعيدة عن أهل الضيعة، وعن أصول أهل المكان، ولماذا يلبسون لباس العربان ويتحدّثون بلسان أهل الحضر. وعرف أنّ بعض أهلها جاؤوا منذ زمن بعيد من الشرق أيّام المماليك، وجاء بعضهم سنة الـ "سيعة" مع السفر برلك، حين استبدّ القحط بعرب الفرات، وتوجّهوا نحو الروج، والعمْگ، وجاء الكرد أيّام صلاح الدين، وجاء الترك قبل ذلك وبعده.

- مشكّل ملوّن بـ هالضيعة وكلّ الضّيع هون يا ابن اخوي.

- عدنا نفس الشّي يا حجّي.

ظلّ الغرب السّور الأخضر لعربان الفرات، يأتونه في الربيع يبيعون الجبن والسمن ويقيمون على أطرافه، ثمّ يعودون مع الشتاء إلى الحماد، وفي سنوات آتية سكنت

بعض القبائل أماكن مختلفة، أفرغتها الحروب والمجاعات، الغرب المختصر بـ"حمص وحما" في قصائد عبد الله الفاضل.

وقام الرجال إلى بيوتهم، وحدجه أحد الرجال بنظرة غريبة، ثمّ غادر، وهو يقول:

- اسمك ياسين ها؟

- اي نعم.

- عاشت الأسامي.

- عاش غاليّك.

بعدما غادر الرجال، جلس ياسين مع "معزّبه" القلق، وقال له:

- ابن اخوي خلّيني أقلْ لَك.. أنت من عيلة الياسين.. أنا رميتك ع الدّم.. ؟

- اي والله يا عمّ.

- طيب يا ابني احكي لي.

وشرح ياسين للرجل وصاحب البيت المسكين ينتفض، ويصرخ "يا قوّة الله، يا قوّة الله" حتى استوفى ياسين كلامه، شهق الرجل وحضن الشابّ الغريب.

- عبد العليم كان صديقي.. من أوّل ما شفتك.. قلت هاد عبد العليم.

وفي الحال طلب من ابنه أن يجلب ابن عمّه مع موتور الياماها.

- يا الله ابن اخوي قوم.. ما في وقت.

- خير ان شالله يا حجّي.

- نكمّل سهرتنا بغير مكان.

وفي الحال ركب الرجلان وراء الشابّ صاحب الموتور، وقال له الرجل.

- خدنا ع الداودية.

- خوّفتني يا عمّ.

- خلّينا نركب الطريق واحكي لك.

كان الياسين قد تخاصموا مع بيت الرمضان أيام الوحدة، في البداية قُتل رجلٌ من كلّ فريق، وبعد خمس سنوات عيّرت امرأة من الرمضان أولادها أنهم "ما هم زلم" وآل الياسين أقوى منهم. ابنها الصغير الشابّ حمل بارودة أبيه، وقتل ثلاثة من الياسين. ظلّ العالم يحرسون الرمضان سنة كاملة، حتى الصلحة الكبيرة التي رعاها مشايخ حلب، وبعد شهرين كان شابّ متهور من الياسين قد قتل سبعة من الرمضان. هاجت القرية وماجت، وفي النهاية لم يكن بدّ من رحيل العائلة بعد صلحة أخرى.

- ربّك حميد ما اشتلؤوا عليك.

"بكت عيني اليسرى فلمّا زجرتها

عن الجهل بعد الحِلم أَسبَلتا معا"

(٤٢)

كان الهواء والخوف يطردان النوم عن عين ياسين وهو على ظهر البغل الناريّ المتعَب، وكلّما طاردهم ضوء من الخلف توهّم أنّه من آل الرمضان وسيسدّد على ظهره المكشوف، حتى تتخطّاهم السيّارة بضوئها الباهر، فيطمئنّ قليلًا، قبل أن يسطع أمامهم ضوء جديد مفزع. ولم تكن لعبة الشجاعة قد استُنفدت فلم يسأل مضيفه، وبدت الداودية في دولة أخرى مجاورة، فقد تخطّى الموتور العجوز قرًى كبيرة أو صغيرة لم يرَ اللافتات ليعرف أسماءها، لكنّ سمع الرجلين أمامه يقولان "كفر هند- السعيدية- تلّ عمار.."، ثمّ قطعوا جسرًا فوق نهرٍ سمّياه العاصي، وانعطف الموتور نحو أضواء بعيدة، بدت أضواء قريةٍ صغيرة، تسلّل الموتور في دروبها الضيّقة حتى وقف أمام بيتٍ صغير، تقدّم الرجل من الباب ودقّ برفق، وانتظر الرجال دقائق من دون مجيب، وأعاد الرجل دقّ الباب. نظر ياسين إلى ساعته مستعينًا بمصباح عمود النور، ونفض يده بهدوء:

- الساعة طنعش ونص بالليل.. لازم يكونوا نايمين.

- بيدك حقّ... أبو محماد.. أبو محمااااد

- مييين؟

- صديق.. افتح .. افتح.

وفتح الباب رجل متوجّس في الخمسين، وتهلّل وجهه حين رأى ضيوفه.

- سليمان؟ حي الله ابو خضر.

- يا حي الله.

- فوتو فوتو

- يالله .. خذ طريق.

- هَوْ غرفة الضيوف ما فيها حدا.

وتقدمهم الرجل فأنار الغرفة الصغيرة وأعاد ترتيب الأثاث البسيط، مردّدًا عبارات الترحيب، بلهجة حضرية صرف. ثم ذهب ونادى على زوجته النائمة، فاعترضه أبو خضر:

- بالله عليك خلّي العيال نايمين.. متعشّين وشربانين چاي.. تعال تعال.

- شو يا زلْمي.. بكرة أوّل رمضان.. بدنا نتسحّر.. ولّا ناوين تفطروا؟

- والله نسينا.. تعال تعال.

- يا الله جيتك.. أشو؟

- تتذكّر عبد العليم ياسين؟

- ايييييييه ياْ زلمي.. الله يرحمو.

- تخيّل بعد عشرين سنة يطلع لو ابن.

- شو عم تحكي يا زلمي..

- اي والله.. شوف الشبّ الحلو.. اللهم صلّي ع النبي.

- يا قدرة الله.. يا قدرة الله اااااااا ه.

- سبحان الله..

وتملّى الرجل ياسين المتعب، وتبادلت مشاعر مختلفة مساحة وجهه الواسع، وياسين مندهش، وبدأ الرجل يبكي ويصرخ "اي والله هوّي.. اي والله هوّي.. يا قوّة الله" ثمّ احتضن الشابّ صارخًا: "عبد العليم ما مات.. عبد العليم ما مات".

- أبو محمد.. خلّينا نلحق السحور وابن اخوك قدامك تشبع منّو شوف.

- يا ام محماااااد تعي شوفي.. تعي..

ودخلت امرأةٌ متوسّطة في العمر عند العتبة، وسلّمت عند عتبة الباب بحياء.

- شلونك يا بو خضر، شلون اختي أم خضر.

- شوفي ها الشبّ.. ما يْزَكْرِك بْحَدا؟

- والله ما بعرف.. بس دمّو دمّ الياسين ولاد خالتك.

واضطرب ياسين وأحسّ أنّه وجد "قرعة أبيه" فعلًا، ونظر إلى المرأة التي تتملّى وجهه، وتتذكّر..

- لو رحمة عبد العليم عايش.. كنت بقول انّو ابن عبد العليم.

وأجهش ياسين فجأةً، وبكى الرجال والمرأة مندهشة، وأشار زوجها:

-هادا ابنو لعبد العليم.

وأقبلت المرأة على الشابّ وقبّلته، ثمّ بكت وشهقت:

- يا ابني .. الحمدد لله.. اللّي خلّف ما مات.. أبوك ما مات.

- يا جماعة خاف يأذّن وما نلحق نتسحّر.

لم يكن ياسين الجدّ هو الجدّ المباشر لياسين، عندما عدّ له سليمان الحمدو جدوده قال له: انت ياسين العبدالعليم الاحمد المصطفى الياسين. جاء ياسين الكبير إلى الروج سنوات الجوع والسفر برلك يسوق أمامه قطيعًا كبيرًا من الماشية، وفي الطريق شربت من ماء المستنقعات وأكلت أعشابًا غريبة، ولم يبقَ منها غير "خزلة" لا تتعدّى الـ عشرين، ولم يجد فائدة من العودة إلى "البلاد الشرقي"، فجاء الجارميّة، وبنى بيتًا طرف القرية، بعدما استأذن أهلها.

في سنوات الحرب تستيقظ الشرور الإنسانية الصغيرة، ولكنّ بصيص الإنسانية يتجمّر في شيءٍ ما: عود حطب، فتيل سراج، نخوة عجوز، حكمة عابرة، وهذا ما كان، تجمّعت الجارميّة في وجه المجاعة والحرب، ومدّوا سفرةً واحدة، وشربوا من ضرع ماشية البدويّ، وأكلوا من خير الحقول المتناثرة حول الضيعة. عندما تكوّنت دولة سوريّة كان مصطفى الياسين قد ختم القرآن على يد الشيخ الحلبي، ونثر ياسين "سكّر المطعّم" فوق رأسه، وذبح خروفًا وجديًا كبيرًا، وحين جاء الفرنساوي خطب له من عائلة الحاج قاسم، بدريّة بنت قدّور الحاج قاسم، تزوّجا وأنجبت له أربعة عشر ولدًا، توفّي منهم ستّة، سمّاهم جدّهم متذكّرًا أهله المتناثرين في البادية البعيدة "جاسم، وخليفة، وسعدة، ومخلف، وإسماعيل، وعبيد، وحمّادة، وعبّود، ونجمة، وفضّة، وأحمد، وفيضة" وحين ماتت زوجته سمّى البنت الثالثة عشرة "سمرة" ثمّ تزوّج بعدها بشهرين، وجد له مصطفى امرأة خمسينية "فتيّة" آنسته بقيّة حياته، وحين جاءت البنت الرابعة عشرة سمّاها باسم زوجته الجديدة "ناجيّة".

تناثر أولاد مصطفى الياسين في الجارميّة، وعملوا في الأرض والماشية، ورعوا أغنام قرى أخرى. أحمد جاء الداودية، وعمل مع عائلة البيك سنواتٍ طويلة، مخض له حليب مزرعته، وكتب له حساباته في دفاتر سميكة، وحين وجد فيه الأمانة والمرونة زوّجه ابنته سلمى، ولكنّ سلمى لم تنجب، ظلّت سنين طويلة لم تنجب، ذهب الزوجان إلى الأطباء في حلب، والمشايخ في القرى.. دون فائدة. بدريّة القدّور حرّضت زوجها على الزواج من ثانية، ولكنّ معزّة البيك وابنته حالت دون زواج الشابّ الذي بدا ثريًّا أكثر من عائلة الياسين جميعها. بعد أشهر، أحسّت سلمى بنت عزّت حسين الحكمدار بمغص شديد، لم يخفّف منه منقوع النعناع، ولا البابونج، في الصباح جاءت جارةٌ عجوز تفهم في أمراض النساء، وقالت لها:

- الله العليم انّك حامل يا سلمى.

ولم تكن مناسبة مثل هذه تمرّ دون احتفال، وذبائح، وإعادة عبارة "الله العليم انّك حامل يا سلمى". وفي أشهر الحمل التالية، حضرت أخوات سلمى وبناتهنّ لم يتركنها تحمل قشّةً من على الأرض، مردّدات بين الحين والآخر "الله العليم انّك حامل يا سلمى.. الله العليم انّ المولود قرّب يشرّف يا سلمى". وفي عصر يومٍ باردٍ من كانون الثاني، فاجأ الطلق سلمى في بيتهم الصغير في الداودية، ملأ أحمد موقد الحطب نارًا، وخرج يدعو طول الليل مرتديًا فروته. بعد العشاء سمع أحمد صرخة مولود، ونقد الداية ليرةً ذهبيّة، وحين سألته:

- شو بتسمّيه؟ اعترضت بنات العائلة ضاحكات:

- الله العليم ان اسمو عبد العليم.

ضحك ياسين من كلّ قلبه والعجوز تسرد له المقطع الأخير حصّتها من الحكاية التي تناوب الجالسون في سردها مع الشاي الأخير قبل الإمساك، وأشارت إلى مكان جلوسه:

- هون انولد أبوك عبد العليم.

***

- يا ابني ما تگدر تصوم.. افطر.. هاذا انت النهار كلّو والشمس ترگع بيك.

- اشوف حالي اليوم اذا گدرت أكمّل.

- يا ابني انت مو فرض عليك الصيام.. لسّعك زغيّر.. دحّگ.. زلم مشورَبة ومفطرين.

ولم يردّ فيّاض، ومشى نحو محرّك الماء لتشغيله، وقال فوّاز المشعل إن الخضرة سترتفع أسعارها في رمضان، واقترح على زوجته أن يقطفوا الرزق بعد الفجر بقليل، ويعودوا مع الشمس إلى البيوت، وأمّا عمل الفؤوس فيكون بعد العصر، واعترض ذلك صناعة الفطور، وتناقشا طويلًا، فالرزق الذي يحتاج عملًا ليس لهم وحسب، وكانت حسنة قد قطّعت بضع حبّات باذنجان، شرائح مدوّرة، لتقليها وتعدّ شيئًا من المقالي، ووجبة "المطبّگ" واشتهى فيّاض اللبنيّة، واستهجنت زوجته الطلب، إلّا أنّها وعدته بذلك. واستأذنت حسنة أمّها أن تكمل قراءة الجزء الأوّل من القرآن الكريم، وقد اعتادت ذلك منذ أربع سنوات، حين شجّعهم ابن عمّتها الشيخ حامد في التايهة.

حين بدأت المرأة تضع حبّ الحنطة في الصحن وترسل في طلب اللبن، جاء شابّ صغير وسلّم وهو واقف في العتبة:

- عمّي.. تراك مْعَزوم.. عند الحج عبد اللطيف.

- يعطيك العافية .. فوت.

- تسلم..

ثمّ انطلق الفتى إلى بيت آخر، يبلّغ الناس دعوة الحاج عبد اللطيف المعهودة أوّل كلّ رمضان. وخفق قلب الصبيّة، وغبطت أباها الذي سيرى أهل ياسين، الذي غاب كثيرًا، وتمنّت للحظة أن تطير وتراه هناك في حلب، لتقول له: "تأخّرت"، ودعت وهي تتمّ الآيات الأخيرة من الجزء: "تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ" أن ينساها ياسين، وأن يسامح أمّها التي طعنت كرامته بكلمات مسمومة.

- ما خلّصتِ يا بنتي؟ يالله .. ايمت تلَحْكَين الفطور؟

- خلص لا تسوّين الحبّة.. ابوي معزوم.

- راح يطلبها ع السحور.. اعرفو.. وهزّت رأسها بأسى.

"تكاثرت الظباء على خراشٍ

فما يدري خُراشٌ ما يصيدُ"

(٤٣)

في الصباح أرسل سليمان الحمدو ابن أخيه إلى القرية، وطالبه بالسرّية: "هون حفرْنا وهون طمّينا". وحين رحل الشابّ نظر سليمان إلى ياسين فوجده نائمًا، ونظر إليه من جديد، متذكّرًا عبد العليم في شاربيه الذهبيّين وسحنته الصفراء، وخمّن في سرّه أن عبد العليم تزوّج "مرة بيضا" تشبهه، وليست من أولاد عمّه السّمُر في البادية، وكان يسمع من أبيه طرفة ياسين الكبير الذي توفّي بعدما تعدّى التسعين: "رثّعوا فينا بيت الحاج قاسم". اشتهى أبو خضر السيكارة، ومدّ يده إلى العلبة، وتذكّر أنّه صائم، فاستغفر الله وأعادها إلى جيبه، ثم تمدّد في فراشه محاولًا أن ينام.

كانت الثانية عشرة حين استيقظ ياسين، وقد آنسه حديث الرجلين، بقي بعض الوقت مغمض العينين يلمّ صدى كلماتهما ورنين لهجتين غريبتين وأليفتين في آن، وحضر في ذهنه حديث والده الحاج عبد اللطيف، وكأنّ لغة القبائل القديمة جميعها اختزلت فيها. كان طيف ابتسامةٍ على وجهه حين ناداه أبو محمد:

- استاز ياسيين.. يا الله يا ابني قعود.. أذّن الضّهُر.

- صباح الخير.. لا تواخذوني.. حلّ عليّ التعب.

- صباح النور يا غالي يا بن الغالي.. بسّ حابين نشوفك.. سبحان الله الخالق الناطق بيّك.

- والله الصار البارح ينكتب بالدواوين.. معلومات ومطاردات والمصادفة العجيبة بشوفة عمّي سليمان، بشوفتكم تالي الليل.. والله يا عمّي لو تعرف شـ گد اني فرحان بيكم!

- واحنا فرحتنا ما نعطيها بالدنيا.

- الله يزيدكم فرح وسرور. بس السالفة ليها تالي..

- والله ليها توالي يا ابن اخوي.. لاحقين ولك يا عمّو .. تعال شوف عجايز الحارة سمعو فيك وحابّات يشوفوا ابن ابن سلمى، والله فرحتنا ما نعطيها بالدنيا.

ونادى الرجل على زوجته، وجاءت عجائز ملأن الغرفة الصغيرة يلقين السلام على الحفيد الجديد لعائلة الحكمدار، يقبّلنه ويبكين ويضحكن، والشابّ مبتسمٌ مرتبك واجم بعينين دامعتين، يرى مسقط "قرعة أبيه" في هذه الغُريفة، يلمس بيديه حجرها المكحّل بالإسمنت، فيحضر فيه الجزء الصّافي من أبيه، وامتلأت النسوة بالدهشة والحبور، ورُحْن يتفحّصن وجهَهُ ويديه وشعره، ويتمثّلن سلمى وأحمد الياسين والحكمدار الكبير الذي انكسر بقيّة حياته.

عندما جاء الإصلاح تراجعت هيبة الحكمدار، لم يبقوا في يديه غير "كم نتفة أرض" وقضى آخر حياته في البيت، يتحاشى أن يسمع شتيمة أو سخرية. هاجر أبناؤه إلى السعودية وبلاد أوربّا، وعرضوا عليه السفر، لكنّه ظلّ في البيت الكبير، يتأمّل الشجر، ويسمع أسطوانات صالح عبد الحيّ وعباس المليجي إلى أن مات قبل الانفصال بشهرين. عائلة أحمد الصغيرة سبقت الإصلاح وحطّ بها الرحال في الجارميّة، وعاش عبد العليم جزءًا من طفولته في حارة الياسين، ركض وراء العصافير في الأحراش، ورعى الماعز في السفوح، وتشاجر مع أولاد القرية في الصيف، وكانت سلمى تريده قويًّا صلبًا، ولكنّ جدّه مصطفى خصّه بحنان فائض،

فعاش الولد بين القسوة والحنان، وديعًا وشرسًا، ومتفوّقًا في المدرسة، وراغبًا عنها. أحد معلّميه قال "هادا لازم يطلع دكتور" ولكنّ وأد العقول في الريف ظاهرة لا تقتصر على عبد العليم وحده، ولم يكن لأحمد الياسين الذي كلّفه باهظًا مصروف علاج سلمى أن يحتمل مصاريف إضافيّة، فأرسله إلى دار المعلّمين بحمص، بعد حصوله على الإعدادية، ووجدها عبد العليم فرصةً ليبتعد عن وصاية أمّه الشديدة. ولم يكد ينال دار المعلّمين حتّى "جلا" أهله من الجارميّة، وجاء تعيينه في الجزيرة. في السنة الأولى من تعيينه توفّي أبوه، ولم يخبره أحد. دفنته العائلة في منفاها الجديد في قرية الشيخ رضوان بريف حماة.

حين جاء عبد العليم، وجد نفسه وحيدًا، يرعى أمًّا متعبة. عرض عليها أن تذهب معه إلى الجزيرة فرفضت، وهمست له: "بدّي موت عند أهلي بالداودية بين اخواتي"، وفي ليلة من ليالي آب، حملتهم سيّارة إلى الداوديّة، وبقي هناك متستّرًا من عيون آل الرمضان ثلاث عشرة ليلة، قضاها في حماية أخواله جانب أمّه التي تُحتضر، يطعمها ويسقيها الدواء إلى أن سجمت عن الماء، فصار ينقّط لها الماء في حلقها الذابل. في الليلة الرابعة عشرة، فاضت روحها، بعدما أوصته أن يبتعد عن آل الرمضان وآل الياسين معًا، وأن ينجب لها أحفادًا. ولم يكن عبد العليم ليعود إلى الشيخ رضوان، تلك القرية النابتة في كفّ الصحراء مثل وشمٍ قديم، بل حمل حياته الجديدة، واتّجه إلى الجزيرة، ثمّ ضاعت أخباره عن العائلة.

- يا اللـ!!!!!!!!!اه .. يا ربّ عفوك.. صار علينا مثل الفلسطينيّة.

- حكم الله يا ابني.. حكم الله.

- آمنت بالله.. بسّ وين صارت باهلنا الدنيا.

- متل ما قلت... راحت العيلة بمالها وحلالها على ريف حماة، واستجاروا بعشيرة "مبيّنة" هنيك قريّة بأوّل الحماد بعد الشهيب والسعن والعقربات.. بآخر ما عمّر الله.

- لازم اروح .. أشوف أهلي.

- ما بـ نتركك تروح لحالك.. رِجْلنا على رِجْلك.

- ريّح لك يوم يومين، وبعدين انا وعمّك سليمان نروح معك.

***

- يا حجّي .. ما تگدر تصوم. الله .. محلّل لك الافْطار.

- لا يا حجّة لا أصوم.. آني شـ مسوّي، كلّ النهار گاعد.

- يا حجّي النهار طويل، والدنيا حارّة.

- آني رايح اسگي؟ دحگي لي.. جوّا المروحة.. ليل نهار. لاني عطشان، ولاني جوعان.

- حرام عليك يا حجّي، ودواك؟ شلون تاخذو من دون أجل.

- الدوا آخذو بعد الفطور.

ولم تكلّف العجوز نفسها في إعداد الفطور، فقد جاء عبد الله وأولاده وحضّروا ذبيحتين، وقف عبد الله على القدر بنفسه وحرّك الطعام بالـ"چفچير" وخبزت "حبايب" العبد اللطيف خمس عجنات، زادت منها عجنة كاملة عند مدّ الصحون. حين توافد الرجال زادت بهجة الحاج عبد اللطيف، وتأمّلَ أن تتركه الذئاب هذا الشهر، وقرّر أن يصوم مهما كلّفه الأمر.

جلس الرجال في انتظار المؤذّن، ومرّ الوقت بطيئًا، ونظروا إلى ساعاتهم، وإلى التقويم الذي لم يضع في حسابه أنّ مدينة اسمها القامشلي يصوم أهلها قبل حلب بـ ١٥ دقيقة ودمشق بـ ١٧ دقيقة. ولكن لا يجوز الإفطار على مواقيت الرزنامة، كما قال الملّا سعيد.

- افطرم.. طگّ الطوب.

- لا.. استنّم تا يأذن الملّا.

- الملّا بدو يشرب وبعدين تا يأذّن.

- انتم صايمين كلّ اليوم، وظلّت على دقيقة؟

وتناهى إلى الجالسين صوت الملّا سعيد متعبًا هادئًا خافتًا، وما إن أعاد التكبيرة الثانية، حتى كانوا قد شربوا الماء واللبن. حين فرغ من الأذان كانت الأيدي قد امتدّت إلى الثريد، وقال أبو دحّام:

- خلّيتم للملّا حصّة؟

- الملّا محمّي.. يفطر مع الحجّي.

وهيمنت سكينة رمضان على قرية الصفرة، ولم تعد تسمع أطفال يسوقون مواشيهم، ولا عجائز تثرثر عند الغروب، ولا سيّارات تهب المشهد بعض العجاج، ولا أصوات "الطريزيلات" المزعجة. وكان ثمة شعرة بيضاء متلألئة تومض على كتف الغروب. وقال عبد الله: الله العليم چلينا يوم من رمضان.

أيقظ ياسين الأسئلة النائمة في بقايا عائلة الحكمدار، وعاش الساعات القليلة قبل الإفطار، وكأنّه يشاهد فلمًا طويلًا، يختصر تاريخًا منسوجًا بمجدٍ غابر، وعزّة

بائدة، ترويها عجائز على أبواب النهايات. جمانة ابنة طلعت الحكمدار ابنة عمّة سلمى ضمّت حفيدها بكلّ ما أوتيت من قوّة، ابنتها صباح قالت له إنّ خالتها سلمى هي من رعتها صغيرة وضفرت لها شعرها. ولم يكن إفطار أرحام الحكمدار تقليديًّا؛ فقد جاءت العائلات المنتمية إلى الجدّ الغابر ذي الشاربين العصمليّين المعقوفين - كما أرته ابنة أخيه في الصورة الباهتة- جاءت بأطباق كثيرة فرشوها أمام ياسين وابن قريته سليمان الحمدو، الفريكة، ومحشي ورق العنب، والتبّولة، وسلطة اللبن "الجورت ما" والمرشوشة، والمجدّرة، والعجّة باللحمة قالت له العجوز التي صنعتها "هَي عجّة حارم"، وحضر ديكٌ ضخم مرميًّا على تلّ من الرزّ المفلفل، وجاءت القطايف بالقشطة والقطايف بالجوز، وجاء شراب السوس الذي يصنعه ابن مضيفهم ويبيعه قبل الإفطار، والتمر هندي والبرتقال واللبن.

حين أذّن الشيخ نظر ياسين إلى الشرق، إلى الشرق البعيد، واطمأنّ في الشاشة الصغيرة التي أطّل منها أن أهله هناك قد أفطروا.

***

ولم يكن المجموع قد فرغ من الفطور، حتى جاء قريب سليمان الحمدو صاحب موتور الياماها، وانقبض قلب عمّه، ولكنّه دعا الشابّ ليفطر. شرب الشابّ الماء، وتناول لقمتين، ونظر إلى عمّه الذاهل:

- آل الرمضان.. اشتلءوا وعم بيدورو ع الشبّ.

- حدا شافك وانت جاي؟

- لا

- يالله نشرب شاينا ونتوكّل على الله.

"و لو انٌ تبكي طول العمر يا شير

هلك راحوا على حمص وحماةْ"

(٤٤)

ليس قلقًا، بل هو خوف، خوف من جمرة الثأر اللعينة، تُدسّ في حطبٍ يابس. سنوات طويلة وأهل الجارمية يعانون من عقابيل الدم الأوّل. رحل آل الياسين واطمأنّ الناس إلى انطفاء الثأر، لكنّ الأمر لا يخلو من "لَبّة نار" عابرة كلّ حين، يتعلّق الأمر بالأقارب من الدرجة الثانية والثالثة، من الأرحام التي لا يمكن إلّا أن تتعاطف مع هذه الجهة أو تلك. كأخوال عبد العليم، وعائلة سليمان أولاد فيضة الياسين.

جاءت عائلة الحاج قاسم قبل أكثر من قرن، ضابط عثماني كبير جاء إلى إدلب منفيًّا بعد خسارته معركة في بلاد الصرب، جاء ومعه بعض أعوانه من الترك والعرب والكرد. ترك قاسم جنراله الخاسر في حارم، واختار قرية بعيدة. اشترى غنمًا وخيولًا، وبنى بيتًا من الحجر والطين، لم يكن قصرًا، ولا بيتًا عاديًّا، ولكنّ القادمين من الجهات الأربع شهدوا أن ضوءه في حضن الجبل يقول للمطاريد والغرباء والدروايش : "حيّ الله الضيف"

في السنة الثانية كثر الرعاة، وساقوا قطيع قاسم بين السفوح والأودية، وفي الشتاء عزّ عليه العلف، فباع جزءًا كبيرًا من القطيع، وباع مهرين جميلين، في السنة التالية جاء بفلّاحين من المعرّة، يتقنون البذار والحصاد، وغرس الشجر. تذكّر قاسم بلاد الصرب وخطّط أن تكون قريته شيئًا يشبه قرية بعيدة هناك. وفي حضن الجبل الصغير تجمّعت بيوت فلّاحين ورعاة جانب بيت العسكري المهزوم.

حين جاء ياسين كانت الجارمية جنّة صغيرة في حضن جبل، اشتبكت فيها العائلات الصغيرة بعائلة الحاج قاسم. كان ياسين البدويّ الندهة التي ذكّرت قاسم بنهر صغير من الذكريات متخفٍّ هناك خلف تلّةِ البارود والنار. حين عاد قاسم من رحلة الحجّ وهو على أبواب السبعين، رأى في ياسين الشابّ المغامر ذاته، قادمًا من الشرق البعيد.. هناك من بادية العراق، حين التحق بالجيش العثماني وتوجّه من بغداد إلى ديار بكر فإسطمبول، ثم قضى شطرًا من خدمته في طرابلس بليبيا، قبل أن يتوجّه في مركب منحوس إلى أوربا الشرقية. آنس العسكريّ في لهجة البدوي ياسين ما يذكّره بأهله هناك، وخمّن أنها إشارة قدريّة تعيد بهجة البدايات إلى مكان جديد وزمان مختلف. حين رحل الحاج قاسم، وجد أبناؤه في ياسين أخًا على الشدائد، فلم يتأخر في نجدة، ولا في حمل بارودة أمام غزوة مفاجئة، ولا في مواجهة كربة، وعندما كبر مصطفى زوّجوه من إحدى بناتهم.

***

كان البيك اب التويوتا قد سلك طريقًا ترابيًّا بعيدًا عن المدن والقرى الكبرى، خوفًا من أسئلة الدوريّات المفاجئة على الطرق العامّة، في ظلّ الاضطراب الكبير الذي تعيشه البلاد، اتّجهوا من حارم نحو الشرق، ثم مضى جنوبًا نحو العيس فالحاضرة، وكانت الساعة قد تجاوزت الثانية عشرة بقليل، وقال أبو خضر:

- والله جعنا يا أبو محمد.

- خليّنا نمسك الطريق بعد الحاضرة ونصفّ ع اليمين وناكل.. أختك أم محمد حضّرت الْنا عشا وسحور..

- والله حاسبين حساب.. أنا قلت نعدّي على شي بيت وندقّ بابو.

- ما في داعي نكشّف حسب حدا.. أهم شي عدّينا الخطر.. ولّا لا؟.

- الحمد لله.. من عدّينا حارم.. خلص.

- ايييييييييييييه يا ابن الغالي.. اليوم ان شالله تشوف أهلك.

وحين خلا الطريق، أشار إسماعيل القدّور للسائق إلى اليمين، ثم نزل الرجل من القُمرة وصعدوا الصندوق. فتح إسماعيل الصرّة الكبيرة، وأفرد علبًا صغيرة فيها من طعام الفطور الذي لم "يتهنّوا" في أكله. أكل الرجال وشربوا من عبوة الماء الكبيرة، ورأى أبو خضر أن يتريّثوا قليلًا ريثما يطلع الفجر، فتوغّل البيكاب في الأرض البور بعيدًا عن الطريق، ثمّ ناموا.

***

- تعوّگ ياسين.. تعوّگ بالحيل.

- ما صار لو يومين مخلّص فحص. وتا يمرّ على خوالو.. الله ويعلم چَمْ يوم راح يظلّ عدهم.

ولم يردّ الحاج، وتمدّد تحت المروحة، وقالت له العجوز إنّ اليوم زفّة ابن محمد العلّاص، فنفض يديه مستنكرًا كيف يقام عرس في رمضان، وقالت له العجوز "الدنيا خربانة يا حجّي" واتّكأت على مخدّة عند العتبة كي تستقبل الهواء. وكان الحاجّ قد طلب منها أن تعدّ له اليوم طيّة قمر الدين شرابًا، وأن تعدّ له الكشك، وأقنعته أن تصنع له من بقيّة طعام الأمس "حميسًا" إلى جانب "طاسة شنينة" ولكنّ الحاج أصرّ، وفي الأثناء كان صوت في الخارج ينده:

- يا عراااب

- تفضّل فووت.

- السلام عليكم.. هذي افطاريّة لجدّي الحجّي، ووضع بطيخة كبيرة على أرض العتبة الإسمنيتة الباردة.

- يعطيك العافية.. ول خيي انت ابن مين؟

- اني فيّاض ابن فواز المشعل.

- عفية ابن اخوي..

- عفية عفية

وكادت العجوز أن تقول "سلّم لي على امّك" ولكنها قالت في اللحظة الأخيرة "سلّم لي على اهلك" وانطلق الفتى، ولكنّها ردّته من باب الحوش:

- وال فيّاض .. تعال تعال.

وقامت العجوز ووضعت في "جدريّة" صغيرة شيئًا من اللحم النيء الذي استبقته البارحة ليكون طعامًا للحجّي، فحمل الولد "الطعمة" إلى أهله ومضى.

***

وهناك كانت حسنة قد عادت للتوّ من الحقل، رمت سطل النايلون الصغير وسط الغرفة، وجلست لترتاح قليلًا، وحين رأت فيّاض، انتابها فضول لترى ما يحمله، وخمّنت أنّها زبدة ولبن، ولكنّها تفاجأت حين قال فيّاض: "هذي طعمة من الحج عبد اللطيف من عزيمة البارح" ورغم أن أمّها قلبت شفتيها دون تعليق، فإنّ الصبيّة المتعبة العطشى، قد أحسّت بريّ مفاجئ، فابتسمت أمّها ولم تعقّب، ومضت الصبيّة إلى سطل الخضرة تفرغه:

- بدي اسويّ محشي.

- محشي محشي.. وهذا عدنا لحم.

ونظرت العجوز إلى ابنتها التي ارتبكت فجأة، ولكنّهما لم تقطعا شوطًا في هذا الجدال، فقد تذكّرت العجوز أهلها في التايهة:

- هذي أوّل مرّة نفطر بعيدين عن أهلنا.

وأدركت حسنة أن خيط ذكريات الأمّ سيفضي بهما إلى بكاء لا تستطيعه عاملتان مهدودتان من الصيام وعمل الحقل، ففكّرت بحيلة تهرب به من تلك المحطة البعيدة:

- شـ گد ظلّ على عاصي تا يجي؟

- والله يا بنيتي ما عرف.

- هوّ يحب المحشي.

- محشي الكوسا بس.. وابتسمت الأمّ، وأدركت حسنة أنّها نجحت.

***

قبل الفجر بقليل أيقظ سليمان أصحابه، المتكوّمين في صندوق البيك اب، وقد شعر بشيءٍ من البرد، فشربوا ماءً ونووا الصيام، وتوجّهوا جنوبًا، وقال لهم سليمان إن الطريق يأخذنا إلى تلّ الضمان، ومن هناك سنتزوّد بالوقود ونكمل إلى "الجنينة" ثمّ السعن، وفي الطريق كانت الجبال تفرض طرقًا ملتويّة، وسمّى لهم سليمان جبلي سمعان والحصّ، وأشار إلى يساره ويمينه، وأشار نحو الجنوب:

- هون مرابع أهل فاضل العبد الله، فابتسم ياسين وقال:

- *"هلك راحَوا على مكحول يا شير"*، وأردف إسماعيل القدرو متأثرًا بلهجته الإدلبيّة الصرف:

-*"ورموا لك عضام الحير يا شِير"*.

قبل نحو مائتي عام، كانت هذه المنطقة ممتدّةً إلى شطّ العرب قبائل تنتمي إلى طريقة مشتركة في الحياة، حياة الغزو والترحال وتربية الماشية وقليلًا من الاهتمام بالزرع، وكانت قبيلة فاضل العبد الله تعيش في بادية العراق يوم داهمهم الجدري، فأصيب به شاعرها وفارسها فاضل العبد الله، ولم يكن قانون القبيلة الصارم يرأف بحال فاضل، فتركته لقدره وحيدًا بعدما ذبحوا له ناقةً، ولم يبقَ معه غير كلبه (شير). ولكنّ قبيلة الصُّلُبة العابرة، أشفقت عليه فعالجته عجوز حكيمة، وحين شفي غادر إلى بلاد تمّر باش (تيمور باشا الملّي) وبقي عنده متخفّيًا في هيئة خادم حتى ظهرت قصّته.

- الشمس ما بتتخبّى بغربال. قال إسماعيل وأكمل:

- وهادا أنتَ يا ياسين مهما بعدت عن أهلك.. راح ترجع لُن.. لا تزعل من أمّ البنت يا ابن اخوي.. هادي المرة تستاهل انّك تشكرها، لأنّك مهما عليت وتعلّمت وصار عندك مصاري، لازم ترجع لأهلك.

وهزّ ياسين رأسه مقتنعًا، وكان البيكاب يتمايل على الطريق الرديء، مارًّا بقرى بيوتها قبب متناثرة، وقطعان من الماشية. حين وصلوا تلّ الضمان مرّوا بمحطة البترول للتزوّد بالوقود، وقال لهم عامل الكازيّة إنّ أفضل طريق نحو السعن يمرّ من الجنينة. ونظر سليمان الحمدو إلى ساعته؛ كانت الثامنة صباحًا، وخمّن أنهم سيصلون الجنينة بعد ساعتين أو أكثر قليلًا. قبل الجنينة أوقفتهم دوريّة مفاجئة،

وأخذوا هويّاتهم، وحين سألوهم عن سرّ هذه العلاقة بين شابّ من الحسكة ورجلين من إدلب، ارتبك الرجال، ولكنّ ياسين أجاب:

- هذول خوالي، واحنا معزومين عند أهلنا بالشيخ رضوان.

- وين هاي الشيخ رضوان؟

- آخر قرى حماه، گبل البلعاس.

تأمّل المساعد في الرجال، وفتش في البيكاب عن سلاح أو منشورات أو موادّ إسعاف طبيّة فلم يجد، ولم يجد الوقت مناسبًا ليستوفي التحقيق معهم، فأعطاهم هويّاتهم، ومضت سيّارة اللاندروفر نحو الشمال، ولم تكن الجنينة غير محطّة عابرة، وقال لهم سليمان:

- قرّبنا من السعن.. هناك نتوضّا ونصلّي الظهر.. ونرتاح شوي.

- سبحان الله بين يوم وليلة تغيّر وجه الأرض.. من أرض خضراء إلى صحراء.

- تعال شوف هذي البادية يا ابن اخوي بالربيع.. ما بدك تتركها لحظة.

ولم تكن صلاة الظهر قد حانت حين نزلوا إلى المسجد في قرية السعن، فتوضّؤوا وصلّوا جماعة مع الناس، وظلّوا قاعدين في المسجد، يقرؤون القرآن ويأخذون نصيبًا من الراحة. سلّم عليهم شيخ الجامع، وحين عرف أنّهم غرباء دعاهم أن يفطروا عنده فاعتذروا بلطف، وسألوه عن قرية الشيخ رضوان فأشار إليهم نحو الشرق "نصّ ساعة بالسيارة" ثمّ إلى الجنوب، فاستأذنوه أن يرتاحوا قليلًا ويناموا في المسجد، فرحّب الرجل معتذرًا: "استغفر الله، هذا بيت الله مو بيتي"، في الثالثة عصرًا، قال سليمان إنّ الحرّ انكسر، وأنّهم يجب أن يمشوا. صلّوا العصر في الطريق، ومضى البيكاب في أرضٍ خلاء "لاطير يطير، ولا وحش يسير"، وكانت

الشمس الوحيدة التي تباريهم جهة الغرب فتغطس وتطلع في حواريّة الجبال والأودية، وخاف سليمان أنّهم يمكن أن يكونوا ضيّعوا الطريق، ومن البعد لاحت معالم بيوت باهتة، بدت أقرب شيئًا فشيئًا، واضطرب ياسين:

- اشبك ياسين؟ ايش يقول اولاد عمّك إزا شافوك هيك. لا تخجّل اخوالك.

عند أوّل البيوت دعاهم صاحب البيت إلى الفطور مصمّمًا، ولكنّهم قالوا له إنّ فطورهم عند بيت الياسين، فردّ صاحب البيت أن هذه هي الشيخ رضوان، وأمّا الياسين فهم تلك البيوت البعيدة، ويسمونها: "الياسينيّة". وعاد وألحّ عليهم في الفطور، فاعتذروا مجدّدًا، بدعوى أنّهم مدعوون هناك. بيوت قليلة ملتمّة، تفصل بينها حظائر وأحواش وطيئة، وجمعٌ ملتمّ خارج البيوت، ينتظرون الغروب والفطور، قاموا لاستقبال المقبلين:

- السلام عليكم.

- وعليكم السلام.

- وعليكم السلام ورحمة الله.

- سليمان؟ حيّ الله ابو خضر؟ حيّ الله ابن عمتي.

وتقدّم رجلٌ كهل في الستين وصافح سليمان الذي أشار إلى إسماعيل:

- إسماعيل القدّور ما عرفتو؟

- ايي شلون ما عرفتو.. من چم سنة ما شفتو. وعليكم السلام ورحمة الله.

- وتقدّم الواقفون من الضيوف وحيّوا الجميع، وصافحوهم بحرارة.

- شلونك يا مخلف..ان شالله انّك هميم؟

- الحمد لله.. ابن اخوي هذا ابنك؟ "واشار إلى ياسين".

- لا والله يا بو مصطفى.. احزر.

(٤٥)

غروب شمس الثاني من رمضان في "الياسينيّة" لا يماثله غروب؛ لا رجالَ يسعون إلى الماء، ولا نساء مهتمّات بحمل الصحون إلى مائدة العائلة الكبيرة، ولا أطفال يراقبون الأذان من قرية الشيخ رضوان. غروبٌ غريب، غطست الشمس وراء الجبال البعيدة، وظهر هلال صغير أليف على كتف الجبال ذاتها، لم يفطن إليه الواقفون. في الثاني من رمضان نسي الصائمون في البيوت النابتة كأصابع في كفّ الحماد الممتدّ، وقد تركوا فيه المائدة العامرة، وانشغلوا بـ "اللا متوقّع" هبةً سماويّة هبطت بين شمسٍ غائبة وهلال شحيح.

أعمام أبيه الباقون على قيد الحياة "مخلف وحمّادة وعبود" بكوا وأجهشوا، العجوز سعدة ضمّته إلى صدرها، ورأت فيه عبد العليم الصغير ابن التاسعة وهو يرافقها إلى الأحراش كي تحتطب. وقال الحاجّ عبّود لأخيه الشيخ الذي اقترب من السبعين:

- بي شبه من أحمدنا؟

- ياسين.. يشبه جدّي ياسين.. بي چثير من رحمة جدّي.

واستيقظت أسئلةٌ كثيرة أغلق بابها الفرح الكبير، فلم يفكّر أحد بملامة آل "الياسين" أنّهم تركوا ابنهم عبد العليم في تلك البلاد، ولم يكلّفوا أنفسهم أن يعرفوا ماذا ترك وراءه، هل يعلمون أنّه تزوّج، وأنجب؟ وكيف عرف ذلك العجوز الذي جاء لأخذ الولد من الحاج عبد اللطيف؟ وهل قال لهم العجوز إنّ ابنهم على قيد الحياة؟

لكنّه الفرح، فرح الياسينيّة الذي سيؤجّل الأسئلة المنغّصة، ولكنّه سيعيد إليها الاعتبار، ولكن بعد حين؛ فاليوم فرح يعيد لـ"ياسين" الأوّل بهجة اللّبِنَة الأولى، والابن الأوّل، والحفيد الأوّل، والعائد الوحيد.

- يا إبني .. الولد عطيّة من الله، وانت اليوم عطيّة الله لينا.. بهالوگت الشين.

ولولا أنّ سليمان الحمدو نبّهم إلى الإفطار وصلاة المغرب، لامتدّ الكلام والفرح والبكاء وقتًا متأخّرًا، وقال مثنّى العبّود:

- هذا مو فطوركم.. بعد شوي يصير العشا.

وأشار إلى ابن أخيه أن يركب السيّارة ويدعو وجهاء الشيخ رضوان والناصرية والعطشان والمسعودية إلى العشاء، واعترض والده.

- عزيمة ياسين ما تصير بليل يا إبني.. لازم العالم تجي بالضوّ؛ تا يعرف القاصي والداني أنّو إبنّا رجع. واستدرك مثنّى:

- عجل .. احْنا راح نتعشّى. وتوجّه إلى الشباب الواقفين:

- افطروا.. وروحوا.. جيبوا نعجتين.. نلحّگهن ع العشا.

اختلفت أسماء الجيل الجديد من آل الياسين؛ بعدما سمّى ياسين الكبير أحفاده ليستعيد بهم أهله الذين تركهم في سنة الجوع وساق قطيعه نحو الغرب، ولكنّ الأحفاد تفرّقوا في طريق الحياة التي جمّعتهم ثانيةً وهم يلجؤون إلى الصحراء. عبّود الذي تعلّم في حارم، عاد إلى الجارميّة واضعًا القوميّة العربيّة طريقة حياة. حفظ أبيات المتنبّي وشوقي، وصرخ غير مرّة:

تنبّهوا واستفيقوا أيّها العربُ فقد طمى الخطبُ حتّى غاصت الركبُ*

وحين تزوّج أنجب مثنّى ومهنّد وثائر وليلى ولبني. عندما حجّ تمنّى لو سمّى أولاده محمدًا وعمر، ولكنّه استدرك ذلك في أحفاده. خليفة الأكبر لم يغادر الجارميّة ورعى قطيع أبيه في ليالٍ شاتية يرتدي فيها عباءته المشمّعة ويحمل بارودة إنكليزيّة تحسبًا للّصوص والضباع، في سفوح وأودية قبل أن تتقلّص مساحات الرعي، ولم يكن لخليفة إلّا أن يجد حياته في تغريبة بني هلال فاستعار من ذلك الكتاب الأصفر الذي قرأه في شتاءات بعيدة لأبيه مصطفى وإخوته والراعي الكهل جمعة المزعل. حين أنجبت زوجته ابنته البكر حزنت العائلة ولكنه فرح كثيرًا وقال هذي "الجازية" أميرة بني هلال ومدبّرة أمرهم، ثمّ جاءته "وطفة"، و"الخضرة"، بعد الجلاء جاء ذياب وعياض وسرحان وزيدان. مات سرحان بلدغة أفعى، ولكنّه استعاده في ابنه (الكُعدة).

إسماعيل الذي قرأ عند الشيخ وختم القرآن في ستة أشهر، بقي متعلّقًا بشيخه وبمسجد الجارميّة، يحضر معه الموالد، وينشد بصوته الخفيض: *"يا راحلين إلى منى بقيادي* هيّجتم يوم الرحيل فؤادي"*، والحقّ يقال إنّ إسماعيل كان قطعة من أخواله "الحاجّ قاسم" في تديّنه، وزاد من ذلك أنّه تزوّج منهم، فأنجب عبد الله، ومحمّد، وعبد القادر، ومحمود، وفاطمة، وعائشة، وحفصة. وحين تزوّج الثانية استعاد بأولاده سيرة الأنبياء: عيسى وإبراهيم وهارون وسليمان، حتى الفتاتان اللتان تخلّلتا البطون الذكور نالتا حظّهما من الأسماء القرآنية فجاءت مريم بعد هارون وآسيا بعد سليمان.

حين جاء الياسين إلى الشيخ رضوان، اشتبكت أسماء الأحفاد في زيجات أولاد العمّ، واختلطت النظرات الطامحة إلى الحياة، الجمهوريات النظريّة الصغيرة المتوازيّة في حارة الياسين، تهشّم الجزء الوحيد المسموح بتطبيق تلك النظريات الحادّة أوائل الستّينات وهو تسمية الأبناء. تجمّعت الأسماء المختلفة الصغيرة في القافلة الطويلة نحو مصيرٍ واحد في ليلةٍ ليلاء ربيع ١٩٥٧.

وهنا في "الياسينيّة" اختلط مواطنو الجمهوريات وقد كبروا وصاروا في سنّ الزوّاج. تزوّج مثنّى من وطفة، وعبد القادر من لبنى. وأفسد ذلك على طامحي الستينات رؤاهم المتوّهجة للحياة التي قفزت خارج الملعب.

حين وصل آل الياسين هذه الأرض البعيدة عن عيون آل الرمضان، دعاهم شيخ القبيلة أن يسكنوا عنده في قريتهم، وطلبوا منهم أن يبتعدوا قليلًا. أولاد خليفة عملوا في تربية الماشية. بعد سنوات قليلة كان قطيع الحاج ياسين قد عاد إلى الحماد أصلب عودًا ومدرّبًا على تحمّل عطش الصحراء. سرحان الصغير نجح في جمع قطيع صغير من الغنم الحمدانيّة وابتدع لها وسمًا خاصًّا سمّاه وسم الياسين. أولاد الحاج عبّود عرفوا طريق المدرسة، وتطوّع بعضهم في الجيش والشرطة، وعرف الراتب الشهريّ طريقه إلى يد الحاج عبّود، وأرسله أولاده إلى الحجّ قبل ست سنوات. ولم تكن الخيارات الأخرى بين الوظيفة وتربية الماشية شحيحة تمامًا، فقد انبث أولاد الياسين في القرى وبين حماة والشام سائقي شاحنات، وتجّار ماشية وأئمة مساجد. ولكنّ هذه الدروب المتفرّقة تلتقي دائمًا عند بيت الحاج مخلف في رمضان، هناك في الياسينيّة. ولم يخلُ الأمر من ومضاتٍ تؤنس الحكايات القديمة، في منشدٍ دينيّ اشتهر في ريف حماة كلّها، أو لاعب كرة سجّل اسمه في جريدة رياضة وقد سجّل هدفًا لفريق الوثبة من حمص، أو طالبٍ نجح في الثانوية، يومها جاء الحاج عبّود باسمه، كان قادمًا من دير الزور يحمل جريدة.. ، هناك اشترى الجريدة بعشر ليرات، وبقي ربع ساعة يفلّيها أمام المكتبة، ثمّ شهق فرحًا، وهو يثبّت إصبعه فوق اسم صالح مخلف الياسين ١٨٦- ١٧٤. وقد مكّنته درجاته من التسجيل في جامعة دمشق- قسم الهندسة المدنية.

***

حين نظرت حسنة إلى القُمير الصغير أحبّت أن تلوّح له بيدها وهي تأتي بالشاي إلى العائلة الصغيرة، ولكنّها خافت أن تراها أمّها وتعرّضها للسخرية من جديد، واكتفت بابتسامة صغيرة. مدح أبوها طبق المحشيّ الذي اعتنت به هذه المرّة، ورغم أن الأب كان يأكل لقمتين فقط، ويتنحّى قليلًا ليشرب سيكارته الأولى، إلّا أنّه هذه المرّة أكل ثلاث لقمات، أربعًا، خمسًا.. ثم غرق في حواريّة المحشيّ مع مرقتها الحمراء. حين تراجع أبو عاصي طلب الشاي أوّلًا، بعد أن مدح محشيّ ابنته.

ولكنّ الأمّ التي تذكّرت "التايهة" قبل الفطور، حضرتها القرية مرّة أخرى، وهي تتذكّر بيت العائلة، في رمضانٍ بعيد، وكان عاصي في العاشرة وقد صام للمرّة الأولى، في أوّل تشرين الثاني وقد شجّعهم أستاذهم على الصيام، وكان يطلب منها أن تطبخ له محشي الكوسا، ولكنّ الخضار يومها قد شحّت وذبلت أغصانها، بعدما قصر النهار، وبرد الجوّ، وجاءت مطرة "المظلّة" وقلب فوّاز الأرض ليحرثها، ويبذرها حنطةً بياضيّة بعدما "طلّعت الأرض زغلها".

وحين جاءت حسنة بالشاي انتبهت الأمّ، وأصدرت ما يشبه الأمر:

- لازم "نقبّع" كم حبّة كوسا، على ما يجي عاصي.. يكون أثمرت.

- كلها عشرين يوم ويجي.

- خايف تبس الهروش، على ما يجي.

- ان شالله يجي، وأشتري كوسا من القامشلي.. يوم بيوم.

وكان القُمير الصغير قد لحق الشمس إلى عشّها المعتم، ولم يعد في فضاء الصفرة غير مصابيح باهتة في رؤوس الأعمدة، وطرقات فارغة إلّا من رجال ذاهبين إلى المسجد، لأداء صلاة العشاء والتراويح. ولم تكن صحّة الملّا سعيد تساعده في أداء

ركعات التراويح العشرين، فأوكل الأمر لابن محمد العلاص، الشابّ الصغير الذي درس شيئًا من الفقه في تلّ معروف، وأجاد قراءة القرآن الكريم على يد الملّا، ولم يكن لعلاء الدين الذي سمّاه الحاج عبد اللطيف عند مجيئه حظوة عند جدّه وأهله الذين انشغلوا بالكدّ الحقيقي وكسب القرش، فتركوه لشأنه، ونجاحاته الصغيرة. ولم ينجح الفتى في محيطه الصغير داعيةً، ولكنّه وجد أصدقاء انجذبوا إليه في الصفرة وخربة الشيخ أحمد، فاستأنس بهم الملّا سعيد، واطمأنّ قلبه إلى أنّ المسجد لن يُغلق.

***

ثلاث سيّارات محمّلة بالرجال جاءت من الشيخ رضوان، سيّارتان من المسعوديّة، شيخ القبيلة المقيم في المسعوديّة جاء بسيّارته الكاديلاك القديمة، وبيكابان من الناصرية. ولم تكن البيوت لتسع هذا العدد، فأشار مثنّى على الشباب أن يبنوا بيت الشعر الذي اشتراه بيت عمّه خليفة قبل سنوات، يوم شتّوا بأغنامهم في الجنوب متخطّين البلعاس. أربع عشرة ذبيحة من سِمان الغنم. اقترح الشاب جمال أن يذبحوا بقرة، لكنّ الشيوخ رفضوا الفكرة بشدّة. وزّع ملحم الجاسم الياسين أربعة أكياس طحين في قرية الشيخ رضوان على بيوت أصدقائه لمساعدتهم في الخبز.

وكان عرسٌ حقيقيّ. جاء إمام مسجد الشيخ رضوان، وأذّن بنفسه أمام بيت الشعر، وهرول نحوه الصبيان الصغار، متعجّبين من صفاء صوته، الصوت الذي يسمعونه من بعيد حين تنطفئ عين الشمس. وقف شباب آل الياسين جميعًا فوق رؤوس الضيوف، حاملين الخبز والإدام والماء، أجلسوا ابنهم العائد بين شيخ القبيلة وشيخ الجامع، ونظر ياسين إلى البعيد وهو يرى "قرعة أبيه" التي وجدها، وتبسّم.. ثمّ قال بخشوع وأمل:

- صمنا لوجه الله، وأفطرنا على ما قسم الله.

(٤٦)

ستّة أيّام بلياليها، والياسينّية تحتفي بالضيوف، وبابنهم العائد. في اليوم الأوّل ذبحوا ١٤ حائلًا، وفي اليوم الثاني ذبحوا ثلاثًا، وفي اليوم الثالث حلف سليمان الحمدو عليهم ألّا يذبحوا، فطبخت نساء الياسين المحشي في قدرين كبيرين. جاء سرحان بحمولة البيكاب الكبير خضرةً من بلدة السعن. وفي اليوم الرابع دعاهم شيخ القبيلة المقيم في المسعودية، وفي الخامس والسادس أفطروا في بيت الشعر، صنعت لهم كنائنهم الحضريات لحمة الراس، وال"قشّة"، والقطايف بالجوز، ودُعوا إلى العشاء في قرية الشيخ رضوان.

ستة أيّام، يسهرون في بيت الشعر، أناروا ثلاث لوكسات، وفي اليوم الثالث جاء مثنّى بمصباح إنارة مبهر "برجكتور". شربوا القهوة المرّة، وتسلّل العصير المثلّج إلى الخيمة بُعيد الفطور. جاء مشايخُ وتأمّموا الحشد الذاهل في صلاة التراويح، وجاء عازف ربابة جوّال يستعطي الناس في مواسم الحبوب، واستعاد عتابات عبد الله الفاضل، وغنّى شيئًا من الهجيني الحوراني.

في النهار جلس ياسين مع العجائز، ممّن أدركن أباه وجدّيه، روين له حكايات بَكَيْنَ في إثرها، وضحكن أحيانًا، كما رأى بنات عمّه يسلّمن عليه بمودّة واضحة. ولم تكن شمس تمّوز في بادية الشام لتمنح أبناءها المستظلّين بسقوفٍ هشّة غير التفكير بمصادر برودة منتظرة من نسمات باردة هرّبتها الريح الآتية من البلعاس، أو المراوح الأرضيّة تبلي بلاءً وهي تدور كقرص دوّار الشمس.

واتّفق الضيوف الثلاثة صامتين أنّ "الديرة طلبت أهلها" في ذلك الصيف القائظ. في انتظار نتيجة عثور ياسين على أهله، ولم يكن ياسين يريد إلّا أن يعرف "قرعة أبيه" وهذه عنده كانت تساوي مال الدّنيا.

بعد صلاة العصر، جلس مخلف المصطفى الياسين وأخوه عبّود، مع الضيوف. بدا الجدّ والاهتمام على الحاضرين.

- يا ابني يا ياسين، انت تسمع، والحاضرين يسمعون، جدنا.. أبوي مصطفى الياسين ترك أرض وحلال ورثة من جدنا ياسين، واحنا تقاسمناها بعدما طلعنا من الجارمية، بعنا الگاع، والحلال، وما حسبنا حساب عبد العليم ابن عمّي أحمد، وهسّع جدام الربع، نعيد أصل المال، ونتقاسم من جديد... ولك عندنا بيت جديد، وهاي جدّامك بنات عمّك، أي وحدة تريدها.. وتريدك، جتك.. ومهرها عندي.

- ما گصّرت يا بو صايل، وأنا كمان بقول لك قدام الحاضرين، ترى البيت اللي قاعدين فيه في الداوودية حصّة نانتك (جدتك) سلمى الله يرحمها، من ورثة المرحوم عزّت بيك. وإلك عنّا ورثة ذهب تقاسمتّو النسوان، ما بعرف تفاصيلو.

- يا قوة الله .. صاح سليمان الحمدو، واحتضن الشابّ، الذي أحسّ بنشوة كبيرة أطفأت عطش الصائم في آخر يومٍ صيفيّ.

- ها يا ابني .. أنت شـ عندك؟

- والله يا جدّي، ويا عمامي والجميع، آني ما جيت أدوّر على ورث، آني جيت أدوّر على اهلي.. آني عشت بين ناس، من أكرم الناس، وأطيب الناس، حطّوني بحضنهم، وعاملوني معاملة الابن المدلّل، ما جعت عندهم، ولا عطشت، كلّ أهل الصفرة وخربة الشيخ أحمد كانوا أهلي، نصّ نسوان الصفرة رضّعنّي. بسّ الأهل عزوة وسند مهما كان. صحيح آني عتبان، انّو ما حدا سأل، كلّ ها السنين، بسّ لمّا عرفت

السبب أعذرتكم. الحاج عبد اللطيف سجّل لي گاع باسمي، أرض خصاب. والله مو ناگصني غير اهلي..

وفيما كان ياسين يتكلّم بدا التأثّر واضحًا على الجالسين، وذرف الحاج عبّود دمعتين، وتمنّى سرحان لو أجلّوا الحديث حتى الإفطار، ليدخّن سيكارة بدت له ضروريّة في مثل هذا الموقف.

- آني عازمكم يا عمامي جميعًا، وياعمي سليمان، وعمّي إسماعيل، ع الصفرة. هناك بيتي، وما أگدر أترك الناس الـ ربّوني كلّ هالسنين، وهم محتاجين لي بكبرتهم.. وانتم ما ترضونها لي.. إنّي أتركهم بعد جمايلهم عليّ.

- اي والله.. ونعم التربية يا ابني.

ولكن سليمان خاف من موقف الشيمة لدى الشابّ أن يفرّط بحقوقه في موقف عاطفي.

- الحگّ حگّ يا إبني. حقوقك تاخذها على "دوز بارة" يصفّون لك ايّاها عمامك على راحتهم، وورثتك من حبابتك بيت عزّت بيك تاخذها، والعزيمة مقبولة، بس تمهلنا لبعد رمضان، وان شالله نعيّد عندك.. أعيّد الصبح عند أهلي، وأركب أنا وعمّك إسماعيل نجي غ الياسينيّة، نتمسّى هين وثاني يوم إن شالله عندك.

***

بين تدمر والدير كان ياسين يحشد الصور التي اكتنزها في الشريط المجنون، يستعيد القوس الذي رسمه في أسبوعين من القامشلي فحلب ثمّ إدلب فحماة. وعمّا قليل سيغلق الدائرة عندما يصل الصفرة.

كان سائق السيّارة الديري يستعجل الوقت كي يَصِلوا قبل الفطور. في الطريق تحدّثا طويلًا في الحرب الدائرة في البلاد، وعن فريق الفتوّة وثرود البامية. كان الشوفير ينتظر شراب السوس، قبل أيّ شيء، وأكّد أنّه اليوم "معزوم" عنده، ولكنّ شمس تمّوز لا تغيب مبكّرًا، رغم أنها انكسرت وراء عابرينِ في صحراء ممتدّة، ينتظران شرابًا باردًا في مدينة بعيدة.

عاد شريط الصور إلى ياسين، بعدما استنفدا جميع الأحاديث، ابتسم، وضحك، وحدجه السائق بتوجّس. في الطريق توقّفت السيارة لتحمل راكبًا على الطريق، وتوقّفت مرّة أخرى ليملأ السائق "الرياداتور" ماءً، من عبوة كبيرة. وابتسم وهو يقول لياسين: "شايف بالله.. السيارة مفطرة، لا عاش عمرها.. الجايفة".

حين بدت الدير من الغرب تلقّتهم التلال، ثمّ مرّوا بالمقبرة، وقرأ الراكب الذي ظلّ صامتًا الفاتحة بعدما سلّم بصوتٍ عالٍ، وقال: "أنتم السابقون ونحن اللاحقون".

ولم تكن فرحة آل البيطار بياسين تعدلها فرحة، وبخاصّة أنه وجد أهله، ولكنّه لم يبق طويلًا، سهر معهم ودعاهم إلى "عزيمة" العيد، ومضى في قطار الصباح.

***

يتّفق جميع الصائمين أنّ أيّام رمضان قصيرة. قالت أمّ حسنة "الله العليم، أنّ الليلة هذي ليلة القدرِ" وتمنّت حسنة أن ترى هذه الليلة مثلما يتحدثون عنها، ليلة مهولة غامضة يهتزّ فيها الكون، وتنزل ملائكة بأجنحة بيضاء، ويتحقّق كلّ ما يتمنّاه من يرى تلك الليلة. وكان ياسين قد وصل القرية منذ عشرة أيّام. رأته مرّتين، مرّة

أمام حوش أهله، وهي ذاهبةٌ إلى بيت "أبو دحّام" تحمل إليهم الخضرة رفقة أخيها، ولا بدّ أنّه رآها فأسرع بالدخول إلى البيت. حزّ في نفسها فتور ياسين، وتجاهله إيّاها، وسمعت أباها يقول إنّ ياسين قد وجد أهله، عائلة الياسين التي تقيم في ريف حماة، عائلة كبيرة، ومن قبيلة معروفة في الشمال. كان الأب ينظر إلى زوجته وهو يتحدّث، وبدا امتعاض المرأة واضحًا من ردّها:

- يْحَمد الله.. لو مو آني .. ما لگى أهلو

وتمنّت في تلك اللحظة أن "تقعد على ليلة القدر" وتدعو الله أن يتغيّر موقف أمّها من ياسين. ولكنّ وصول عاصي في المساء شغلها عن أمنياتها، بأخيها العائد من السجن، فقضيا الليل ساهرين، وبعد السحور قالت لأبيها: "لازم نسوّي لعاصي فطور محشي كوسا"، ولكنّ أباها قال لها إنّهم سيذبحون غدًا وسيدعون وجوه القريتين، فزاد فرح البنت وقد أدركت أنّها ستراه ثانيةً وجهًا لوجه، وربّما ستقول له شيئًا.

كان ياسين متحفّظًا، لمحته من بعيد بسحنةٍ حياديّة، وقد بدا أسمر قليلًا، وشاحبًا، وأكثر ثقةً ممّا رأته آخر مرّة، حتى إنّ عاصي الذي سلّم عليه بحرارة، وعانقه، لمس تغيّر ياسين، لم يجده مثلما عهده في حادثة المحكمة، وللأمانة؛ فقد حزّ في نفس الأمّ هذا الجفاء الذي كانت سببه، ولكنّها لم تجرؤ على اعتذارها من الشابّ. ولم يكن للصبية غير أن تخطف نظرةً أو نظرتين نحو الفتى الذي تغيّر فعلًا، ياسين العبد العليم الياسين، وليس ياسين العبد اللطيف، وهزّت الفتاة رأسها، ولكنّها اغتنمت فرصة نادرة، حين غادر الشابّ مبكّرًا بعد الفطور بدقائق، فيما المدعوون منهمكون في الطعام، وقبالة الباب الصغير الذي سمع منه كلامًا عن "قرعة أبيه" كانت حسنة تقف عند المطبخ وحيدة:

- شايفك تكبّرت علينا يا استاز؟ ترى الكبرة لله.

(٤٧)

أذاع التلفزيون أنّ العيد غدًا، فاستبشر الجمع الجالس أمام التلفزيون، وتبادلوا التهنئة، وشعر المفطرون أنّ العيد قد بدأ فعلًا. الملّا سعيد كبّر تكبيرات العيد بعد أذان العشاء، ولم ينتظر الأطفال والشباب صباح الغد لتفكّ الأمّهات أكياس السكاكر، فانسلّوا إليها وتذوّقوا "الناشد إخوان"، وبسكويت "بتي فور"، و"غراوي". وجاءت زوجة منصور الحاج عبد اللطيف بطبق الكليجة لتسمع كلمات إطراء الحاضرين في إتقانها، تلك السيدة الماردليّة (المعدّلة)، وقد جاءت عائلة منصور من القامشلي ليقضوا العيد في الصفرة. وسأل عبد الله ياسين عن عدد الذبائح التي يجب تحضيرها، وكان ياسين حائرًا لأنه لا يعلم عدد ضيوفه الآتين من إدلب وحماة والدير، وشجّعه عبد الله أن يذبح ما يكفي الضيوف وأهل الصفرة والخربة وضيوف الحاج عبد اللطيف.

- شـ رايك نذبح بكرة.

- لا.. نذبح غنم.. غنم فتيّة.

- عندنا شي ١٠ نعجات حيل سمان، و٨ خرفان كبار.

- إذا ما كفّن.. انزل ع العلوة.

- بالعيد .. ما بي علوة.

- لا لا .. روح ع الدلّال.. أكيد راح يدلّك على أهل الربط.

- ان شالله .. تا نشوف باچر.. يمكن عند المحسن العلّاص ربايط.

- ولا يهمك يا استازنا.. اذبح.. وبيّض وجهك ووجوهنا.

- ما تگصّر يا خوي.

وكان الحاج عبد اللطيف قد قضى رمضان كاملًا في مأمن من حلمه القديم، وخاف أن تكون إجازة الذئاب قد انتهت بعد هدنة رمضان، فعزم أن يصوم "الستّ" بعد اليوم الأوّل، وما زاد في قلقه خوفه من تبعات عثور ياسين على أهله؛ فها هو الباب الذي أغلقه كلّ هذه السنين قد انفتح، وتذكّر صورة الولد الرضيع الباكي وهو يتنقّل من حضنٍ إلى حضن، ومن يدٍ إلى يد؛ تذكّر العجوز الذي جاء مطالبًا به عندما كبر قليلًا، وتذكّر كيف أقنعه. والآن يا عبد اللطيف، ستأتي أمّة لا إله إلّا الله من ديارٍ بعيدة، يعرفون عبد العليم وأهله، كيف ستساومهم على ياسين؟ وكيف سيرحل عنك، وهو نور العين وعكّازة المشيب؟

كانت الذئاب تعوي بهدوء في ليلةٍ أفسدت ظلامها مصابيح باهتة صفراء، وأولاد يلعبون ويصرخون: *"باچر عيد ونعيّد، ونذبح أمّك يا سعيّد"* وقد عاد آباؤهم هذا المساء ببدلات رخيصة جاهزة، مع سكاكر العيد. ولكن الذئاب هجعت في صدر الحاج عندما بدأ الأولاد يمازحونه، ويسألونه عن أحبّ أولاده، ونسائه. وكأنّه ذاته "لطيّف" الفتى الصغير يركض تحت قلعة ماردين قبل سنين بعيدة يصعب تقديرها، صورة هاجعة في الضباب لفتًى صغير يغادر بيت الشعر في مغامرةٍ غير محسوبة، حين ركضوا وراء ثعلب نصف يومٍ وراء القلعة البعيدة، وكان يمكن أن يلتقطهم قاطع طريق، أو لصّ خائب، ولكنّ الرعاة العابرين أعادوهم، يومها سأله خاله: "مين اغلى؟ أبوك الّا امّك؟" فأجاب عمّي حمّود وأشار إلى الراعي الذي أنقذه. وتعجّب كيف لهذه الصورة أن تغيب عنه كلّ هذه السنين؟ فابتسم من أسئلة أولاده وصورة "لطيّف" الناجي من المغامرة الأولى أمامه، ولكنّ حاجته إلى النوم ساقته مجبرًا إلى مكامن خوفه، فنام، طالبًا من أم ياسين أن توقظه لصلاة العيد.

كبّر الملّا سعيد، والشاب الصغير ابن العلّاص، وكبّر شباب بخجل، وكبّر أطفال بحماسة، والملّا سعيد يحفّزهم، ناقلًا "المايكروفون" بين الأفواه، مسترسلًا "الله أكبر الله أكبر الله أكبر" ثمّ يأخذ نفسًا، ويكبّر بطبقة مختلفة، وكأنّها طبقة القرار الهادئة الحنونة، تقابل طبقة الجواب الحماسية العالية: "الله أكبر الله أكبر ولله الحمد". وأعاد "الملّا الزغير" ابن العلّاص التكبيرات، وجذب ألباب المصلّين، وأيقظ البقية الباقية في أرواحهم من النوم، وأجهش بعض الشيّاب وكأنّ صوته الحزين قد أيقظ المواجع التي تنبت عادةً في الأعياد. وامتلأ المسجد الصغير، وظهر قرص الشمس، فقام الملّا للصلاة، وقام الجمع الغفير من أهل الصفرة، وبعض أهل الخربة، وبعض عائلات "الغنّامة" الذين يأتون الديار بعد الحصاد. مدّ الشباب حصائر خارج المسجد استعاروها من الجيران، فصلّى الملّا وكبّر سبع تكبيرات قبل أن يقرأ الفاتحة، ثم كبّر خمسًا في الركعة الثانية، وبعدما سلّم ناشد الحاضرين أن يسمعوا الخطبة، غير أنّ كثيرًا منهم انسلّ خارج المسجد.

***

كان ياسين يزور قبر والديه وهو صغير يقرأ القرآن الكريم، وينثر السكاكر، ولكنّه منذ سنتين، اكتفى أن يدعو لهما وهو في المسجد، ثمّ يزورهما ثاني أيّام العيد. ولكنّهم سيزورون الشيخ إبراهيم في الخربة للسلام عليه في أوّل عيد من دون فارس القرية والقبيلة الشيخ أحمد، وسيزورون بيت فواز المشعل للسلام مجدّدًا على عاصي مهنّئين بسلامة عودته. ولامَ ياسين نفسه، لأنّه لم يطيّب خاطر حسنة، بأيّ كلمة، حين عاتبته وهو خارجٌ من عندهم. ولولا انشغاله بالتحضير لاستقبال أهله، لأرسل أمّ دحّام لتقول لها إنّه كما هو، ولم يتغيّر. "ما تغيّرت، والله يمجنّي تغيّرت"، واستعرض وجوه بنات عمّه في الياسينيّة، وبنات قريباته في الداوديّة، الحضريات البدويّات.. سلمى القدّور، وفاتن ابنة سرحان الخليفة الياسين.. ولم تدم المقارنة طويلة، فما زالت حسنة تقيم بين ضلوعه. ومدّ ياسين يده إلى صحن الضيافة

الكروم ذي الطبقات الثلاث، مختارًا بضعة قباقيب من الحلوى الهشّة، وحذّرته أمّه بشدّة:

- يدا.. ألحز تْحَمَر ..عجل ما انتَ رايد حالك؟

وضحك ياسين، ومدّ يده إلى القباقيب مفضّلًا إياها على كليجة زوجة أخيه.

أحسّ عاصي بمغص حادّ، فقد خلط بين السكاكر والدسم. كان عاصي يأكل بشهيّة كبيرة، وكأنّه يعوّض حرمان شهور السجن. كان ألمًا بسيطًا، ولكنّ الألم ازداد، قالت له أمّه "راجع" وذهب فعلًا ليتقيّأ، وحاول مرارًا، ونجح في إفراغ ما في معدته. وتحيّر الأب ماذا يفعل، وتنبّه دحّام إلى أنّ الدكتور عبد الله معهم في القرية، فأرسل إليه، ولم يبطئ حكيم القرية في الحضور وملاحظة الشابّ. عرف عبد الله أنّها أعراض تسمّم، فأوصى بحقنة مضاد حيوي، وقال لدحّام "يمكن تلگى الابر عند محسن العلاص أو عند الحج عبد اللطيف"، ومدّد الشاب بهدوء حتى لا يتحرّك. بعد الحقنة ارتاح الشابّ، وغادر عبد الله. حين مضى الدكتور عبد الله، استسلمت العجوز لنوبة ألمٍ غريب، وسمعت صوتًا يخاطبها "شـ سوّيتِ؟" وكرّرت وهي تمسّد شعر ابنها: "آني شـ سوّيت؟" وذرفت دمعًا فوق وليدها الموجوع، وقالت في سرّها "ان جا هالمرّة راح أوافق".

***

عيد رمضان في الصفرة يوم واحد، بل صباح قصير، ينتهي عند آخر بيت وصلته كتيبة المعايدين. قبيل المساء يُخرج الأولاد الدوابّ من الحظائر، يأخذون معهم كنوزهم الصغيرة من السكّر، ويتبادلونها قرب التلّة، مع أولاد الخربة، وبعد عودة الماشية تجد النساء فرصة للخروج جماعات للسلام على مريضة، أو إحدى بنات القرية المتزوجات خارجها، وقد جئن إليها في إجازة عيد عابرة.

كان خبر أهل ياسين قد انتشر في القريتين، انتقل من بيت إلى بيت، وتكوّر مثل كرة ثلج، وتضخّم.. فيما سيرثه، ومن هم أهله، وعن بيت البيك جدّ الفتى من أمّه. وفي اليوم الثالث كانت النساء يتداولن أخبارًا صاغتها إحدى كنائن العلّاص أن الفتى يمتلك أرضًا واسعة في حماة، وبساتين في إدلب، وكيلو غرامات من الذهب، وأنّ أحد أعمامه في مجلس الشعب.

***

الإثنين، ٣ آب ١٩٨١. قرأ ياسين ورقة المفكّرة على الجدار، كانت الثامنة صباحًا، أرسل أولاد أخوته الشباب لتحضير بيت الشعر، صحيح أنّ "الأوضة" كبيرة وواسعة، وطالما اتّسعت لجلسات قبلية مشهودة، لكنّ الاحتياط ضروريّ. قاطعت ابنة أخيه الصبيّة تفكيره، وهي تقطع ورقة التقويم:

- شوف عمّو ثلاثة شوّال، ثلاثة آب نفس الشي.

- بس أيّام الشهر القمري ما هي محدّدة، مرّات ٢٩ ومرّات ٣٠، يعني الشهر الجاي ما راح يكون ١ ذو القعدة هوّ نفسو ١ أيلول.

وجاءت زوجة منصور بالفطور، وسارعت ابنتها لمساعدتها، وأيقظت أم ياسين الحاجّ كي يفطر مع أولاده، فأخبرها أنّه صائم، ولم تتمالك العجوز نفسها فقالت للرجال المتحلّقين حول الفطور: "شوفوا لي حلّ مع أبوكم.. ما يصير ما ياكل.. عندو اداوي لازم ياخذها".

- يا يابا .. الـ تكولـ و الحجّة صحيح، لازم تفطر... وبعدين اليوم عندنا ضيوف.

وهز الحاج رأسه وقال في سرّه "آخ من الضيوف" ونظر إلى ياسين مستعبرًا، ولكنه تدارك الموقف، وقال لعجوزه: "هاتي لي فطور".

وحسب ياسين أنّهم قد يَصِلون عصرًا، ولكنّ الجمع الذي كاد أن ينهي فطوره فوجئ، بالسيّارات الخمس التي وقفت أمام حوش العبد اللطيف، وركض شابٌ يافع إلى البيت:

- جوكم ضيوف.

- يا حيّ الله بيك وبالضيوف.

تقدّم سليمان الحمدو الخضر الجمع، وسلّم على الرجال، وتلاه خليفة الياسين والحاج عبّود وعادل البيطار، ورجال من عائلتي الياسين والبيطار. عدّهم الشابّ الصغير الذي جاء معهم يدلّهم على البيت.. "عشرين، واحد وعشرين، اثنين وعشرين.."

انحنى الجميع على الرجل الممدّد وسلّموا عليه، قبل أن يجلسوا. وأمام الحوش تجمّع أطفال وبعض النساء، وقال ثائر ابن عبدالله للشاب الصغير:

- تعال هين.. لا تخلّي حدا يگرّب ع السيّارات.

وهناك في حقلٍ بعيد، كانت عائلة صغيرة "تحوش" الخضرة التي لم تقطف منذ أربعة أيام، ولكنّها توقّفت قليلًا لتشاهد السيّارات الآتية من طريق الخربة وكأنّها سيّارات زفّة، وقال فيّاض: "هذول أهل ياسين"، وصمتت العجوز ولم تقل شيئًا، ونظرت الصبيّة الحانقة نحو أمّها:

- ها يمّا.. عرفتِ "گرعة ابوه... منين"؟

"ابن عمّي، ومثل اخوي*

ودم وريدي، من وريدك"

(٤٨)

- هذا ياسين

وأشار الحاج عبّود إلى ابن أخيه، ثمّ أمسك بيمناه أصابع اليسرى، وهو يعدّ نسبه: "العبد العليم، الأحمد، المصطفى، الياسين، المحمد، الضامر، العلي، المطلق، الحسن، الضامر. نِرِد ع العتيج أخوْة ربّا".

- والنعم.. والسبعةِ أنعام.

- ما عليكم زود. قال الحاج عبود الياسين، وأكمل:

مع السفر برلك، ساع اجدادنا، وساعت الناس كلّها، وهاجر ياسين المحمد بحلالو ع الروج والعمگ، وما رجع، وظلّينا بالجارمية تا بْلِشنا بآخر التسعة والخمسين، لمّا جان عبد العليم عندكم، وجلينا ع الشيخ رضوان، ظلّينا خمس سنين حتى تصافينا، احْنا والرمضان، وبِ ها الأثناء توفّى عبد العليم.

- الله يرحمو -قال إبراهيم الشيخ- احْنا والضامر ولد عمّ، نْتَلاگِي بعد ثلث جدود.

- العرب كلّها عمام يا ابن اخوي.

- الله شاهد.. انّا لمّا توفّى ابن اخوي عبد العليم ما چنّا ندري انّو خلّف، والشايب الـ جاكم، ما هو من طرفنا. احْنا مديونين ليكم بجميلة ما نلحگ ليكم بيها على جزا: ربّيتوا ابنّا، كلّ ها السنين، وعاملتوه على أنّو واحد منكم.

كان الحاج عبد اللطيف يسمع الحديث باهتمام، وحين سمع كلمة "ابنّا" اضطرب قليلًا، وتجهّم؛ فماذا يريدون منه بعد هذه السنين، ولاحظ الحاج عبّود قلق الشيخ وتجهّمه، وفطن إلى عبارته، فاستدرك:

- ياسين.. ابنكم ياسين، الأب هوّ اللي ربّى، بس من حق ياسين يعرف مين همّ اهلوا، وواجب علينا نعتذر عن تقصيرنا بحگ ابنّا، وواجب علينا نشكركم على جميلكم.

- احنا أهل بعون الله يا حجّ. قال الدكتور عبد الله.

في المجلس الذي انعقد في حوش العبد اللطيف تلك الليلة، كان نحو خمسين رجلًا ينتظرون ما يشبه بيانًا، أو مفاوضات حادّة، وتذكّر صفوان ابن عادل البيطار قصّة "دائرة الطباشير" في درس قراءة قديم، وتساءل: هل يختلف صراع الآباء على الولد عن صراع الأمّهات، وأشفق أن يضعوا ياسين في الدائرة ويجرّونه كلّ إلى جهته. ثلاثة من شباب العبد اللطيف، يقدّمون الماء والشاي والقهوة المرّة. جاء عبد الله بسلال من العنب والتين وصناديق من الخوخ والدرّاق. ظلّت زوجة منصور ساعتين تغسل الفواكه وتضعها في صحون من البلّور والخزف الصيني، وحين لم تكف الصحون؛ استعاروا صحونًا أخرى من الجيران. قارن ياسين بين جلسة اليوم، ومجالس أقاربه في الجارميّة والداوديّة والياسينيّة وحيّ الزهور في الدير، واطمأنّ قليلًا وراقب بقلق حديث الحاجّ عبود. وكان يعرف أنّ الكرة في ملعبه في نهاية المطاف، ونظر إلى الحاج عبد اللطيف الشيخ التسعينيّ متمدّدًا، ومغطّى بعباءته الصيفيّة الشفّافة الخفيفة "الخاچيّه الشقراء"، وأحسّ أنّ شيئًا في صدره يهدر مثل تركتور العلّاص، فمشى خارج الحوش، ولاحظ الحاجّ عبود ذلك، وناداه:

- ياسين.. وين رايح؟

- جاي يا عمّي.. شوي بس.

و"خسّا" الشابّ نفسه، ولكنّ نهر البكاء سال، وأخرج من جيبه علبة التبغ، وأشعل سيكارةً ودخّنها. عندما عاد ناداه الحاج عبد اللطيف، في اللحظة التي ينتظر فيها الحشد ما يقوله الحاجّ:

- يا ياسين.. انت اليوم ياسين العبد العليم، وهذول عمامك واهلك، أبوك الله يرحمو جانا من خمس وعشرين سنة، وحبّيناه، وجوّزناه، ولمّا ربنا أخذ أمانتو، چنت انت هديتنا من ربّ العالمين، ليّ، ولأمّك "أمِ ياسين"، احنا ما لنا فضل بتربيتك، هذا فضل رب العالمين علينا قبل ما يكون عليك.

لمّا توفّي والدك، چان مسجّل باسمو عشر هكتارات، ولمّا توفّي جدك فهمي كان باسمو زاد عشرة، جا خالك بعدما راح ع الشام، واشتريتهن منّو "من منتوج أرض أبوك" والباقي من عندي .. استافيتو سنة ورا سنة. الدنيا حياة وموت، لك عندي عشرين هكتار بين سجي وعذي، ولك بيت أبوك وبيت جدّك أبو نظمي، ايمت ما بدّك روح عمّرهنّ، وإذا حبّيت تظلّ عندي، انت ابني، وأغلى من كل ولدي هذول، واذا حابّ تروح على عمامك، ترى ما تنلام.

عند خيارات الحاج، بكى ياسين بصوتٍ عالٍ، وبكى خليفة وسليمان الحمدو، وأدرك صفوان أن هذا الشايب هو الأب الحقيقي.

واستدرك سليمان الحمدو خيط الحوار قبل أن ينفرط:

- يا ها الربع، انتو نسيتو أصل السالفة، ياسين حبّ يعرف أهلو مشان البنت اللي خطبها، خلّونا نروح نخطبها، ولاحقين بعدين.

واضطرب ياسين، وأحسّ أنها محطة بهجة تتخلّل فصل التراجيديا الطويل، وشدّ على يد صفوان، فجذبه صفوان نحو دائرة وهمية، كانت قبل قليل مرسومة أمامه.

***

ثلاثة أيّام وأولاد دحّام في حالة حزن، ألبستهم جدّتهم لباس العيد، أعطت كلّ واحد منهم خمس ليرات ورقيّة خضراء، فطّرتهم بمساعدة أختهم الكبرى، بكوا قليلًا عندما كانت مئذنة المسجد تكبّر تكبيرات العيد في الصباح. صبرت العجوز، ولكن عبثًا، جمعة الصغير ركب الطريق ولحقته أخته بعدما تجاوز آخر بيت، والبنت الصغيرة تصرخ "وين امّي؟"، وبعد الظهر تعرّض حمزة لإسهال شديد من فرط ما تناول الحلويات وشُرب العصير المغشوش.

كان دحّام قد جاء وقفة العيد. جاء معه بأغراض العيد، وثياب الأولاد، ثمّ تلاسن مع صبحة حول إحدى البدلات التي كانت قصيرة على "جمعة" ولم يكن الوقت كافيًا ليستبدل دحّام البدلة من محلّ "النوفوتيه" فأقنع الأمّ أنّ البدلة مناسبة. تلاسن الأبوان، وامتدّت يد دحّام إلى الزوجة المغدورة. ولم تكن عمّتها (امّ دحّام) في صفّها، وفكرت للحظة أن تقدم على الانتحار، "أن تخلص من ها الحياة". بعد العصر بقليل حدّثت نفسها "عجل ما عندي اهل؟" فأخذت صرّة صغيرة تضمّ بعض ثيابها، وثياب طفلها الرضيع، واغتنمت فرصة انشغال العائلة بضيوفٍ عابرين مرّوا ليسلّموا على أبو دحّام. بعدما تعدّت التلّة صارت على الطريق العامّ، وكانت بوسطة عبد الجليل تلوح من بعيد، فأحسّت المرأة بالأمان، وأشارت إلى البوسطة الخضراء أن تتوقّف.

منذ زمن، ربّما من ثلاثين سنة، تطوف بوسطة أبو جليل قرى الجنوب، تجدها في الجوّادية، وربّما في حدّاد، أو المالكية (ديريك)، قبل أن تسير في الطريق العام نحو الغرب خارجةً من "منقار البطّة". كان جورج رزقو شابًّا يوم قاد أوّل مرّة سيارة من

المالكية إلى القامشلي. كانت سيارات الديسوتو الصالون ذات المقاعد الثمانية قد انتشرت ونافست الشركات الأخرى، فاقتناها المقتدرون، وشركات النقل، ولكنّ جورج استطاع أن يستقلّ بوسطة نقل أكبر ذات "خُشّة" كبيرة يجد فيها أبو جليل هوايته في القبض على إنسانيته، وقضاء ساعات مرح ومتعة في اكتشاف جغرافيا بشريّة هائلة، أتقن من خلالها الكردية والعربيّة إضافة إلى السريانيّة.

حين وقفت البوسطة، نظرت صبحة إلى العجوز الأشعث بقلق:

- ها يمّا.. وين رايحة بها الوگت.

- على اهلي.. بامّ العماير.

- لا تگولين حردانة.

وصمتت صبحة ، ولكنّ دموعها قالت كلّ شيء، ومشت البوسطة بهدوء صاحبها المعتاد:

- ما يستاهل.. لا عاد ترجعين.

وأجهشت المرأة بصوتٍ عالٍ. وعندما غطست الشمس وراء الأفق، ناولها أبو جليل إبريق ماء نايلون، وقال لها:

- أكيد صايمة.

***

- دزّ خبر للجماعة، ما هي حلوة نجيهم على غفلة.

- دزّيت خبر من الليل.

- اي زين.

ولفّ الحاج عبود "سيكارته" بهدوء، ونظر إلى ياسين مبتسمًا.

- ما ظلّ لْها حجّة بنت الحلال.

وضحك الحاضرون، واغتنم الحاجّ عبود الفرصة:

- آني يا عمّك، ضربني عرج الهوى گبل سنين، مثلك ردت بنيّة حضريّة من حارم، چان يومها موسم حوش الزيتون، يوم، يومين، شهر، گول حبّيت البنيّة. خذيت ابوي مصطفى الله يرحمو، تا نخطب، ابوها ردنا من أول الگعدة و گال: "أنا ما أعطي بنتي لبَدَويّ" گام الحجّي زعلان، ولحگتو خجلان وخايف (وضحك الجالسون). ظلّيت شهر زمان، أتمرّض، وحالي بالويل. أمّي گالت لجدّك مصطفى: "دزّو على گرايبو... شهر زمان بلچي ينسى" والله وما چذبت خبر.. ركبت ع الجزيرة، ووصلت گرايبي، شغلة اسبوع شفت عمتك أم مثنّى وصار النصيب.

- وما تعنّ على بالك... هسّع؟.

وضحك الحاضرون، وحاصر أولاد الحاج عبّود أباهم، وراقبه الجميع.

- عندي أمّ مثنّى بالدنيا كلّها.

- الزمان ينسّي... قال إسماعيل القدور، وهو يهزّ بشكل دائري كأس الشاي، مكتفيًا أمام إصرار الشاب الذي يحمل إبريق الشاي.

وتساءل ياسين: هل يمكن أن أنسى حسنة، إن لم تكن من نصيبي؟ ولكنّ فيّاض الذي ناداه من بعيد، طرد الاحتمال المحبط:

- ياسين.. تعال.

- ابوي يگول الله محيّيكم المسا.

***

لم يكن لفواز المشعل أن يستقبل ضيوفه إلّا مساء، ليمدّ لهم في باحة الغرفة الصغيرة. جاء دحّام بالمدّ، والوسائد. لم تذهب حسنة إلى الحقل ولم تذهب أمّها، وحده فيّاض كان يسقي البندورة بعد قطافها مساء الأمس. حضّرت أم حسنة عشر "دبشيّات" غطّستها في حوض الماء، وأرسل الأب عاصي إلى القامشلي ليحضر أعمامه، أعطاه مائة ليرة فوق الحسبة، وأوصاه أن يأتي بعلبة بودرة شراب البرتقال.

قبيل الغروب، نزل عاصي وأعمامه من السيّارة، تقدّم عمّه صايل المشعل وتلاه أخوه الأصغر سعيد ثم نزل شابّان مراهقان، ساعدا عاصي في تنزيل الأغراض.

***

في آب تتكاسل الشمس في النزول إلى برجها الهادئ، وقال صفوان لياسين إن برج السرطان سيحدّد مصير الدائرة، ولم يفهم ياسين شيئًا، وشرح له صفوان عن الأبراج والنجوم، وأشار إلى الجنوب المعتم:

- شايف العقرب؟

- وين؟

- شوف هااااااي راسها (ومدّ أصبعه أمام عين ياسين).

- اي.

- وهاي ظهرها.

- اي والله.

- وهاااااي ذيلها.

- والله صحيح.. هذي هيّ العقرب اللي نسمع بيها في الأبراج.. اي هاي هيّة. انت طول حياتك بالدير، نجومكم بروس العمدان، چم لمبة كهربا.. منين جايب ها المعلومات؟

- اني خوالي من قرى الميادين.. كلّ صيف أروح أسيّر عندهم.

***

وصاح سليمان الحمدو بصوتٍ عالٍ:

- يا جماعة، الـ ما صلّى المغرب يصلّي، ترى الليل قصير، وما راح نلحق نحكي كلمتين ألّا صاير نصّ الليل.

وخرج الرجال متّجهين نحو مزرعة دحّام، وقال سليمان "ما في داعي للسيّارات.. نروح نتمشّى، كلها دقيقتين" لكنّ الحاجّ عبود أشار إلى السيارات.. كرامةً للعروس وأهلها، ومن أجل الحاجّ عبد اللطيف.

ومشى الشباب وتركوا الكبار في سيّاراتهم. الضيوف، والحاج عبد اللطيف وأولاده، والشيخ إبراهيم الشيخ أحمد، ومحمد المحسن العلّاص. وعدّهم الشاب ذاته الذي رافقهم قبل يومين" ثلاطّعش، أربعطعش، خمساوعشرين، سبعاوثلاثين، ثمانياوثلاثين... وعدّ العجوز وبناتها وزوجة منصور والصغار في حسبة أخرى، وهو يمشي معهم.

حين نزلوا "هبط حيل البنت" وشجّعها أن وفدًا أنثويًّا جاء مع "الخطّابة"، زوجة منصور قرصتها من يدها، وقالت لها: "هاي أكبر جاهة صارت عندنا يا حسنة"، ومنعتها من أن تفعل شيئًا، وأشارت إلى فتياتها الصغيرات أن يساعدن فيّاض وعاصي.

ودار الشاي، ثمّ صحون الدبشي المقطّع بعناية، ولم يبق للجلسة في تلك البقعة الرطبة الباردة في الصفرة، إلّا أن تسمع مداولات الخطبة التقليديّة.

- يا بو عاصي، احنا أهل ان شاء الله.. هذول عمامنا الضامر أهل ياسين.. ياسين العبد العليم.. جايين يخطبون بنتك حسنة.. لابنهم ياسين.. تفضّل يا حاج عبود.

- لا والله.. لا والله يا حجّي.. الكلمة لك، انت ابو ياسين، وابونا كلنا.

- الله يزيدك شرف يا حجّي.. يا بو عاصي، شـ گلت؟.

- يا حيّ الله بيك، وبأهل ياسين، واحنا زاد أهل ياسين، وجميلو ما ننساه يوم فدا ابني في المحكمة.

- ياسين ما سوّى ألّا الواجب.

- والنعم من ياسين، ومن تربيتك يا حجّ.. آني أگول أنت ابوها وانت ابو ياسين، انت فصّل واحنا نلبس.

- ما دامك گلت.. راح أعيل على ياسين.

- يا حجّي احنا سياكنا ١٥٠ ألف، وكرامة لحسنة، اني من عندي زود عشرة. صار ١٦٠.

- بس يا حجّي..

- واني من عندي عشرة قال الحاج عبّود.

- وأنا من عندي خمسي. قال إسماعيل القدّور.

- وإلها عندي خاتم وساعة. قال عادل البيطار.

- والبدلة عليّ. قال إسماعيل القدور.

- يا بو عاصي.. سياك البنت مية وخمسا وسبعين.. ان شالله تحطّ فوكهن مليون، انشالله تجينا بهدومها اللابستهنّ.

- توكلنا على الله.. اگروا الفاتحة.

وزغرد الجمع الصغير من النساء، وأخرج عبد الله مسدسه ونهض وأطلق بضع رصاصات، وقال خليفة الياسين:

- ليش ما نگظّب العجد؟

- بكيفكم.. صارت بنتكم.

- يا ويلاد.. واحد يروح يجيب لْنا الملّا گبل ما ينام.

- الملّا بالقامشلي.. راح يشوف ويلادو ع العيد.. ويرضّي مرة دحام الچبيرة، يمكن بعد شوي يجي.

- جيبوا لْنا شراب .. ترى ريجنا نشف.. قال فوّاز مازحًا

وهرع الشباب الصغار إلى الغرفة الصغيرة يضعون العصير المثلج في أباريق البلور ليديروه على الحاضرين، ولكنّ أحد أبناء صايل المشعل، عاد من جديد إلى الجمع، وصرخ بصوتٍ عال.

- حسنة بنت عمّي، وما حدا يگرّب عليها.

(٤٩)

"كأنّك صبّيت عليهم ميّة باردة". لم يكن جاسم الصايل في وضع يسمح له بالزواج، فالشابّ الذي تخلّف عن حمل دفتر العسكريّة هذا الربيع، لم يكمل دراسته، توقّف عند الثانوية، وبدقّة أكثر وصل الحادي عشر، حين صارت "البلشة"، ولم يكن يحتمل مشقّة التعليم، فوجدها فرصةً ليساعد أباه في "العلوة" يضع الخراف في "الطريزيلة" صباحًا، ويقودها من الحارة حتى سوق الغنم، ويربط المواشي واحدة واحدة بحبلٍ طويل في مربط الدلّال هلال المطير. يتمشّى في السوق، وقد يعثر على فرصة شراء رابحة في زاويةٍ مهملة من السوق؛ فيخبر أباه، ليسارع إلى شرائها. مع الوقت صار هلال خبيرًا في سوق البهايم، والطريزيلات معًا. يفتح فم الدابّة، ويلمس أسنانها، فيعرف "الثنيّة" من "الرباع" والفتيّة من الهرمة، ويجسّ ظهرها وضرعها فيعرف الرغوث من الحائل. يفكّ "موتور" الطريزيلة الصغير، ويبدّل بعض القطع دون الذهاب إلى مصلّحي الطريزيلات؛ لا يمرّ بطريزيلة معطّلة في الطريق إلّا توقّف عندها عارضًا خدمته. وفي السّنة التي قضَوها في الحارة، أحسّ صايل أنّ ابنَه حمل عنه عبئًا. يكتفي صايل بـ"السّومة الأخيرة" بعد أن يكون ابنه قد أنجز المقدّمات، وساوم صاحب الحلال مكتشفًا عيوبًا لم يفطن إليها السائمون. يشتريان ويبيعان، ويشربان الشّاي الثقيل في "براكيّة" صلاح. وحين ينفضّ السوق في العاشرة أو بعدها بقليل، يضع جاسم المواشي التي اشتروها، والمواشي التي لم يبيعوها في الطريزيلة ثمّ يعود، ويترك أباه في السوق يتحدّث وتجّار المواشي في شؤون "الحلال" والناس، ثمّ يأتي في باص البلدية البرتقالي الضخم، أو يوصله أحد التجار بسيارته.

يشتري الشعير آخر أيّار بثمن أقلّ، مستفيدًا من حاجة الفلاحين للمال فيبيعون شيئًا من الموسم ريثما تأتي "مصاري الفاتورة". يعرف جاسم بائعي التبن الآتين من

القرى، ويشتري تبن القمح، وتبن العدس، ويشتري "النخالة والكسبة والجاهز" من مؤسسة الأعلاف في العنترية. ويعرف متى يأتي تجّار حلب لتحضير صفقة كبيرة متّجهة نحو الخليج، فيشتري بزيادة بسيطة على "المعرّقين" فتزدحم الأغنام في حوشهم أيّامًا.

فصّل جاسم ثوبًا سميكًا، وإبطيّة يلبسها صيفًا وشتاءً، ملأت الأوراق النقديّة "الرخمة" جيبًا مائلًا منتفخًا فوق أضلاعه اليمنى، احتفى بشاربيه وحلقهما مرارًا كي ينبتا قويّين؛ ثمّ ربّاهما حتّى استطالا فوق شفتيه كثّين أسودين منحاه وسامةً وهيبة، وقالت له أمّه "شايفك كبرت بساع يا وليدي". ذبح أكثر من نعجة قبل أن تموت في السوق، وعلّقها على جدار برّاكيّة صلاح، وباعها لحمًا، مناصفةً ومساهمةً، وذبح خروفين في البيت يوم جاءهم فواز وأهل الصفرة ضيوفًا، وسلخ جلديهما بسرعة قياسية، وباع مواشيَ كثيرة "ع الموس"، ونحر كبشًا هائجًا نطح أخاه الصغير، انتقامًا.

في شهور قليلة تكوّنت شخصيّة جاسم الصايل، شابًا قويًّا، غنيًّا، امتزجت عنده القسوة بالبطولة، ملأته الحروب التي عاشها في نشرات الأخبار، وبياناتها المدّججة بالبلاغة، وأناشيدها الحماسيّة، بشخص بطلٍ من قوّة وبأس ووفرة. كان جاسم يعيش في إهاب بطل يحتاج إلى مناسبة كي يثبتها؛ فكيف لابنة عمّه أن تذهب إلى غريب؟

***

نظر فواز المشعل إلى أخيه حاثًّا إياه على تدارك الموقف، وأطرق الضيوف جميعًا. امتدّت يدا أمّ حسنة إلى وجهها. حرثت أصابع يديها في الوجه المغضّن بهدوء "يا

مسخّمة ياني، يا محمحمة ياني"، حين ضربت على ركبتيها بسخط كانت الخطوط الحمراء تحكي خمشًا نافرًا لم تحسّ بألمه المرأة المضطربة.

- لااااه يا بْني.. باطل باطل.

- بنت عمّي.. ومن حگّي أحيّر عليها.

- وين چنت يا ابن اخوي طول ها الوگت، "قال فواز محتدًّا، الجماعة ضيوفنا، وبدّك تهين عمّك على آخرتها.. تريد تطلّعني ولد جدّام العالم.

- ما لي خصّ.. هذي بنت عمّي.

ونهض فوّاز إلى الشابّ يريد ضربه، فقام الناس بينهما:

- صلّوا ع النّبي يا جماعة.

- احنا أهل، والجيزة قسمة ونصيب.

وجلس الرجال، وذهب الشابّ بعيدًا مع عاصي يُدخّنان، ونظر الضيوف إلى بعضهم يريدون من أحدهم أن ينهض، ولكنّ صوتًا أنثويًّا فاجأ الحاضرين:

- آني أحچي مع جاسم.

أسقط في يد فوّاز وهو يسمع زوجته تتدخّل، وكاد أن يلطمها لولا أنّه رأى في تدخّلها مخرجًا من الورطة الرهيبة، وأحسّ الجمع أن مفاجأة ما تخبّئها العجوز.

في الغرفة الصغيرة، وضعت أمّ حسنة الفانوس بينها وبين الشابّ، ونظرت إليه بهدوء.

- توجّد خالتك عمشة الحسّون؟

- اي .. موجّدها. بس شـ دخلها بالقصّة.

- ليها كلّ الدخل..

أوّل ما جبت حسنة ما چان بصدري حليب، چنت مرضانة، خذوا حسنة على خالتك أرضعتها يومين، وجاتني ثلاثةْ ايام، تجي الصبح، وتجي مرّات العصر..

- واني شـ دخلي، عمشة خالتي ما هي أمّي.

- أمّك راحت هيّ وأبوك ع الدير ثلاثة ايام.. چان جدّك عسكر الله يرحمو بالمستشفى، وگعدوا عليه أبوك وامّك.. چان عمرك تسعْة اشْهر، وظلّيت عندي. حسنة چانت مفطومة، وانت چنت جوعان، خالتك عمشة چانت جايبة جديد، خذيتك عليها، ثلاثْةِ ايّام، رضعة لك، ورضعة لابنها مصطفى.

- مصطفى؟

- اي مصطفى.. ما كمّل السنة، وتوفّى.

- منين جبتِ ها السالفة؟ ما حدا حچى لي ايّاها گبل اليوم.

- استنّى تا أصيح لابوك.

وخرجت المرأة ونادت صايل وأخاه فوّاز.. وذكّرتهما بحادثة سفر صايل وزوجته للسهر على جدّه لأمّه عسكر السماعين، فأجاب صايل:

- اي رحنا ثلاثْةِ ايّام، وخالتك عمشة چانت "موضعة" وماگدرت تروح معانا.. اي كأنها ها الساعة.

- يومها فطمت حسنة، وما ظلّ بصدري حليب. وخذينا جاسم على عمشة.

- ها الكلام أكيد؟

- هذه شهادة انسأل عنها يوم الله.. حسنة أختك يا جاسم.

- كلّ ها السنين وما گلتوا لي.. ليش؟

- لأنّو ابنها اللي هو أخوك بالرضاعة مات وهوّ زغير، وما تفطّنا ع الها الشي إلّا توًّا.

- ايّ والله.. عمشة ضيّعت وليد أصغر من حسنة.

- يا ابني، هذي أختك، أعوذ بالله من ابليس.. شـ تريد تسوّي بينا!.

- آني رايح ع البيت، ما أگدر أظلّ.

- تعوّذ بالله من الشيطان.

- ما أگدر أشوف حدا.

وفي المجلس كان الجمع يتبادلون أحاديث لتزجية الوقت، وخرج الثلاثة، وعلائم الظفر تبدو على وجه العجوز، وقال فوّاز للشباب:

- ول جيبوا لْنا شراب.. ترى تشلهمت گلوبنا.

وعلت زغاريد، وامتلأت سماء الصفرة برصاص خطّاط يومض. وركض الأولاد نحو مصدر الرصاص والزغاريد، وأيقنوا أنّ العيد امتدّ يومًا آخر.

- تمّت -

الفهرس

خربة الشيخ أحمد

نام الشيخ أحمد نومة طبيعيّة، ولم يفق بعدها، حفيدته التي جاءته بالحليب، وجدته نائمًا وطيف ابتسامة على وجهه. "ما شاء الله" قال الملا وتفكر في دورة الموت التي تتقصّد "الشيّاب" الذين لا يحتملون الزكام والبرد وأمراض الشتاء. "في الربيع يموت العشّاق" وابتسم الشيخ، ولم يدرِ أين سمع هذه العبارة، في صوت لندن، أم من مثل كرديّ قديم، أم وجده في كتاب قرأه. حين وصل البيت، عرضت عليه زوجته أن تصنع فطورًا، ولكنّه فضّل أن يغفو بعض الوقت، وكان الوقت مبكّرًا على بثّ الإذاعة السوريّة التي تبدأ بالقرآن الكريم في الخامسة والنصف، وآنس من الفراش بقايا دفءٍ، وقاومته صورٌ مختلفة تجمّعت عند وسادته، صور مجلس العزاء، وأحفاده في القامشلي، وطفولته البعيدة، هناك حين قرأ الملا الحروف العربيّة أوّل مرّة: "أليف.. با.. تا.. ثا..." وصورة الشيخ يشجّعه على القراءة، واندغمت الصور، وحاول الملا تفكيكها، ولكنّ النوم منعه.

عيسى الشيخ حسن

شاعر وكاتب سوري مقيم في قطر ولد في 1965

له عدد من الأعمال الشعرية منها:

(يا جبال أوبي معه ،أناشيد مبللة بالحزن، حمام كثيف)

وحاصل على عدد من الجوائز الأدبية منها:

جائزة الشارقة للإبداع، وجائزة عبد الوهاب البياتي الدورة الأولى.


978-625-7240-12-0

